الأمير عبد القادر

رائد الكفاح الجزائري

د. يحيى بوعزيز

الدار العربية للكتاب

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع



الدكتور يحيى بوعزيز

الدار العربية للكتاب

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

طبعـة منقحـة ومـزيـد فيهـا

تونس 1983

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى روح الأمير عبد القادر التي كافحت الفرنسيين سبعة عشر عاماً.

إلى الشعب الجزائري حفيد الأمير المكافح في سبيل العزة.. والحرية.. والإخاء.. والمساواة.. والسلام..

أهدي هذه الصفحات الثائرة من حياة ثائر!!

يحيى بوعزيز



رسم للأمير عبد القادر (لمحمد راسم)



مقدمة الطبعة الثالثة

رغم ما كتب عن الأمير عبد القادر ، وما نشر عنه من كتب ودراسات ، باللغة الوطنية والأجنبية ، فان جوانب كثيرة من حياته ونشاطاته العسكرية والسياسية والدبلوماسية ، ما تزال بحاجة الى دراسة ، بسبب كثرة اتصلاته ، وسعتها ، وتنوعها ، مع جهات كثيرة ، وفي أصقاع متعددة من العالم . مما لم يسمح للكتاب والباحثين ان يطلعوا عليها كلها ويقيموها .

وتأكد هذا الرأي وتدعم بالدراسات ، والموضوعات الجديدة التي نشرت عنه بعد استقلال الجزائر عام 1962 حتى في العالم الجديد الأمريكي .

ولقد اتاحت لنا فرص البحث والدراسة في موضوع ثورة المقراني والحداد عام 1871 ، ان نطلع ونكتشف المزيد من الوثائق والرسائل بعضها له والبعض لعماله وخلفائه واعوانه ، والبعض لشخصيات اخرى ، ووزراء وحكام ذوي صلة به ، تحوي الكثير من المعلومات والنشاطات التي كان يقوم بها في مختلف الميادين العسكرية ، والسياسية والديبلوماسية ،

سواء يوم كـان يتزعم الثورة داخل الجزائر أو بعد أن رحل الى منفـاه بدمشق الشـام في المشرق .

وتكشف هذه الرسائل جميعها على مدى الصلات الواسعة التي كانت له مع عماله وولاته ، ومع الشخصيات السياسية في العالمين: العربي الإسلامي ، والأوروبي ، وذلك مما يؤكد المكانة التي كـان يحتلهـا في المحافـل الدوليـة .

في الوقت الذي كـان يخوض فيه غمـار الحرب والثورة ضد الاستعمـار الفرنسي بالجزائر بذل هو وعماله جهودا كبيرة وواسعة ومكثفة ، لربط الصلات وتوثيقهـا مع بايات تونس ووزرائهم ، من أجل دعم المقـاومة المسلحة الجزائرية ، وإيجـاد متنفس لهـا ، ومورد للتزود والتموين ، في إطـار استراتيجيـة احكـام الحصـار على جيش الاحتلال الفرنسي ، فراسلهم بنفسه ، وفعل مثله خلفاؤه وأعوانه ، كالحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمـن ، والشيـخ محمـد الحسناوي بن بلقـاسم ، ولـكن بايـات تونس اختـاروا طريقـا آخـر ، ووقفوا ضده وضد الحاج أحمد بـاي ، وأنبوا أعوانهم الذين حاولوا تقديم العون له ، كما فعلوا مع زاكي كرطوزو وكيلهم بجبل طـارق . وراسل ملـكة إسبانيـا وحكـامهـا العسكريين في مليلية طالبـا العون والتـأييد بالمـال والسلاح وراغبـا في التوسط بينه وبين فرنسـا لتوقيع سلم ومعاهدة تتيح له العودة الى بلاده .

وبعد أن غـادر الوطن ، واستقر بمنفـاه في دمشق ، لم يتوقف عن النشـاط الديبلوماسي ، ولم يتردد في تقديم العون لاخوانه المـكافحين الجزائريين ، خـاصة في ثورة 1871 ، امثـال المقرانيين ، ومحمد الـكبلوتي بن الطاهر بن رزقي ، وبن نـاصر

ابن شهـرة ، ومصطفى العقبي ، فراسل وزراء تونس أمثال خير الدين ، ومصطفى خزندار ، ومصطفى بن اسماعيل ، وراسل باياتهـا أمثـال : المشير أحمـد بـاشـا ، وحسن بـاي ، ومصطفى بـاي ، وطلب منهم جميعا تقديم العون لهم وايواءهم ، وتخفيف عبء التشرد عليهم إن أمكن ، او توجيههم اليه في دمشق رغم كثرة عددهم .

ان مثل هذه المواقف من الأمير عبد القـادر ، تؤكد عطفه على حركـة الجهـاد والمقاومة الوطنية من أجل تحرير بلاده ، رغم تخليه هو عنهـا منذ مدة طويلـة تزيد عن عشرين عـامـا .

والى جانب هذه المواقف النبيلـة تجـاه اخوانه المكافحين الجزائريين كانت له صلات وصداقـات متينة مع الشخصيات الأوروبية العلمية والسيـاسيـة ، والاقتصادية ، امثـال : نابوليون الثـالث ، والمقاول الفرنسي فرديناند دوليسبس وأخيه جول د وليسبس والقائد روديو ، وحاول بعض هؤلاء الساسة أن يستفيدوا من صداقته ومركزه ، لصالح بعض مشاريعهم الاقتصادية ، كمـا فعل دوليسبس وروديو في موضوع قنـاة قـابس والبحر الإفريقي في منطقة شط الجريد ، إذ طلبـوا منه ان يتدخل لدى سكـان المنطقة ويقنعهم بأهمية المشروع حتى يضحوا بأراضيهم التي ستغمرهـا الميـاه ، فيسهل عليهم انجـاز شق القنـاة .

ولقد ساعدنـا البحث والتنقيب في دور المحفوظات ، على الـكشف عن هذه الرسائل والوثائق ، فكونا منهـا ملفا هـامـا لنشاطه الديبلوماسي خلال المعركـة المسلحـة بالجزائر ، وبعدهـا بالمنفى وجعلنـاه قسمـا خامسـا اضفنـاه الى هذه الطبعـة الثـالثـة الجديدة من هذا الـكتاب بعنوان : الأمير الديبلوماسي .

وهو قسم وثائقي هام يحوي موضوعات جديدة وشيقة في مضمونها ومحتواها ، نوعناها حسبما يلي :

أ) الجديد في صلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية .

ب) جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية .

ج) موقف بايات تونس من ثورة الأمير عبد القادر .

د) وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 .

ه) تدخل الأمير عبد القادر لدى سلطات تونس لصالح الثائرين : محمد الكبلوتي وبن ناصر بن شهرة .

و) الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الإفريقي .

كذلك وضعنا فهرسا جديدا للمراجع التي اعتمدناها ، وحذفنا كل ما هو حشو زائد من الألفاظ والعبارات ، وبذلك تكون هذه الطبعة الثالثة بحول الله جديدة في الأسلوب والمضمون ، غير اننا لم نحاول ان نحدث تغييرا في صلب الكتاب الأصلي لأن ذلك يتطلب وقتا وجهدا ، وعسانا بهذا نكون قد أضفنا جديدا لكفاح الأمير عبد القادر ، وللمقاومة المسلحة الجزائرية في القرن الماضي .

والله الموفق .

وهران حي الصادقية
الجمعة 9 شوال 1397
23 سبتمبر 1977

د. يحيى بوعزيز
جامعة وهران ـ الجزائر

مقدمة الطبعة الثانية

تحتفظ بلاد الجزائر بميزات خاصة في شمالي أفريقيا منذ القدم ، نظرا لموقعها الجغرافي الممتاز على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولامتداد رقعتها إلى دواخل القارة ، وربطها بين تجارة المناطق الساحلية وأقاليم الصحراء الكبرى وما وراءها . وكان ذلك كعامل للوحدة السياسية التي تحققت في عهد المرابطين والموحدين والتي ينشدها الأفارقة اليوم ويسعون الى تحقيقها بكثير من الجد والحزم .

وبسبب هذا الموقع الممتاز الذي تحتله الجزائر ، لعبت دورا هاما طوال حقب التاريخ إلى اليوم سواء في ميدان الكفاح أو البناء والتشييد .

فازدهرت فيها الحياة الفكرية والحضارية والعمرانية في عهد الفينيقيين الذين اندمجوا مع الأهالي في وحدة سلمية بناءة قوامها تبادل المنفعة التجارية والاقتصادية ، وظهرت في الجزائر ، وفي المغرب الإفريقي كله لأول مرة ، ظاهرة الحياة والاستقرار في المدن الكبيرة التي لم يكن للناس عهد بها قبل ذلك اليوم ، ونتج عن ذلك تطبعهم على الخضوع للحكم المنظم الموحد الذي ظهر مع حياة تلك المدن .

ودخلت الجزائر بعد ذلك في صراع عنيف مع الإغريق اليونـان ، ثم مع الرومـان الذين استهدفوا إخضاع بلاد الشمـال الإفريقي كله إليهم لـكي يتمكنوا من استغلال خيراته الـكثيرة المتوفرة . وسجل التـاريخ بطولات فريدة لفرسـان الجزائر وجنودها البواسل الشجعـان الذين دوخوا حكـام رومـا وقناصلهـا وزعزعوا أمخـاخ رجال مجلس السيناتو (الشيوخ) الروماني ، وكانت أسماء حنبعل ، وأسد روبال ، ويوغورطـا ، تثير في نفوسهم الرعب والفزع .

ولعبت الجزائر نفس الدور ضد الوندال ، وضد الرومان مرة ثانيـة في العهد البيزنطي ، وظهر أبطـال آخرون أمثـال أنطلاس ، وتـاكفـاريناس ، وغيرهمـا أذاقوهم ويلات الحروب القاسية .

وفي العهد العربي الإسلامي أصبحت الجزائر مركز الثقل للحكم الإسلامي في هذا الشمـال الإفريقي ، وملجـأ للمضطهدين الاحرار من سائر العالم الإسلامي الذين تعرضوا للنكـاية في أوطانهم، ففتحت لهم الجزائر صدرها ومكنتهم ، لا من الاستقرار بهـا فقط ، وانمـا من إنشـاء نظم خاصة بهم حسب معتقداتهم كمـا فعل الرستميون بتاهرت .

وعندمـا اتسعت الآفـاق لتحقيق الوحدة السيـاسيـة لبلاد الشمـال الإفريقي مرة أخرى ، بعد الفرقـة والتطـاحن ، كانت الجزائر أول من لبى هذه الرغبة وكافحت من أجل تحقيقهـا ، بل إن فكرة الوحدة نفسهـا نبعت من الجزائر نفسهـا ، فظهرت الدولة الفاطمية في بلادنـا ، ومن قرية إيكجـان بجبـال البابـو انطلقت لتمد سيطرتهـا على المغرب الأقصى ، فتونس ، ثم مصر ، والحجـاز ، وفلسطين ، وبعض أجزاء بلاد الشـام . وكانت هذه التجربة أمثولـة حسنة للمرابطين ومن بعدهم الموحدين الذين

حققوا وحدة الشمال الإفريقي مع أقاليم الصحراء الكبرى وأفريقيا الغربية وبلاد الأندلس .

وخلال كل هذه العهود شاركت الجزائر مشاركة فعالة في بناء صرح الحضارة العالمية بطاقاتها الفكرية وبقواتها المادية والمعنوية ، وأصبحت بجاية ، وقلعة ابن حماد ، والمسيلة ، ومازونة ، وتلمسان ، وقسنطينة ، وأشير ، وغيرها ، مراكز هامة للفكر والحضارة والعمران . ولنفس الميزة السابقة التي تتمتع بها بلاد الجزائر ، والدور الذي كانت تلعبه في توجيه الاحداث والتطورات ، اشتدت عليها غارات القراصنة الأوروبيين وهجماتهم منذ القرن الخامس عشر الميلادي . وكانت قوة الاتراك العثمانيين في أوج عظمتها آنذاك ، تمكنت من التمركز في الهضبة الأرمينية وشبه جزيرة آسيا الصغرى (الاناضول) ، ومدت سيطرتها على شرقي أوروبا كله وتحولت بعد ذلك إلى الشرق الإسلامي فسيطرت بالتوالي على بلاد الشام ، ومصر ، والحجاز ، والعراق ، في فترات متقاربة ، وانتقلت الخلافة الاسلامية الى بني عثمان في القسطنطينية لأول مرة منذ تأسيسها . وكان لمنصب الخلافة شأن وقداسة لا نظير لهما عند المسلمين ، وأكسب ذلك للأتراك سمعة وقوة في كل العالم الإسلامي عوضوا بها فقدانهم للأصل العربي .

فارتأت الجزائر أن تحتمي بظل هذه الخلافة لتضيف إلى قوتها العسكرية قوة أخرى معنوية في صراعها ضد القراصنة الأوروبين ، وكان ذلك كبداية لارتباط المغرب الاسلامي بالخلافة العثمانية ، وهكذا أصبحت الجزائر فيما بعد أكبر قوة ادعة في البحر الأبيض المتوسط تقف باستمرار إلى جانب الدولة العثمانية في صراعها مع القوى الأوروبية المتحالفة ضدها خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ومما لا شك فيه أن الجزائر في عهد الأتراك كانت تتمتع بعبقرية عسكرية هامة أتاحت لها أن تصبح سيدة الموقف في حوض غربي البحر الأبيض المتوسط كله ، وكان التقاء الجزائر واصطنبول في البداية لقاء أخوة وتعاون وتحالف خاصة عندما اشتدت إغارات القراصنة الأوروبيين على المغرب الإفريقي ، وأقاليم الدولة العثمانية في الشرق على طول الشاطىء المتوسط شرقا وشمالا وجنوبا . ولكن الجزائر كانت أشد حرصا على الاحتفاظ باستقلالها السياسي خاصة منذ القرن السابع عشر ، ولهذا أخذت تظهر منذ ذلك الوقت ومن حين لآخر خلافات ومشاحنات بين الطرفين انتهت باستقلال الجزائر تماما بشؤونها الداخلية والخارجية معا . وأصبح كبار الضباط والجنود هم القوى السياسية التي تتحكم في مصير هذا البلد إلى وقت الاحتلال الفرنسي . ولما كان طابع هذا الحكم عسكريا في أكثر مظاهره ، فقد أهملت في الأخير شؤون ومصالح الأهالي ، وأرهقوا بكثرة الضرائب والمغارم التي يفرضها الولاة ويشتطّ الجباة في استخلاصها بعنوان تزويد وتموين الحملات العسكرية التي تجهز باستمرار لمواجهة هجمات القراصنة الأوروبيين . ويحدث أن تصرف وتبذر على شؤون ومصالح الولاة وأتباعهم ، ومن هنا بدأت تظهر عوامل الفرقة بين السلطة السياسية الحاكمة ، والأهالي المحكومين ، وظهر في الأخير حكم تركي إقطاعي نفر الأهالي منه وفقدوا ثقتهم فيه وفي قدرته على مواجهة الأحداث والأزمات التي تحاول أوروبا أن تثيرها ضد الجزائر بشكل جماعي ، وتعقد لذلك مؤتمرات دولية عامة مثل مؤتمري : فينا (1815م) وإيكس لاشابيل (1818م) .

وعندما بدأت أزمة الحملة الفرنسية عام 1830م كانت الجفوة كبيرة بين السلطة السياسية هذه وبين الأهالي ، ومع

ذلك حاولوا أن يتعاونوا معهـا للوقوف في وجه الغزاة الفرنسيين ، ولـكن أخطاءهـا أدت الى عكس المـأمول .

فقد أبعد الداي حسين باشا جيوش المتطوعين من الأهـالي عن المشاركة في المقاومة ، وقصر ذلك على الحاميات العسكرية القليلة الخبرة والعدد التي كانت ترابط بالعاصمة والتي استقدم بعضهـا من وهران وقسنطينة وبعض النواحي الأخرى ، وأسنـد قيادتهـا الى صهره الآغـا ابراهيم الذي لا يعرف شيئـا من فنون الحرب أو الخبرة العسكريـة . وبذلك تمكنت القوات الفرنسيـة من احتلال العـاصمة بقليل من الجهد صباح يوم 5 يوليو عام 1830م ورحل الداي حسين عن الجزائر بعد خمسة أيـام من تسليمه وترك الشعب وحده ليقرر مصيره بنفسه ، فبدأت حينئذ مرحلة النضال الشعبي وتعددت الأحداث ، وتوالت الثورات المسلحة واحدة بعد الأخرى وكانت أولاهـا ثورة رائد الـكفاح الجزائري الأمير عبد القادر صاحب موضوع هذا الـكتاب الذي نقدمـه للقراء في طبعته الجديدة المنقحة ، ثم تتابعت ثورات أخرى غيرهـا مثل : كفاح باي قسنطينة الحاج أحمد (1830—1837) وبو معزة (1845—1847) ، وسكـان واحة الزعاطشة عام 1849 ، وبوعود ، وبو بغلة ، وبو حمـارة (1851—1855) ، والحاج عمر ، وفاطمة نسومر (1851—1857) ، ومحمد بن عبد الله (1841—1895) ، وبن ناصر بن شهرة (1851—1875) ، وبوشوشة (1869—1874) ، وثورة أولاد سيدي الشيخ (1864—1881) ، والمقراني والحداد عام 1871 ، وسكـان واحة العمري عام 1876 ، والاوراس عام 1879 ، والشيخ بوعمامة والجنوب الوهراني (1881—1883) .

وهكذا إلى أن قامت الثورة الـكبرى في أول نوفمبر عام 1954م . وحطمت كل ما بقي من الاغلال والقيود ، وحققت للشعب استقلالـه وللبلاد حريتهـا وشخصيتهـا في يوم 5 يوليو

عام 1962م . وكانت هذه حصيلة نتاج كل الثورات السابقة ، كما كانت حلقة الوصل بين ماضي الجزائر الزاخر بالامجاد والبطولات ، وحاضرها المتوثب ، ومستقبلها الذي تنشد فيه العزة والكرامة والتقدم .

إن الأمير عبد القادر يفرض على الجزائر وشعبها احتراما خاصا لا يكفي فيه أن نقيم له الذكرى أو نطلق اسمه على شارع أو معهد ، وإنما يجب أن نكرمه بالأمور التالية :

1 — أن ننقل رفاته من دمشق إلى مدينة معسكر مركز انطلاق ثورته (1) .

2 — أن نحرر كل آثاره التي ما تزال أسيرة في المتاحف الفرنسية ، ونضيف اليها ما هو موجود في دمشق وغيرها ، ونكون من مجموعها متحفا خاصا يقام إلى جانب ضريحه بمعسكر .

3 — أن نقيم له تمثالا ضخما فوق المنصة التي كان يجلس عليها تمثال الدوق دورليان في ساحة الشهداء بالعاصمة (2) .

4 — أن نعيد طبع كل آثاره الفكرية والادبية التي خلفها وهي كثيرة جدا .

بهذه الأشياء يمكن أن نكرم الأمير عبد القادر وجهاده في سبيل تحرير وطننا وشعبنا . وبهذه الأشياء سنكون أوفياء له بحق .

---

(1) تحقق ذلك فعلا في يوم 5 جويلية 1966 . ولكن رفاته نقل الى مقبرة العالية بالجزائر العاصمة ، بدلا من معسكر . واتخذت صورته رمزا للعملة الوطنية .

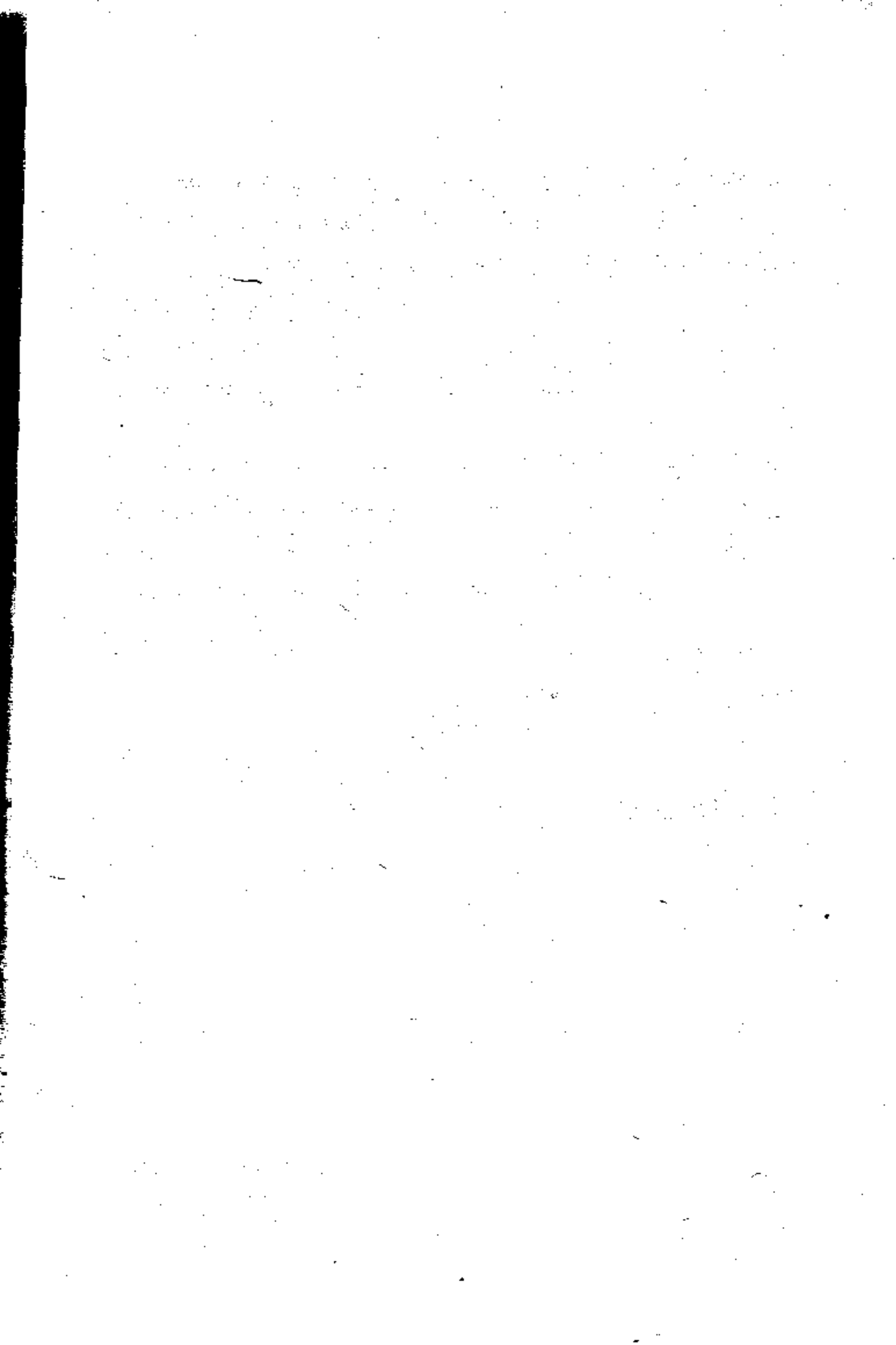
(2) تحقق ذلك أيضا . ولكن تمثاله أقيم في المكان الذي كان يوجد به تمثال بيجو بشارع العربي بن مهيدي بينما أزيل تمثال الدوق دورليان وأعيد الى فرنسا .

وهذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ هو دراسة مبسطة لحياة هذا البطل وكفاحه وأحداثه التاريخية ، ولمدى ما كان يتمتع به من خبرة سياسية ومقدرة فكرية وثقافية . وقد أدخلت عليه بعض التعديل وحذفت ما رأيت أنه غير لازم ، ولم يسعني الوقت لكي أزيد فيه وأتوسع ولكني أعد القارئ بأن أفعل ذلك في طبعة أخرى قادمة ان شاء الله .

وأتمنى مخلصا أن تكون هذه الدراسة حافزا لكل الإخوان الذين في مقدورهم وطاقتهم ، ان يقتحموا هذا الميدان ، حتى نروي هذا الجفاف الفكري الذي عمّ بلادنا حقبا طويلة من الزمن . وكنا نتعلل بالاستعمار أما اليوم فلم يبق أي عذر . والله يوفق الجميع .

الجزائر في يوم الجمعة 29 ربيع الاول 1384 هـ.
7 أوت 1964 م.

يحيى بوعزيز



مقدمة الطبعة الأولى

ان مشكلة التأليف في مغربنا العربي الكبير مشكلة عويصة جدا ... مأساة خطيرة تكاد تغرق وعينا في يمّ العدم ، خصوصا في هذه السنوات الأخيرة الحمراء .. التي ثار فيها مغربنا العربي الكبير ثورته المباركة الماجدة يدافع عن حقه الشرعي لنيل حريته المغصوبة واسترجاع كرامته المثلوبة .

هذا المغرب الحبيب الذي أجبر العالم على الالتفات اليه ومساعدته على الوصول الى مرماه المقدس . فثارت تونس واستقلت ثم المغرب الأقصى فاستقل . ثم ... الجزائر — وهي تجاهد اليوم جهاد الأبطال وستستقل .

ولكننا لو تصفحنا الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية لوجدناها — مع الاسف — تشكو الجوع والفراغ المخجلين في ظروفنا الثورية .

وانا هنا لا نريد ان نستعيد ما كان للقلم في ميدان الثورات ، بل في بعث الأمم وخلق الثورات ، فتاريخ العبيد ملىء بها ، لهذا ... ولهذا فقط نخجل الخجل المخجل أن نتصفح ماكتب اثناء ثورتنا .

فقد استقلت تونس ولم يكتب عنهـا الا قصائد لا تعدو أصابع اليد الواحدة .. ولم يؤلف عنهـا الا كتـاب بل اثنـان أستغفر الله .. و(شيء) ثالث سماه صاحبه – وقلده النـاس – (ديوانـا) بل أستغفر الله (ملحمة) ..

ولا ريب ان (هوميروسنا) هذا كان يعتقد مفتخرا أن (شيئه) هذا كان يقارب – ان لم يشابه او يفق – إلياذة الأعمى .

واستقل المغرب الأقصى الشقيق فكتب عنه وعن ثورته (المباركة) كتاب واحد اقل صفحات من الفية ابن مالك وابعد اسلوبـا عن الثورة !!

والجزائر اليوم تكافح – وستستقل هي الأخرى فألف عنها ... وعن ثورتهـا المـاجدة صاحب الفضيلـة القديس (فضيل الورتلاني) كتـابـا اقرب حجمـا من (الجزائر الخارجة عن القانون) واكثر فصولا من (اقرب المسالك) .. هذا ما الفه القديس الورتلاني عن كفـاح الجزائر .

وكتب والف عن ثورة الجزائر عديدون ولكنهم – مع الأسف المميت – أجنبيون أو غير جزائريين ممن يعيشون على تربة الثورة الجزائرية .

ألف عنهـا في الشرق والغرب بالعربية والفرنسية والانجليزية وما زال يؤلف .. امـا ابناؤهـا فمنهم من جرفهم التيار .. ومنهم من يقارعون الاستعمار بالحديد والنار .. ومنهم من يكتب . ويكتب على صفحات الجرائد والمجلات .

امـا الكتب .. فقد صدرت ولكن بالفرنسية من طرف (جزائريين مسلمين) كالذيب ، وفرعون ، ومعمري ، وغيرهم ،

ولـكن كتاباتهم كانت ملفعة بستُر (تغم) الحقيقة التي يطيب للثورة أن تميط عنهـا اللثـام .

وهـذا جانب ومشهد من مـأسـاة التـأليف في مغربنـا العربي الثـائر . ولإيفائه حقه تلزم المجلدات . والمقـام لا يناسب مثل هذا .

وانمـا تعرضت لهذا .. وكشفت عن هذا الجانب ليظهر لأخي القـارىء المجهود الجبـار الذي تجشمـه مؤلف هذا الـكتاب القيم الاخ بوعزيز . كباكورة في ميدان التأليف في المرحلة الثوريـة لهذا الوطن المجـاهد .

والأخ بوعزيز يعرفـه قراء ابنـاء المغرب العربي من كتاباته (الثـائرة) — وغضبه المفضوح — التي يخطهـا بقلمه الذي تشتم منـه رائحـة البارود .. ولعنـة الثوار على غلاة الاستعمـار اعداء الأحرار .. وأجدر بنـا ان نسميه (الـكاتب الثائر) لأنه لم يكن الا ثائرا : « اني ثائر اعشق الثورة واطمح لتغيير الأوضاع البائدة .. والى جانب هذا احب من كل مواطن أن يحيـا ثائرا يتغذى بالمبادىء الثوريـة ، بمعنى : يقرأ ثـائرا .. ويناقش ثائرا .. ويأكل ويشرب ثائرا .. ويكتب ثائرا .. ويحلل ثائرا .. ويدرس ثائرا .. عسـانا نتخلص من رواسب الاستعمـار » (1) .

بل يعرفه ايضا المعرفة الجيدة مجرم الحرب (لاكوست) . وهمـا صديقـان حميمـان .. وهل ليس من الصداقة ان ينبه الصديق صديقـه الى أخطائه وعوائق ما تأتيه يداه ممـا يستنكر

(1) من مقال له في جريدة الصباح التونسية 1956/12/13 .

عليه ؟ وهذا عينه ما لم ين يفعله الأخ بوعزيز ــ مخلصا ــ مع صديقه (لاكوست) .. ولكن لا حياة لمن تنادي يا يحيى !!

والكاتب ــ كما يبدو من عنوانه ــ لا يتكلم عن ثورة اول نوفمبر 1954 ولا عن الاحداث او الدواعي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بل حتى الاخلاقية التي دفعت شعب الجزائر لأن يثور ثورته الخالدة الماجدة . ولكنه يتحدث عن الشرارة الأولى لثورة اول نوفمبر 1954 وعن (الفلاق) الأول الذي حمل السلاح لتنتصر ثورة اول نوفمبر 1954 .

ولعل هذا من أبرز المظاهر التي تشهد للكتاب بقيمته الملحوظة وكدليل على هذا هو ان الكتاب لو ظهر في ظرف غير هذا الظرف ــ ظرف الثورة ــ لما استحسن ولما بلغ الصدى الذي يؤمله مؤلفه ــ او بعضه على الاقل ــ ولما قدّر الأمير الثائر حق قدره ــ اذ ألفت عنه التآليف العديدة . ولكنه بقي مع ذلك مغمورا او مجهولا عند بعض الناس وفي طليعتهم ابناء المغرب العربي الكبير . وأخص منهم نحن ابناء الجزائر المجاهدة .. حفدة هذا الثائر .. الذي كان اول من حمل السلاح ضد القوات الاستعمارية المحتلة .

ومن هنا تبرز الظاهرة الثانية والمزية الأخرى لهذا المؤلف المتواضع . وهو جعله بين أيدينا دراسة ضافية (مقنعة) لأمثالنا ــ وللباحثين ايضا ــ يعرفنا فيها على شخصية الأمير من عدة جوانبه .. وما أكثر جوانب شخصية الأمير عبد القادر ــ فهو البطل المغوار الذي تشهد ساحات الوغى بشجاعته واقدامه .. وهو الفقيه والقاضي .. وهو العالم الذي منح عضوية الاكاديمية الفرنسية بباريس .. وهو القائد .. ورجل الدولة الحكيم .. وهو رب العائلة الرشيد .. وهو الشاعر الفحل الخ ...

وكل هذا ... وجميع هـذه الجـوانب تجدهـا في (مجهود) الاخ بو عزيز موجزا حينـا ومشفيـا احيانـا .

ان هذه الدراسة من شاب ناشيء مثل الاخ بو عزيز يعتبر عملا جبـارا حقـا .

انه بكتـابه هذا يأخذنـا من ايدينـا — في ثورته طبعـا — ويقودنا الى تلك الأرض الطيبة حيث الكفاح الشريف .. وثورة الشعب المجيد .. ودسائس الاستعماريين .. ومنكراتهم الفاحشـة .. وتعذيباتهم للاهـالي الفاضحة المخزيـة ، حيث الصراع الخالد بين الحريـة والاستعمـار .. بين الفنـاء والبقـاء .

وانـا لنعجب حقـا من احداث التـاريخ عندمـا نستعيد بعضهـا من ذلك التاريخ الشامخ .. تاريخ الجزائر الثائرة .. ولم تعرف الجزائر .. ولم تكن يومـا الا ثائرة على الاستعمـار .

قلت : اذا ما استعدنـا تاريخ ثورة هذا الفلاق والظروف السياسيـة الفرنسيـة التي كانت تكتنف ذلك الزمـان اذا لوجدناها شبيهـة الشبـه الكلي لثورة الجزائر اليوم تحت قيـادة أبطال جيش التحرير . ووجدنـا الشبه نفسه بين الدسـائس الاستعمارية .. والمؤامرات الاستعمـارية الفرنسية .. تحاول احباط ثورة الأمير عبد القـادر أمس .. وثورة الشعب الجزائري اليوم . ولـكن دون جدوى فالنصر لنـا مهمـا كان الثمن .

ولقد توجه هذا الثـائر اول ما توجه بعد تقلده زمـام الحكم .. توجه الى توحيد صفوف الشعب .. ولمّ الشعث .. وجمع القبائل والتـآخي بين اهلهـا .. وافهامهم ان الاتحـاد قوة .. وبهذه القوة وحدهـا يستطيعون مواجهة العدو .. أفهمهم كذلك ان القضيـة واحدة .. قضيـة الشعب بأكملـه .. قضيـة كفاح مرير ..

وصراع متواصل شديد .. قضية تضحية واستشهاد .. قضية حرية الجزائر واستقلالها .

ولم تستطع الدسائس الاستعمارية آنذاك الفتّ من عزيمة عبد القادر في انتصاره عليها .. فتوحدت كلمة الشعب .. وجمع الشمل .. واصبح الشعب كله صفا واحدا يتقدم الى الموت ينازله .. والى الفناء يقهره .. يواجه القوات الاستعمارية ببطولة وشهامة ، وهو يصرخ صوتا واحدا مدويا : اما ان نحيا احرارا أو نموت ابرارا .

وهذا عينه ما فعله ونادى به وعمل له جيش التحرير وجبهة التحرير عندما عزم قادة الشعب على الثورة الخالدة المباركة ثورة اول نوفمبر 1954 . هذا اليوم المقدس .. الذي سيخلد مقدما في قلب كل عربي حر أنوف .

وتوحدت صفوف الشعب .. وأصبح ابناؤه في صعيد واحد يقفون صفا واحدا في وجه الاستعمار .. فالمجاهدون في الجبال يوالون انتصاراتهم رغم القوات الاستعمارية الغاشمة والخارقة للقوانين الدولية في اكثر الاحيان علّها تفوز في المعركة امام المجاهدين الاحرار .

والفدائيون في المدن والقرى وفي كل مكان .. تزعزع انتصاراتهم امخاخ المسؤولين .. تحيرهم مخاطرة اولئكم الشبان الامجاد الذين يقدمون على الموت في شجاعة نادرة .. واقبال مخيف .

والاهالي .. الاهالي الابطال .. الاهالي الصامدون .. الاهالي الاقوياء بإيمانهم .. الاشداء بعزمهم .. الاهالي العزل

الذين هزموا الاستعمار ووحشية الاستعمار بصمتهم المخيف .. وعزلتهم الرهيبة المقدسة .

الاهالي الذين تلتفت اليهم السلطات الاستعمارية .. والجنود الجبناء الاستعماريون بعد انهزامهم في معاركهم مع ابطال جيش التحرير .. يؤممون في جنون وحنق وكراهية .. شطر تلك القرى الآمنة .. الى الابرياء من اطفال وشيوخ ونساء فيشبعونها تعذيبا وتأليما .. ولكما وركلا وشتما .. وشنقا وسلخا وذبحا ..

ولكن الأهالي الابطال يواجهون جميع هذه الوحشية البغيضة بصبر وقوة وإيمان المؤمن بالله .. ونصر ثورته المباركة .

وكما عرفت الحكومة الفرنسية أمس تعرف اليوم بوسائلها الوحشية الاضطهادية الخاصة .. وبوسائلنا السلمية الهادئة الخاصة .. تعرف ان الشعب كله مجند على بكرة أبيه ... وانه صمم اليوم على الكفاح .. وعلى النصر الى آخر قطرة من دمه .. وأن الشعب كله يصرخ اليوم : اما ان نحيا احرارا او نموت ابرارا .

والعجيب ايضا — اخي القارىء — هو ان السياسة التي كان يتبعها المسؤولون الفرنسيون تحت زعامة (بيجو) هي الامدادات العسكرية اثر كل هزيمة شنعاء .

اجل ! فقد كان هذا الحكيم (بيجو) يعتقد في اصرار عنيد بعد الهزائم التي كانت تلحق جيوشه الجرارة .. كان ينادي دائما بالامدادات العسكرية .. تلو الامدادات .. ظانّا المسكين ان مثل هذه الامدادات تفت من عزيمة شعب صمم على النصر مهما كان الثمن .. شعب يؤمن بعدالة قضيته ..

ذلك ان هذا الحكيم (بيجو) كان يحفظ عن ظهر قلب عدد تلك المعارك الظافرة .. الطاحنة .. التي انتصر فيها الأمير عبد القادر على الجنود الاستعماريين .. ومن أشهرها : (واقعة خنق النطاح الأولى) (1) باحواز وهران التي هزم فيها الأمير الثائر .. الجند الفرنسي شر هزيمة .. وخرق الرصاص جميع ثيابه .. وقتل فرسه فاستعاضه بآخر مستمرا في القتال حتى نهاية المعركة التي انتصر فيها النصر المبين .

فكان الحكيم (بيجو) يلجا الى الخيانات .. والدسائس .. والمؤامرات .. والى التعذيبات الشنيعة بالاهالي .. ومحاولة تفرقة صفوف الشعب الموحد .. بعرضه على رؤساء القبائل الهدايا المغرية .

ولنسمع الى قول شرشل الانكليزي :

« لما رأى الفرنسيون ما اجراه الأمير في نواحي شرشال من اراضي متيجة مما كان سببا في رجوع القبائل الى طاعته .. وشاهدوا انقطاع الناس اليه .. وبذل نفوسهم دونه في اقرب مدة بادروا بارسال بذر الذهب والفضة رشوة لاكابر القبائل كي يستميلوا بذلك قلوبهم ويردوهم الى ما كانوا عليه من الانقياد اليهم ، وتارة يتهددونهم فلم يجدهم ذلك نفعا ، ولم يصغ لهم احد . بل عكفوا على طاعة الأمير ، وحافظوا على اموالهم وأوطانهم » (2) .

اجل ! لم يجب غلاة الاستعمار احد من افراد هذا الشعب المجاهد ولم يبهرهم الاصفر الرنان . ذلك ان الأمير نفخ فيهم

---

(1) عد الى فصل : (احداثه التاريخية المشهورة) من الكتاب .

(2) عد الى الفصل السابق .

من روحه النضالية الطاهرة . فأصبح كل فرد من افراد الشعب يعتقد ان ثورته تلك لم يقوموا بها بجانب قائدهم الفلاق .. لم يقوموا بها طمعا في الملك .. او ابتغاء للجاه .. وانما قاموا بها لتحرير الدين والوطن .. من الارجاس الاستعمارية .. ولتحرير تلك التربة المقدسة من النظم الاستعمارية .. ثاروا لتحيا الجزائر حرة مستقلة .

قلت: العجيب ان نجد في ثورتنا اليوم شبيها للحكيم (بيجو) . ذلك هو .. عبقري القرن العشرين .. صاحب الوعود الكاذبة .. والتضليلات الفاشلة .. السفاح الاكبر .. مجرم الحرب .. انه « لاكوست » والمحترم « ربع الساعة الاخير » .

فكم نادى هذا العبقري لاحباط الثورة الجزائرية .. وكم وعد فأحسن الاخلاف .. وعد بانه يقضى على الثورة الجزائرية ... واعطى مآت (ربع الساعة الاخير) .. ليطفىء هذا اللهيب في كامل القطر الجزائري الثائر ولكن دون جدوى .

ولقد اباح هذا السفاح لسلطته الغاشمة آلاف المرات ان تعبث بحرمة الاهالي العزل .. وتعذبهم .. ولكن دون جدوى .

ونادى بالامدادات العسكرية .. تلو الامدادات حتى بلغ المحاربون الفرنسيون اليوم مليونا او اكثر .. ولكن انتصارات جيش التحرير في الداخل وجبهة التحرير في الخارج .. وانتصارات الفدائيين في كل مكان .. وصبر الاهالي العزل وتضحياتهم .. وعزيمتهم الصمود .

امام هذه الطاقة الشعبية الجبارة فشلت تلك المصفحات والدبابات والرشاشات والطائرات في ان تتغلب على الشعب الذى صمم على الانتصار مهما كان الثمن .. هذا الشعب البطل المجاهد



الذي أقسم جميعه القسم الاكبر ان يرد العدوان بالعدوان .. وان يستمر في كفاحه المرير حتى نهاية المعركة والى آخر قطرة من دمه حتى تستقل الجزائر المكافحة .

فالتجأ (لاكوست) .. المحترم (ربع الساعة الأخير) .. التجأ الى الدسائس والمؤامرات وكلنا يعرفها .. ويعرف تلك المؤامرات الخطيرة او هكذا ظنها العبقري بانها ستقضي على الثورة .. انها مؤامرة (القبايل المجاهدة) عندما جند فرقا عديدة وسلحها بأجود الاسلحة وأفتكها للقضاء على الفلاقة . ولكن العبقري كاد يقضى بالسكتة القلبية عندما وصله ان هذه الفرق التحقت بالثوار .. بالاحرار .. وانه سقط في يده .. ووقع في الجب الذي حفره بيده .. وتيقن (لاكوست) .. أنه أمام شعب كل من فيه فلاق .. حتى الرضيع هو فلاق اليوم .. وحتى الرضيع يصرخ اليوم مع الشعب : أريد ان أحيا سعيدا او أموت شهيدا .

ومن العجيب ايضا أن الأمير عبد القادر الثائر الأول لدهائه العسكري .. ولتنقلاته في واجهات القتال واختفاآته العجيبة سموه (ابا ليلة وابا نهار) (1) . وهو تماما ما وصفت به صحافية عالمية في مقال لها عن الثورة الجزائرية .. أحد قادة الكفاح والبطولة الجزائرية حاليا .. فقالت : « انه يوجد في كل مكان ولا يوجد في اي مكان » .

ولقد عذب الامير عبد القادر كثيرا وأهين .. وضيق عليه الخناق وهو في الاسر . ولكنه بقي محافظا على شهامته وانفته وعزته الجزائرية العربية .

---

(1) عد الى فصل : (معاهدة تافنا) من الكتاب .

ومما يذكر في هذا الصدد ان الأمير عندما أخلفت فرنسا الوعد — وما أكثر ما تخلف فرنسا الوعود — الوعد الذى قطعته للامير يوم استسلامه لها .. عرضت عليه بواسطة دوماس (Dumas) ان يتخذ من فرنسا وطنا له يسكن حيث شاء وتلتزم فرنسا بمساعدته واعطائه كل ما يلزم من المال والأراضي وغيرها مع استرخاصها لكل من يريد السكنى معه أو مجاورته من اصحابه .

اتدري ماذا قال ؟ انه قال : « اني لا اقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج » !

واعظم من هذا انهم عرضوا عليه سكنى باريس فقال :

« ان فرنسا ليست عندي الا سجنا لي ولمن معي . فلا فرق عندي بين طولون وباريس » !! (1) .

اي ورب الثورة .. ورب الثائر الاول سننتصر مهما كان الثمن .. وسنقاوم ونحارب لنيل حريتنا ولو دعانا ذلك لان تطول الحرب بيننا وبين الفرنسيين سبعة عشر عاما ، كما دامت بين الأمير والفرنسيين .. سنقاوم . الى الأمام ودائما الى الامام حتى نهاية المعركة .. ونحقق للجزائر استقلالها وللعروبة وحدتها الجبارة .

اجل ! ايها الأمير : سنحارب ونقاتل ونمشي قدما الى الامام لا تردنا — كما لم تردك وتردنا — تعذيبات الاستعمار . فان هذا لا يمس من عزيمة الاحرار .. ولن يوهن من ارادة شعب اراد الحرية .. والاخاء .. والمساواة .. والسلام ..

---

(1) ارجع الى فصل : (الامير بفرنسا) من الكتاب .



اجل ايها الأمير : سنحارب اعداء حريتنا مهما كان الثمن واعداء عروبتنا واسلامنا الى آخر قطرة من دمنا .. سنعلم الاعداء اننا احفاد الامير عبد القادر .. وهم يعلمون مَن هذا الامير عبد القادر .. وسنعلم الاعداء أننا أبناء أبرار لوالدنا الحكيم عبد الحميد بن باديس .. سنصرخ معه في وجه اعداء عروبتنا واسلامنا :

شعب الجزائر مسلم	والى العروبة ينتسب
من قال : حاد عن اصله	أو قال : مات فقد كذب
او رام ادماجا لـه	رام المحال من الطلب
من كان يبغي ودّنا	فله الكرامة والرحب
او كان يبغي ذلنا	فله المهانة والعطب
هذا لكم عهد به	حتى اوسد في الترب
فاذا هلكت فصيحتي	« تحيا الجزائر والعرب »

اجل ايها الأمير : سنحارب اعداء حريتنا .. وسيحقق ابناؤك – وقد بدؤوا – سيحققون حلمك العظيم .. ويهزمون الفرنسيين و (يجلونهم) عن الأرض الجزائرية الطاهرة الحرة .

ولقد عاهدوك على (اجلائهم) وهزيمتهم مهما كان الثمن وعظم الفداء . وان كل جندي اليوم في الجبال وفي كل مكان .. ليردد معك .. بل كل جزائري يردد فخورا قولك :

وعني سلي جنس الفرنسيس تعلمي	بأن مناياهم بسيفي وعسالي
فما همتي الا مقارعة العدا	وهزمي لأبطال شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي واعلمي انني الذي	أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي

أجل ايها الأمير البطل الهمام .. يا أبا الثورات الجزائرية ! لقد هابك الأعداء وانت في التراب .. ابدا . انك لست في التراب .. انك موجود في قلب كل جزائري وقلب كل حر – وانك حي .. مادامت الحرية حية للاحرار .

واننا لسنا من عبّاد الشخصيات عندما ننادي اليوم بحياة الأمير .. لاننا اليوم جميعا عبد القادر .. رمز البطولة والحرية .. انه فكرة .. أجل ! فكرة تحريرية سامية تهدف الى تحقيق مثل عليا سامية .. فكرة وطنية ماجدة .. تهدف الى الحرية .. والاستقلال .. الى العزة والكرامة والمجد والسلام .

فكرة يؤمن بها الشعب الذي يضحي ويموت .. ويتجشم المشاق والاهوال .. والتعذيبات .. والحرق والتنكيل والشنق والتقتيل .

فكرة يؤمن بها الشعب لاسترجاع حريته .. واعادة مجده التليد .. وحقه المهضوم .. وشرفه المهان .. وكرامته المداسة ..

فكرة الحرية للاحرار . وان مات ابو الثورات الأمير عبد القادر فكلنا اليوم الأمير عبد القادر .. وسنظل كذلك حتى تحقق فكرته هدفها المقدس . وهو تحرير الجزائر « المجاهدة » .. واستقلال هذا الشعب المكافح الصابر .. شعب الجزائر العربي المسلم .. رغم اعداء الحرية والعروبة والاسلام والسلام .

وأراني أطلت عليك أخي القارىء .. وأوشكت بهذا الاطناب ان ابعدك عن الكتاب او اسلب منك الرغبة في مطالعته .. ومتابعة الاخ بوعزيز الى تلك الربوع الثائرة .. واوشك ان ينطبق علي قول الاستاذ يوسف السباعي على الدكتور طه حسين : ان مقدمته لأحد الكتب اوشكت ان تكون جزءا والكتاب جزءا ثانيا ...



وفي الختام لا يسعني كقارىء الا ان اشكر الاخ بوعزيز على مجهوده (الجبار) — وارجو ان يشاركني في هذا القراء الاعزاء — وان اعتبر له عملا كهذا مشاركة (فعلية) في ثورة اول نوفمبر 1954 باعادته علينا هذه الصفحات الخالدة من ثورة خالدة .. ثورة الأمير عبد القادر الجزائري .. الشرارة الأولى لثورة اليوم المباركة المنتصرة .

ونرجو الا يقف الأخ عند هذا الحد .. بل عليه ان يتقدم الى الامام .. ودائما الى الامام — ثائرا — كما عهدناه .. حتى يطلع علينا في القريب بـ (مجهود) آخر .

كما لا يسعني الا ان اشكر — وكل قارىء يشاركني هذا الشكر — الاستاذ محمد خوجة صاحب دار الكتب الشرقية على مجهوداته القيمة المشكورة التي يقدمها للجزائر بطرقه العديدة .. من بينها اخراج هذا الكتاب — وكتب غيره — الى الوجود .

وآمل ان يكون هذا الكتاب فاتحة وداعيا لاخواننا الشبان الناشئين لان يدخلوا المعركة .. ويكتبوا عن الثورة .. وعن كفاح الشعب . وانتصار الشعب .

والله ولي التوفيق !!

تونس 1957/3/24 **عيسى مسعودى محمد**

تمهيــد

في اليوم التاسع عشر من شهري (رجب 1376) و (فيفري 1957) حلت بين ايدينـا الذكرى السادسة والسبعين لوفـاة رائد الكفـاح الجزائري « الأمير عبد القادر » . وفي اليوم الثالث والعشرين منهمـا حلت ذكرى ميلاده السادس والخمسين بعد المـائة . وفي نفس الشهرين ، وفي اليوم الثالث منهمـا وافتنـا ذكرى مبايعته بالامـارة على كامل الوطن الجزائري ، من طرف سكـان الغرب الجزائري .

فكـان هذان الشهران موعدا لذكريـات ثلاث لهذا العملاق الكبير : رمز البطولة الوطنية .

وهذا المجهود المتواضع بين ايدينـا عرض موجز لتاريخ الأمير السيفي ، وسيرته القلمية ، بسطناه في هذه الصفحات المعدودة ، حاولنـا فيهـا كشف الستـار ، وإزاحة اللثـام عن حياة الأمير في مختلف مراحلهـا ، وشتى اطوارهـا .

وهي وان لم تف بـكل ما يجب ان تتحدث به عن هذا البطل العظيم – لان ذلك يستدعي وقتـا طويلا ، ومجلدات ضخمة ، لـكنهـا على كل حال استطاعت ان تحمل الى القراء تاريخ حياته البطوليـة ، ونظام دولته الفتيـة ، ومواقفه الإنسـانية الخـالدة ،



وأشهر أحداثه التاريخية زمان فتوته وشبابه ، وإمارته ، وفي خلال اعتزاله اياها في أخريات حياته .

ويعتبر الأمير عبد القادر قائدا عسكريا ، وسياسيا ، تربطه صلة الشبه بالامام محمد عبده ، والسيد جمال الدين الافغاني حكيمي الشرق ، ومصلحيه العظيمين ، مع الفارق الكبير الذى امتاز به الأمير ، وهو حمله راية الثورة التحريرية زهاء السبعة عشر عاما ، مما لم يتح للافغاني وعبده ، وان اجتمعا معه في حقول العرفان ، والجهاد القولي ، من أجل توحيد الصفوف الاسلامية .

ان الأمير عبد القادر من قادة الفكر ، وأبطال التاريخ ، وعظماء الرجال .

ويعود الأمر في إصدار هذه الدراسة المجملة قبل اكتمالها على الوجه الاكمل ، إذ كانت بنت فترة لم تزد على عشرين يوما ، الى ما نراه من الاهمال والاغفال لشخصية هذا البطل العظيم الذي ما كان ينبغي أبدا أن يكون ، خصوصا وأنه أبو الثورات التحريرية الجزائرية وتعتبر ثورة (غرة نوفمبر 1954) امتدادا لثورته المسلحة ، واصلها الشعب بأشد ما تكون ، وأقر العزم على أن لا ينهيها إلا بعد أن يخلص الوطن من الاستعمار، ويستعيد حقوقه المشروعة في السيادة الكاملة ، والاستقلال التام .

ونحن إذ نعترف سلفا بتقصيرنا في الموضوع نرجو أن نكون قد رسمنا خطوط ومعالم دولة فتية سادت رايتها قرابة الخمسة عشر عاما ، بعد أن قدمنا دستورها التشريعي ، ونظامها المدني ، وقوانينها العسكرية .

وقد وضعنا أمام القراء حياة الأمير في صفحات معدودة متبوعة ببطولته ، وشجاعته ، وانسانيته العظيمة ، وبخبرته العسكرية ، والسياسية ، ومعارفه الواسعة ، وشاعريته المكتملة.

كل ذلك باجمال غير مخل ، وبأسلوب متواضع ، مع الاعتراف بالتقصير في دراسة شعر الأمير بالخصوص ، نظرا لضيق الوقت الذي لم يسمح باكثر من ذلك فاكتفينا بعرض نماذج منه على القراء حتى لا يفوتهم الاطلاع عليه على الاقل .

ولي الشرف بان يصادف صدور هذه الدراسة المتواضعة عن الأمير عبد القادر ، إقامة أول ذكرى عظيمة له ، أحيتها جمعية الطلبة الجزائريين بقاعة المسرح البلدي في تونس (العاصمة) على شرف جمهور كبير من الشخصيات الرسمية التونسية والجزائرية وعلى رأسها نائب عن جبهة التحرير الوطني الجزائري ، وبحضور سفراء الدول العربية الشقيقة : مصر ، والمغرب الأقصى ، وليبيا ، والعراق ، وتركيا .

وذلك مساء الخميس ، السابع من مارس عام (1957) .

ولي الشرف أيضا بان كان إحياء هذه الذكرى الخالدة من اقتراحاتي الخاصة التي حبذها المكتب الاداري للجمعية ، وأسرع لتنفيذها .

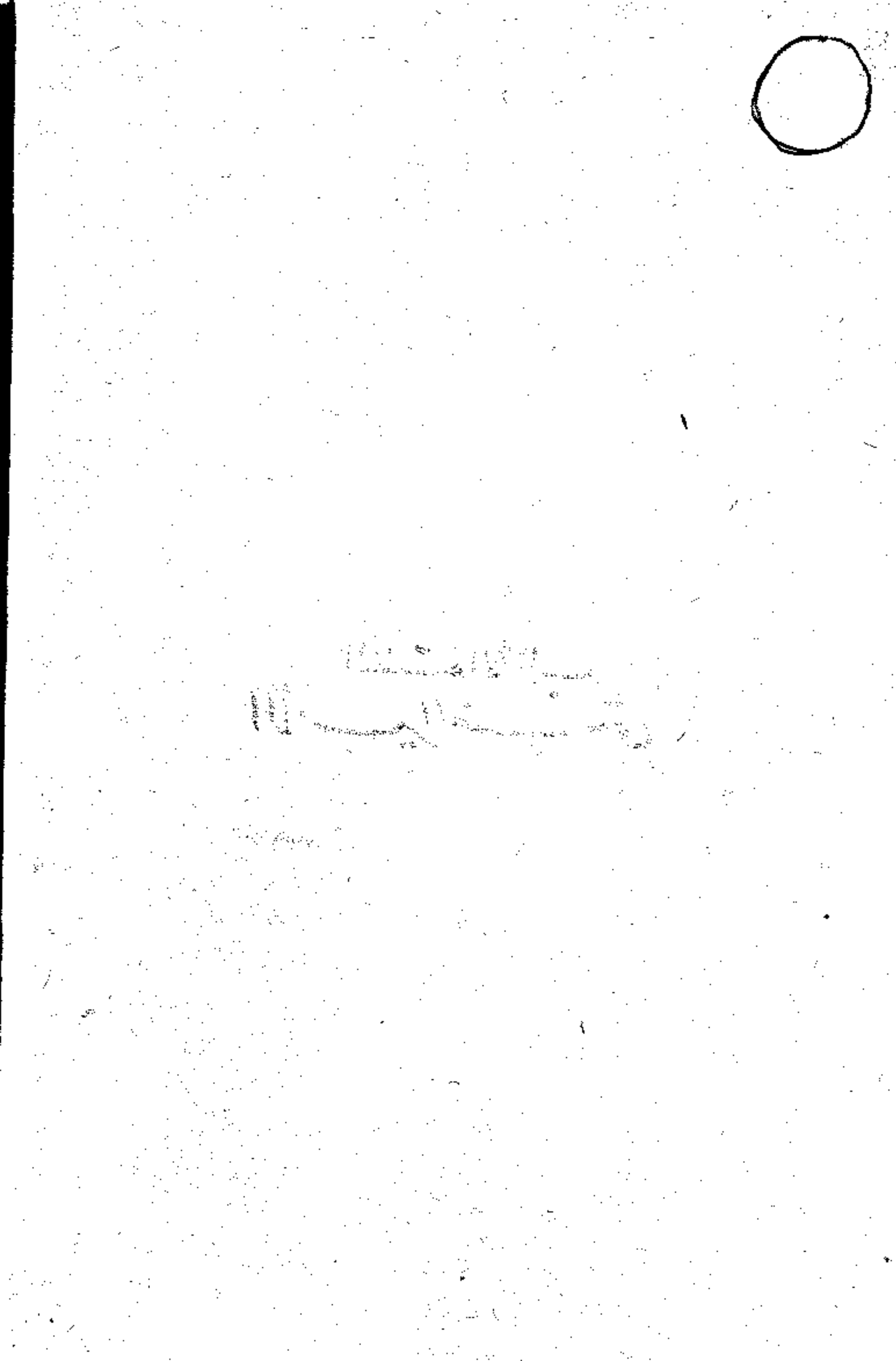
وعساني بهذه الدراسة المتواضعة أكون قد مهدت الطريق لغيري من الكتاب والمفكرين في افريقيا والشرق ، وبخاصة الاقلام الجزائرية ، ليمضوا في دراسة حياة هذا البطل العظيم الذي يكفيه فخرا أن يكون الداعية الاول لتوحيد الصفوف الاسلامية .. والجماهير العربية .. حول راية وفكرة واحدة هي : الملة المحمدية ، وذلك في خطابه المنهجي الذي ألقاه على مسامع الشعب وقال فيه : « وغايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية » .

تونس الاربعاء 18 شعبان 1376
20 مارس 1957

يحيى بوعزيز



القسم الأوّل
الأمير الفتى



نشـأتـه :

الأمير عبد القادر ، ناصر الدين ، هو ابن الأمير محيي الدين الحسيني ، يتصل نسبه بالامـام الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولد في يوم 23 رجب عـام 1222هـ (ماي عام 1807م) — بقرية « القيطنة » واقعة على وادى الحمام غربي مدينـة (معسكر) من ايـالة (وهران) . وبهـا نشـأ وترعرع ، وفي أحضـان والده تثقف ، وكرع مناهل الثقافة والأدب .

وفي عـام (1236هـ — 1821م) انتقل الى وهران مع والده محيي الدين الذي وضعته الحكومـة التركيـة هنـاك تحت الاقامة الجبريـة نظرا الى ان الأهـالي ينظرون اليه نظرة كلهـا احترام وتقدير ، بل وبلغ بالمتحمسين لافكـاره ان اعتبروه زعيمهم الشعبي القـادر على مجـابهـة الاتراك ، وتخليص البلاد من حكمهم الجائر .

وهنـاك في وهران استطـاع الأمير أن يضيف الى ثقـافتـه الأولى ، معارف أخرى من علمائهـا . واستطـاع أن يصل إلى حقيقـة هامـة يشاركه فيهـا والده أيضا هي : ضعف الأتراك السيـاسي والعسكري ، مع اتسـاع استغلالهم للطبقـات الشعبية الـكـادحـة .

وعندمـا أفرجت الحكومـة التركيـة عن والده ، وأذنت له بـأداء فريضة الحج في عـام (1241هـ — 1825م) اصطحبه معه

دون سائر اخوانه الذين يكبرونه سنـا ، وهو رابعهم ، نظرا لما يتسم به من نباهـة في العقل وفطنـة في الادراك إلى جانب معارفه ، وشجـاعته .

ولما كـان الشيخ يتمتع بسمعة طيبـة ، وحظوة واسعـة في الاوسـاط الشعبية ، فانه ما إن انتشر خبر رحلته ونزوحه عن الوطن حتى انضم اليه جمع من الفرسـان لحراسته في سفرتـه الطويلـة الى البلاد المقدسـة .. وأشيع ، وهو صحيح ، ان الوالي التركي كـان يقصد نفيه من الوطن لما رأى ان سمعته في انتشـار دائمـا . وبالطبع فان التجمهر الذي حصل حول الشيخ لم يرتح له الوالي التركي فاستدعـاه اليه ليستطلعـه في الأمر . ومـا إن دخل عليه صحبة ابنه حتى قبض عليهمـا . وتصدى الابن الفتى عبد القادر للداي في جرأة وشجـاعة يقول : نحن مسافرون للحج ، وما هذا الحرس الا القدر الذي يتناسب مع مخاطر الطريق فاذا شئت ركبنا السفينـة أمـامك للسفر والا فلست مسؤولا عن نتائج اعتقـالنـا .

ولم يسع الداي بعد هذا الكلام المفحم الا أن اطلق سراحهمـا وسمح للجميع بمواصلة السفر شطر بيت الله الحرام .

وأتاحت للامير الفتى فرصة اداء فريضة الحج ان يتعرف على تونس الخضراء ، ومصر أرض الكنانة ، ومكة والحجاز : بلد الوحي ومهبط النبوة ، وموطن الرسول الاعظم محمـد بن عبد الله صلى الله عليـه وسلم .

وعند رجوعهمـا عرجـا على البلاد الشامية حيث أقـاما بدمشق عدة شهور تمكن الأمير أثنـاءهـا من الحضور في حلقـات الدروس العلمية التي كان يدرس فيهـا كبار العلمـاء بالجامع الاموي وغيره .

ومن هنـاك توجهـا إلى بلاد الرافدين (العراق) ونزلا (ببغداد) عاصمـة الرشيد . فزارا مختلف المشاهد التاريخية ثم عادا إلى

دمشق وذهبا الى الحج مرة ثانية ثم قفلا راجعين إلى الوطن عن طريق برقة وطرابلس فتونس ، والجزائر العاصمة ، حيث قابلا الوالي التركي هناك .

واخيرا ، وفي يوم مشهود حلا بقريتهما « القيطنة» في أوائل عام (1243هـ 1828م) بعد غياب طويل دام قرابة العامين .

وقد أتاحت هذه الرحلة المباركة للامير الفتى فرصة الاطلاع على أنظمة البلدان العربية ، وسير حياتها في الحكم والادارة ، ومختلف الميادين : السياسية ، والاجتماعية ، وغيرها . فرجع مملوء الوطاب .. موفور الزاد ، بما يصلح أن يسوس به دولة المغرب الاوسط (الجزائر) التي يحتفظ بها له القدر ، ويخبئها له المستقبل .

ولم يمض وقت طويل حتى شنت فرنسا حملة اعتداء على الجزائر العاصمة بدعوى الاقتصاص من حادث المروحة المفتعل . وبعد وقائع مهولة دامت 22 يوما (من 13 ماي إلى 5جويلية 1830) تمكن العدو من احتلال العاصمة .

ورغم أن الشعب كله كان ثائرا وهائجا يريد الدفاع عن الوطن الى آخر رمق ، إلا أن الوالي التركي (حسين داي) أرخى العنان للقنصل الانكليزي الذي لعب دور الوسيط ، واستسلم للعدو بالشروط الآتية :

1) ان تسلم قلاع المدينة ومفاتيحها للقائد الفرنسي ،

2) ان قائد الحملة الفرنسية يعد الداي ألا تمس أملاكه الشخصية ،

3) يخير الداي بين أمرين :

أ ـ أن يبقى بالمدينة مع أسرته في حماية الفرنسيين ،
ب ـ أن يهجر البلاد الى اي مكان يختاره .

4) ان عطف قائد الحملة الفرنسية وعفوه يشملان كل جنود الجيش التركي .

5) عدم التعرض لحرية الدين الاسلامي .. ولا لأملاك الاهالي .. ولا لتجارتهم .. ولا لصناعتهم مع احترام نسائهم وحرماتهم ..

يعدهم القائد بشرفه .

6) تعتبر هذه الاتفاقية جارية ابتداء من يوم 5 جويلية 1830 من الساعة العاشرة صباحا .

وحصل التسليم فعلا صبيحة يوم (12 محرم 1245هـ ـ 5 جويلية 1830م) ورحل الداي الى بلاد المشرق هو وحاشيته ، وعائلته ، ليموت هناك كمدا عام 1838م .

هذه حالة العاصمة . أما عامة البلاد الجزائرية فان العدو بعد أن ركز أقدامه في العاصمة جعل يفكر في الاستيلاء عليها ، ووجه كل اهتمامه وعنايته لهذه الناحية ، فاضطربت الاحوال في البلاد ، وتكدرت الامور ، وعمت الفوضى ، وكثر الشقاق من جراء فقدان الشخصية الرسمية التي تضبط مصير الامة ، وتسوس مصالح الشعب . وجر هذا الى استقلال كل زعيم بناحيته ، وانفصاله عن جيرانه .

البيعة :

ولما تفاقم الأمر إلى هذا الحد ، وتكدرت الحالة في البلاد وساء الوضع السياسي فيها ، ودق ناقوس الخطر ، فكر أهالي الايالة الوهرانية وعلماؤها في الامر ، وتداولوا الحديث حول

الشخصية التي يسندون اليها أمور البلاد ، ويبايعونها بالامارة عليهم لتقيهم من شر الاحتلال وترد عنهم غائلة العدو الغاصب ، ولتعيد الأمن والراحة والاطمئنان والرخاء للبلاد والشعب . ولم يكن هناك من يستحق هذا الأمر العظيم ، ولا من توفرت فيه شروط الامارة ، وقيادة الشعب ، غير أسرة الأمير وعلى رأسها والده الموقر من طرف الجميع (محيي الدين) الذي جمع إلى شرف الارومة ، وكرم الاخلاق ، شجاعة وصولة واقداما ، جعلت قبائل الجهة وعروشها تميل اليه ، فاختاروه أميرا عليهم ، ودعوه ليبايعوه رغم تقدم سنه . وزاد في إلحاحهم عليه من جهة أخرى ، سطوته الدينية عليهم ، إذ يستوثقون منه مبادىء الطريقة الشاذلية .

غير أن محيي الدين اعتذر لهم بكبر سنه . فاتفق الوجهاء ، ومنهم محيي الدين ، على إيفاد وفد إلى صاحب المغرب الأقصى قصد الانضمام اليه . فرضي وأوفد ابن عمه (علي بن سليمان) أميرا على البلاد فاتخذ (تلمسان) مقره الرسمي وامتد نفوذه حتى (مليانة) شرقا وأطاعه الناس ؛ فبث العمال في الانحاء ، وجبى الاموال . وكاد الامر يستقيم له لولا ان فرنسا لم يرق لها مثل هذا الصنيع فاوعزت إلى سفيرها (بطانجة) أن ينذر السلطان (عبد الرحمن بن هشام) بعداوة فرنسا له وإعلانها الحرب عليه إذا لم يسحب ابن عمه . ففضل السلطان الانسحاب من الجزائر بعد ستة أشهر من استقراره فيها .

وكان محيي الدين قد رضي بمسؤولية القيادة العسكرية تاركا أمر مسؤولية حكم البلاد إلى الانتخاب الشرعي بعد طرد جيش الاحتلال . وفعلا ألف جيشا كبيرا من فرسان القبائل وراح يكبد العدو الهزائم والخسائر . وفي أغلب الاحيان يسند الراية إلى ولده الشاب عبد القادر المتقد شجاعة وذكاء ، وبرزت

شجاعته في واقعتي (خنق النطاح) ، خاصة في الثانية حيث قسم جيشه إلى خمس فرق: فرقتين للقتال ، وفرقتين للدفاع ، وخامسة كمنت وراء العدو ، وفاجأته عند تقهقره إلى الوراء وأبادته عن آخره واستولت على كل السلاح والذخيرة دون أن يصيبها أي أذى . وكان الأمير في هذين الواقعيتن بطل المعركة ،أعجب به الجميع حيث كان في طليعتهم غير مبال بأي شيء حتى ان فرسه اصيب بثمان رصاصات في الأولى كما أصيب بطعنة قاتلة في موقعة برج رأس العيون بعدهما .

وهكذا برز الفتى للميدان ،ووجد (محيي الدين) نفسه مرغما على قبول هذا المنصب . وتيقن ان البلاد ضروري لها أن يسوسها أمير ذو سطوة قوية .. ونفوذ كبير يستطيع بها مواجهة الطوارىء ، ومحاربة العدو الغاصب من أجل إخراجه من البلاد . فاقترح بعد ان ألحوا عليه أن يقدم ولده (الأمير عبد القادر) لهذا المنصب الخطير . فابتهجوا لذلك ، وكانت فرحتهم عظيمة ، وسرورهم لا يقدر ، لما يعلمونه عنه من كفاءة ومقدرة فتقبلوا إمارته مسرورين وعقدوا له البيعة الأولى في يوم : 13 رجب 1248هـ (28 نوفمبر 1832م) . وذلك تحت شجرة الدردارة الموجودة بوادي (فروحة) من غريس . وهي شجرة عظيمة كان أهالي غريس يجتمعون تحتها للشورى ، ولقبه والده (ناصر الدين) بعد ان بايعه . ثم بايعه الأقارب ، فالوجهاء والأعيان والعلماء والأسر ، فبقية أفراد الشعب .

ومن غير شك فان هذه المبايعة تمت على غرار بيعة الرضوان التي بايع فيها الصحابة رسول الاسلام محمد بن عبد الله تحت شجرة الحديبية وذلك تيمنا بتحقيق النصر . واقتداء بالرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .

ولئن دلت هذه الظاهرة على شيء فانما تدل على أن سلطة (عبد القادر) ستكون متينة وقوية لانها استمدت من إرادة الشعب عن رضا وطواعية ، وبموافقة تامة منه .

وغبّ البيعة انحدر الأمير ومن معه من الجموع التي تعد بالآلاف الى مدينة معسكر ، ودخل المسجد الجامع فقام في الناس خطيبا يحثهم على الطاعة والاستعداد الى الجهاد ، والسير على مقتضى الشريعة الاسلامية اقتداء بالخلفاء الراشدين .

وقال في خطاب وجهه إلى كافة العروش :

« الحمد لله . إلى قبيلة كذا ، خصوصا اشرافها ، وعلماءها ، واعيانها ، وفقكم الله وسدد اموركم .

« وبعد : فان أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد معهم قد اجتمعوا على مبايعتي ، وبايعوني على أن أكون أميرا عليهم . وعاهدوني على السمع والطاعة في العسر واليسر ، وعلى بذل أنفسهم واولادهم واموالهم في اعلاء كلمة الله .

« وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما اني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي اليه ، مؤملا ان يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ، ورفع النزاع والخصام من بينهم ، وتأمين السبل ، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة ، وحماية البلاد من العدو ، وإجراء الحق والعدل نحو القوي والضعيف .

« فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعا . واعلموا ان غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية ، والقيام بالشعائر الاحمدية . وعلى الله الاتكال في ذلك كله .

فاحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم ، وتؤدوا بيعتكم ، وفقكم الله وأرشدكم » (1) .

فجاء خطابه هذا على غرار الخطب المنهجية التي يلقيها اليوم رؤساء الحكومات في مجالسهم الوطنية . بين فيه خططه الرئيسية ، وبرامجه العامة التي يعتزم ان يسير عليها في سياسته الادارية وفي الشؤون الداخلية والخارجية » .

وهكذا احتفل به في يوم مشهود عندما عقدوا البيعة الثانية العامة في (13 رمضان 1248هـ — 4 ڤيفري 1833م) .

وهذا نص عقد البيعة العامة :

« **بسم الله الرحمن الرحيم**

« وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده .

« الحمد لله الذي جعل نصب الامام من مهمات الدين ، لتصان به النفوس والأموال .. وتجتمع كلمة المسلمين ..

« والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله واصحابه أجمعين .

« وبعد : فقد قال صلى الله عليه وسلم : ان الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن .. هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل ، ونضب فيه الجهل ، فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل ، وانتشر ، وخفي فيه الحق ولم يظهر له اثر . حتى أن اعداء

1) الأمير محمد، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر واخبار الجزائر (الاسكندرية 1903) جـ1 . ص 96-101 .

الله الكافرين ملكوا كثيرا من بلاد الاسلام .. وتشتت الكلمة واختل النظام ، ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا ، ولا من يكون للجهاد دليلا . فالجؤوا إلى الله تعالى وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم ، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد سوى السيد : (محيي الدين) بن مصطفى بن المختار ، لكماله وكثرة ما عنده من الاعوان والانصار .

« فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة ، فاعتذر اليهم بكبر سنه . وبعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات ، ووقع إلحاحهم تارات ، ورأى أن النظر في هذا الأمر قد تعين عليه .

« وأتاه بعض علماء (غريس) وهو من الصالحين فقال له : ان اولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدك (عبد القادر) لنصر دين الله ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر . فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته لكونه ذا حزم وعزم ، وشجاعة وعقل سليم ، وذات سليمة ، صالحة لتنفيذ الاحكام .

« فاجتمع اهل الحل والعقد ، وبايعوه من غير طلب منه للامارة .. ولا متابعة للنفس الامارة ، بل بايعوه رغما عليه ، وطلبوا والده بالله تعالى ، وتوسلوا اليه برسول الله صلى الله عليه وسلم مدة تزيد على سنتين فوافقهم على بيعة ولده تطييبا لخواطرهم ورعاية لرفع الظلم على الضعيف ودفعا للفساد والعنف .

« فحضر للبيعة جميع اهل غريس الحشم : شرقي ، وغربي ، وخالدي ، وعباسي ، وابراهيمي ، وحساني ، وعوفي ، وجعفري ، وبرجي ،وشقراني ، وغيرهم ، كبني السيد دحو ، وبني السيد أحمد ابن علي ، والزلامطة،ومغراوة ، وخلوية ، والمشارف ، وكافة اهل وادي الحمام .

« واعلنوا جميعا بطاعته ونصرته والرعاية له ، بحيث انهم يحمونه بما يحمون به انفسهم واموالهم . وان ينصروه نصرا مؤزرا .

« واتفق علماء الاقليم على بيعته وطاعته . ولم يخالف منهم احد وهم في حال طوعهم واختيارهم .

« وفرحوا به أشد الفرح نظرا لما كانوا عليه من الضيق والترح ؛ وكل من سمع به من أهل الآفاق يزداد رغبة ، وذلك لعلمهم بقوة عقله وشدة نجدته وصلاح رأيه .

« فعلى من بايع أن يبذل جهده في نصرته وعضده ، لقول الصادق الأمين « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين » . ومن نكث فانما ينكث على نفسه .

« حضر ما ذكر من العلماء والاشراف السيد الأعرج ، والسيد محمد بن حوا بن يخلف واخوته ؛ والسيد محمد بن الثعالبي والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي واخوته ، والسيد محمد ابن عبد الله بن الشيخ المشرفي وقرابته ، وكافة أولاد السيد احمد ابن علي .

« حاصله جميع علماء غريس وأشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة ورضوا بها ؛ وحضرها كاتبه محمد بن عبد القادر عامله الله بلطفه في الباطن والظاهر .

« في رجب الفرد سنة 1248 هجرية الموافق 27 نوفمبر عام 1832 ميلادية » (2) .

---

2) نفس المصدر . ص 101—103 .

وصار النـاس بعد ذلك يتشوقون إلى تلك الساعة التي يدق فيها نذير النفير يدعوهم الى الجهـاد ، ولم يمهلهم الأمير قليلا حتى نادى فيهم مناديه فهرعوا اليه من كل صوب وحدب . وخرج الأمير بجيشه الفتي بعد ان نظمـه ودربـه ، فصال في الميدان وجال في مختلف الانحـاء يمهد البلاد ، وينظـم أمور الشعب . وقـام بعمل مزدوج : توحيد صفوف الشعب ومحاربة الفرنسيين . لعب دور القائد العسكري فقاوم الفرنسيين ، ولعب دور القـاضي ففك المنازعات بين القبائل ، ولعب دور السياسي فألف بين الصفوف المتفرقـة .

ونازل الفرنسيين وانتصر عليهم في أغلب الوقائع خصوصا في مدينتي : (وهران ومستغانم) حيث أبلى فيهمـا البلاء الحسن .

وفي واقعـة مستغانم بالخصوص تجلت عبقريـة الأمير الحربيـة لأنـه بعد أن حاصرهـا تقدم في ثلـة من أبطاله نحو السور قصد تهديمه تحت وابل قنابل المدفعيـة الفرنسيـة وأعملوا معاولهم فيـه دون جدوى نظرا للصخور الكبيرة التي لا تسمح بالنفـاذ الى الداخل ، فامرهم بحفر خندق تحت الأرض يمتد من المعسكر إلى اسوار المدينـة . ووضعوا كمية كبيرة من البارود تحت السور أوقدوا فيها النار كي تحدث فجوة كبيرة فيه تمكنهم من الدخول إلى المدينـة . ومع أن العملية لم تسفر عن نتيجة إيجابية لأن الضغط لم يكن قويـا كمـا يلزم إلا أنهـا تدل على خبرة الأمير في فنون الحرب آنذاك .

وطارت شهرته في البلاد حتى عمت أنحـاء القطر الجزائري . وأتته البيعـة والطاعـة من سائر الجهـات . وهرع النـاس زرافات ، وجمـاعات إلى عاصمته (معسكر) لينضموا إلى صفوف الجيش

كي تتاح لهم فرصة المشاركة في معركة الجهاد المقدس ، والدفاع عن حوزة الوطن .

إبرام اتفاقية «دي ميشيل» :

وبتوالي انتصارات الأمير وجيشه الفتي ، اضطر «دي ميشيل» الفرنسي حاكم وهران ان يعقد معه هدنة في (17 شوال 1249 — 28 فيفري 1834) اعترف فيها بإمارته على كامل البلاد في مقابل اقراره لفرنسا بالسلطة على مدن : الجزائر ومستغانم ووهران وأرزيو .

وهذا نصها :

« ان قائدي الجيش المقيم في وهران الجنرال دي ميشيل ، والأمير عبد القادر بن محيي الدين اعتمدا واتفقا على ما يأتي ذكره من الأمور :

1) منذ يوم تحريره (الصك) يصير ترك الحروب • الخصومات بين الفرنسيين والعرب . وكل من الجنرال دي ميشيل والأمير عبد القادر يجتهد في القاء الألفة بين شعبين اقتضت الارادة الالهية ان يكونا جنبا إلى جنب ، ولأجل ذلك يتعين وكلاء من الأمير عبد القادر بوهران ومستغانم ، وأرزيو ، كي لا تقع الخصومة بين الفرنسيين والعرب ، كما انه يقام وكيلا عن فرنسا ضابط فرنسي في معسكر .

2) يصير احترام ديانة الاسلام وعوائد أهله .

3) يلزم رد الاسرى من الفريقين .

4) يصير اعطاء الحرية الكاملة للتجارة .

5) تلتزم العرب بارجاع كل من يفر اليهم من العسكر الفرنسي ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفر اليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث .

6) من أراد من الأوروبيين أن يسافر إلى داخلية البلاد يجب أن يكون مصحوبا بتذكرة تكون عليها علامة وكلاء الأمير. ويصححها الجنرال ، وبذلك يحصل على الحماية في جميع الأقاليم » (3) .

وبعد المعاهدة التفت الامير الى أحوال البلاد ؛ وجعل من تمصيرها وتعميرها الأمر الاساسي لنجاح الثورة ، وتركيز الحكم . ولذلك لم يأل جهدا في تشييد الحصون ، واقامة القلاع ؛ كما لم يفتأ جاهدا في صنع السلاح ، وانتاج الذخيرة الحربية ، في الوقت الذي يعمل فيه على تنظيم صفوف الشعب ، وتوحيد الجماهير حوله ، دفاعا عن الوطن ، وحماية للدين . وفي أسرع وقت استطاع أن ينشىء دولة فتية بكيانها ، ودستورها ، ونظامها وجيشها ، واستطاع أن يسد كثيرا من الفجوات في بنائه الاداري ، والعسكري ، مما جعل مؤرخا فرنسيا يقول :

« كان يقيم العدالة بحزم فيتخذ مع أعدائه القدماء سياسة التسامح ، كان الامن مسيطرا سيطرة تامة على الطرق في كل ولايته ، الامر الذي جعل الأهالي يرددون هذا المثل : يستطيع الطفل أن يطوف مملكته منفردا على رأسه تاج من ذهب دون أن يصيبه أذى .

« لقد كون جشيا من المشاة والمدفعية ، وصنع البارود والبنادق ، وبدأ العمل في تطبيق مشاريعه التجارية والاقتصادية والتصنيعية في كل من (تنس) و (أرزيو) ..

3) نفس المصدر . ص 113 — 116 .

« كان ذكيا حازما ، وعاملا مجدا لا يبدأ عملا إلا أكمله ، لقد كان يتمنى أمرا واحدا وهو أن يكمل كل مشاريعه الخلاقة التقدمية قبل مفارقة الحياة . » (4)

نقض الهدنة :

ولو أتيحت للأمير فسحة من الوقت واسعة لاصبحت دولته من الدول الكبرى ، لها مكانتها في العالم ، ولكن الفرنسيين قوم غدارون لا يعرفون للعهود قيمة ، ولا يقدرون المواقف الانسانية حقها ، فكانوا كما قال الأمير شكيب ارسلان : « كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع أهالي الاقطار التي تضع نصب اعينها الاستيلاء عليها هي في الغالب محاط استراحة بين الحملة والحملة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لا غير ، بحيث لا تعدم عذرا لدى توفر القوة في نقض المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلا على نية النقض » (5) .

فعمدوا إلى نقض الهدنة بجملة من الالتواآت والأباطيل ، وعديد من التفسيرات العقيمة للفظة « هارب » التي يريدون أن يحملوها غير معناها المراد والمقصود في نص المعاهدة .

وذلك من أجل فرض السيطرة الفرنسية على قبائل الدوائر والزمالة (6) اللاتي أعلنت موالاة (تريزيل) حاكم وهران .

---

(4) عن تاريخ المقاومة الجزائرية (1830–1901)

(5) ستودار لوثروب : حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض تعليق الأمير شكيب أرسلان . مجلد 2 (القاهرة – 1352) ص 170 .

(6) اهل الدوائر والزمالة اخلاط من العرب والاتراك كانو يلوذون بالباي محمد حاكم معسكر ، وفاتح وهران من يد دولة اسبانيا . ولما حدث الطاعون العام الجارف لبلاد المغرب الاوسط في اوائل القرن الثالث عشر الهجري خيم انباي في ظاهر البلد ، وخرج الناس لخروجه . فعين من هؤلاء الخدم جماعة للنزول في دائرة خيامه فسموا (دوائر) . وعين اخرين لحمل اثقاله واثقال عسكر فسموا (الزمالة) . (عن تحفة الزائر) . ج1 . ص 138–139 .

ورضوا بحكمه عليهم . وطلبوا منه مساعدتهم على الانتقال إلى أحواز مدينة وهران حيث يشملهم حكمه .

نقض تريزيل الهدنة ولما يمض عليها أكثر من عام واحد : وكان جواب الأمير على هذا قوله :

« وان كنت ولا بد معتمدا على إنفاذ ما صورته أفكارك من إدخالهم تحت حوزتك فاطلب وكيلكم من عندي ، واختر لنفسك ما يحلو ، وميادين المعامع تقضي بيننا ، ومسؤولية اهراق الدماء واتلاف الأموال راجعة اليك وعليك » .

ونادى في قومه بالجهاد العام ، وهو يردد :

« هيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد ، وهلموا اليه باجتهاد . وارفعوا عن عواتقكم برود الكسل ، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل .

« أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا ، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا ؟ » (7) .

وقد استجاب الناس لندائه ، وتجندوا للجهاد ، وما هي الا جولات وصولات في الميدان حتى أدرك الفرنسيون انهم لا قبل لهم بهذا الأمير وقوته رغم ما حاولوه من بث التفرقة ، وزرع روح التخاذل بين جماهير الشعب .

ورغم أن قوات الجنرال (تريزيل) كانت متركبة من : (5000) جندي من المشاة ، وفرقة من الخيالة ، وأربعة مدافع من القطع

---

(7) نفس المصدر . ص 150 — 151 .

الكبير ، وعشرين عربة تحمل زادا ، عدا العربات الاحتياطية ، وجيش الدوائر والزمالة ، رغم كل هذا فان الأمير قد استطاع بفضل مهارته وقوة عزيمة جيشه ، الذي لا يزيد عن (2000) فارس و(1000) من المشاة ، أن يهزمه في معركة (سيق) بغابة حرش مولاي اسماعيل . ويكبده خسارة (150) جنديا بين قتيل وجريح .

واستطاع في اليوم الموالي لهذه المعركة ان ينزل بقوات تريزيل الهاربة ضربات قاسية في معركة المقطع الشهيرة شرق مدينة أرزيو .

وهذا محمد نجل الأمير يحدثنا في تاريخه تحفة الزائر عن هذه الواقعة الكبرى فيقول :

« أما الجنرال تريزيل فانه لما رأى ان طريقه الذي جاء عليه قد سد في وجهه انعطف راجعا إلى وهران عن طريق أرزيو . ولما رآه الأمير أنه سلكها خف في الف فارس انتخبهم من عساكره واردف كل فارس منهم عسكريا من المشاة ، وسبق بهم إلى مجاز نهر هبرة المعروف بـ: « المقطع » وليس لذلك النهر مسلك غيره . فاحاطت جيوش المسلمين بالجنرال وعساكره واضرموا عليه نار الحرب في حال السير من كل جهة ، واستمروا على ذلك إلى أن قاربوا المقطع ، وكان الأمير وصل اليه فلما رأته مقدمة الجنرال ارتدت على أعقابها ، واضطرب العسكر الفرنسي ، وخاض بعضه في بعض ، واختل نظامه وألجأه المسلمون الى غياض النهر وأذاقوه نكال الحرب ، وأثخنوا فيه بالقتل والأسر . واستولى الغرق في النهر على عدد كثير منهم ، واستولت الأيدي على العجلات وما فيها من الذخائر والمدافع . وأكب المسلمون على جمع الغنائم والاسرى إلى الغروب . وكان التعب أخذ منهم مأخذه ، وفي هذه

الفرصة انسل الجنرال تريزيل ومن بقي معه من الجيش الى ساحل البحر ،ومن هنـاك جدوا في الهرب إلى أرزيو تاركين القتلى والجرحى وسائر ما خرجوا به من وهران في أيدي المسلمين . وفي الساعـة السابعة ليلا دخلوا إلى ارزيو على أسوء حال » (8) .

وهكذا تـوالت انتصـارات الأميـر في حيـن منيت فرنسـا بالهزائم ممـا حدا بهـا الى عزل « تريزيل » وتولية (كلوزيل) مكـانه لينتقم لموتى معركـة المقطع ، ولـكن دون جدوى رغم أن قواته التي جمعهـا وحشدهـا بلغت (11000) جنديـا .

ومهمـا تكن تلك الفرصة التي مكنت (كلوزيل) من احتلال معسكر العاصمة بعد أن أخلاهـا الأمير من كل شيء ، فانه خرج منهـا بعد يومين ليدخلهـا الأمير كي يجدد ما خربه العدو ، ويصلح ما أفسده وأحرقـه من معالمهـا لأن أوغـادا من قبائل الدوائر والزمالة المتنصرين تخلفوا فيهـا وأشعلوا النيران في أغلب دورها الشهيرة ومن حسن الحظ أن اليوم كان ممطرا جدا بحيث لم تستطع النيران أن تؤثر فيهـا فانطفأت .

وهكذا ايضا كانت هذه الانتصارات ضربـة قاضية للجيش الفرنسي الذي جعل يتحاشى مواجهة الأمير في الميدان . ويحجم عن الأشتباكات مع قواته ، لان معركـة المقطع تركت آثارهـا السيئـة فيـه ، فاعـان هذا الاحجـام الأمير في ميدان الاستعدادات العسكرية .

وبعد شهور معدودة من معركـة المقطع ، وقعت معركـة (وادي تافنة) حيث تقابلت فيه قوات الأمير مع الجنرال بيجو

---

(8) نفس المصدر . ص 151 — 153 .

وقواته . فانهزم بيجو وفقد من رجاله (3500) جندي ، وخرج عنه ما يقرب من (500) جندي يهتفون بسقوط فكرة الاحتلال الكامل التي يدعو ويتعصب اليها .

حدث هذا في نفس الوقت الذي هزمت فيه القوات الفرنسية بقيادة (كلوزيل) امام حامية قسنطينة وانكسرت وتحملت ويل الهزائم الشنيعة الشهيرة على يد رجال الحاج أحمد باي زعيم بايليك الشرق ، ورائد المقاومة به .

ابرام معاهدة (تافنة) :

وإزاء هذا التقدم العظيم الذي حصل عليه الأمير ، في الميدان العسكري ، اضطر (بيجو) الى عقد صلح آخر معه دعي بـ: « معاهدة تافنة » في يوم 30 ماي 1837 .

وهذا نصها :

1) ان الأمير يعترف بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر ووهران .

2) يبقى لفرنسا في اقليم وهران : مستغانم ومزغران وأراضيهما ، ووهران وارزيو واراضيهما . يحد ذلك شرقا نهر المقطع والبحيرية الذي يخرج منها جنوبا بخط ممتد من البحيرة المذكورة . فيمر على الشط الجاري الى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد . ومن هذا النهر إلى البحر بحيث يصير كل ما في ضمن هذه الدائرة من الأراضي للفرنسيين . وفي اقليم الجزائر : مدينة الجزائر مع الساحل ، وارض متيجة . يحد ذلك شرقا وادي القدرة وما فوقه ، وجنوبا رأس الجبل الأول من الاطلس الصغير إلى نهر الشفة مع البليدة وأراضيها . وغربا

نهر الشفة إلى كوع مزغران ، ومن ثم بخط مستقيم إلى البحر . فيكون ضمنه القليعة مع أراضيها ، بحيث يصير كل ما في داخل هذه الدوائر من الاراضي للفرنسيين .

3) على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على اقليم وهران واقليم تيطرى ، والقسم الذى لم يدخل في حكم فرنسا من اقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني . ولا يسوغ للامير أن يمد يده لغير ماذكر من أرض الجزائر .

4) ليس للامير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا ، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير كما انه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا .

5) ان العرب الساكنة في أرض الفرنسيين تمارس ديانتها بحرية تامة . ولهم أن يبنوا جوامع بحسب مرتبهم الديني تحت رئاسة علماء دينهم الاسلامي .

6) على الأمير أن يدفع للعساكر الفرنسيين ثلاثين الف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران ، وخمسة آلاف رأس بقر يؤدي ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة أقساط : الأول في غرة أغسطس إلى الخامس عشر من سبتمبر سنة سبع وثلاثين وثمانمائة والف ، والقسطين الآخرين يدفعان كل قسط بانتهاء كل شهرين .

7) يسوغ للامير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الاسلحة .

8) إن الكول اوغل (9) الذين يريدون أن يقيموا في تلمسان أو غيرها من المدن الاسلامية لهم أن يتمتعوا بأملاكهم بكامل الحرية ويعاملون معاملة الحضر ، والذين يريدون منهم الانتقال إلى الاراضي الفرنسية تكون لهم الرخصة على بيع أملاكهم أو إيجارها بكل حرية .

9) على فرنسا أن تتخلى للأمير على أسلكة (رشكون) ومدينة (تلمسان) و(قلعة المشور) مع المدافع القديمة التي كانت فيها قديما . ويتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية ، والأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنسية في تلمسان إلى وهران .

10) المتجر يكون حرا بين العرب والفرنسيين ، وللجميع أن يتمتعوا بالتبادل في كل من الارضين .

11) يكرم الفرنسيون عند العرب كما يكرم العرب عند الفرنسيين وكل ما يملكه أو يتملكه الفرنسيون من الاملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلزم الأمير أن يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها .

12) يكون رد المجرمين من الطرفين بالتبادل .

13) يتعهد الأمير بأن لا يعطي أحدا من الدول الأجنبية قسما من الشاطىء إلا برخصة من فرنسا .

14) لايسوغ بيع من محصولات أو لوازم الاقليم ، ولا شراء إلا في الاسواق الفرنسية .

---

(9) إن الكول اوغل : أو (الكوارغلية) هم الحزب الثاني المنشق عن طاعة الأمير بمدينة تلمسان . ويترأس هذا الحزب أو هذه الطائفة (المازري) . وقد مالوا إلى الفرنسيين ضد الأمير .

15) لدولة فرنسا أن تعين في المدن التي في مملكة الأمير وكلاء ينظرون في أشغال الرعاية الفرنسية ، وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب . وكذلك للامير أن يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت إدارة دولة فرنسا » (10) .

فكانت هذه المعاهدة اعترافا صريحا من حكومة فرنسا بإمارة الأمير التي أصبحت تشمل ثلاثة أرباع مقاطعة الجزائر زيادة عن ولاية وهران كلها ، باستثناء ما ذكر .

كما كانت هذه المعاهدة أيضا فرصة أخرى للامير اشتغل فيها بأحوال الرعية فأدب الخونة الانتهازيين ، والف القلوب بين القبائل في القرى ومختلف الجهات وبث عيونه ليترصدوا العدو عن كثب وعيّن عمالا له في مجانة وسطيف ، والأغواط ، والجهات الصحراوية حتى الزيبان وبسكرة . وفي طليعة دعاته (البركاني) الذي استطاع أن يكسب ود غالب القرى الصحراوية .

ولما رفض (محمد التيجاني) الانضمام إلى صفوف الأمير ، واعتصم بقصر عين ماضي توجه اليه الأمير نفسه ، وحاصره مدة خمسة أشهر ونيف ثم هزمه ودخل الحصن . وبذلك أصبحت الصحراء كلها تحت حكمه تدين بطاعته .

ولم يغفل الأمير وهو يجول في أنحاء القطر ، أن يشيد المعاقل ويصلح الحصون والمراكز الضرورية لحفظ أمن البلاد ؛ وأن يبني مصانع للسلاح وأخرى للبارود ، وثالثة للمدافع ، واعتنى بالجيش فدربه ونظمه على حسب الاساليب العصرية . ومن

(10) نفس المصدر . ص 170 — 179 .

بين الطرق التي استعملها أنه كان يأمر بعض جنوده بالانضمام إلى الجيش الفرنسي على أن يفروا بسلاحهم ويلتحقوا بالجيش ، وهي نفس الطريقة التي استعملها جيش التحرير في ثورة أول نوفمبر 1954م .

وكدليل على هذا : المنشور التالي الذي اعتاد الأمير توزيعه سريا بين مختلف الطبقات وخاصة من كان في حكم وسيطرة العدو ، وجنود الاحتلال ، على غرار ما كانت تقوم به الجبهة وجيش التحرير خلال حرب التحرير الأخيرة .

نقض المعاهدة :

وبينما كان الأمير يجدّ في عمل البناء والتشييد ، إذا بالفرنسيين يعمدون مرة أخرى إلى نقض المعاهدة بما لديهم من الاباطيل والاكاذيب ، وطرق المغالطات اللفظية ، والتأويلات السفسطائية « المقصودة » .

ولكن الأمير الذي لم تنطل عليه هذه الترهات ، والأباطيل الفرنسية المكشوفة ، قطع دابر هذا النقاش البزنطي ، وأعلم الفرنسيين في (27 رجب 1255 / 16 اكتوبر 1839) بانتهاء معاهدة الصلح ، والرجوع الى حالة الحرب الأولى ، دفاعا عن الوطن ، وحفظا لكرامة الشعب وصونا لحقوقه وشرفه . فتهول الموقف جدا لأن الفرنسيين بعد جدال طويل ومناقشات حادة في مجلسهم الوطني ، قرروا مواصلة الحرب واكتساح البلاد طولا وعرضا .

واستعد الأمير من جهته للامر ، فحشد الجيوش ، ورتب الكتائب ، ونظم الخطط ، واستكمل كل ما يلزم للأمر . ثم

هاجم العدو بعنف وشدة ، هو وعماله في مختلف المقاطعات وبخاصة في متيجة حيث أباد عامله (ابن سالم) كل «الكلون» هناك وأتلف مزارعهم ، وهي الطريقة التي اتبعها جيش التحرير الوطني الجزائري في ثورة اول نوفمبر 1954م .

واخذت المعارك بين الأمير وجيش الاحتلال تتطور وتشتد ، وتكبد المحتلون خسائر لا تقدر في الأرواح والعتاد ، امتعض لها القواد الفرنسيون ، وطاش عقلهم ، فاستنجدوا بفرنسا التي أمدتهم بثمانين الفا من الجنود مع ما يلزمهم من العدة والذخيرة قادهم (بيجو) عن طريق البحر صوب الجزائر .

ولكن هذا لم يفت في عزيمة الأمير ، ولم ينل من قوته المعنوية . فرغم تساقط مدنه الصناعية وقلاعه الحربية إحداها تلو الأخرى في يد العدو ، إلا أنه ما فتيء يجاهد ويقاوم في كل الجهات التي يراها صالحة لمنازلته في البلاد الداخلية بعيداً عن السواحل ، لأن العدو كثرت قواته وتوالت نجداته حتى اصبحت أعداده كأفواج الجراد .

وتمكن العدو من احتلال عاصمته الثانية (الزمالة) في سنة (1843م) وهو غائب عنها . وأظهر الفرنسيون في هذه الواقعة من الوحشية ما لا يتصور ، فقتلوا الشيوخ والاطفال والنساء . وفيها استشهد الخليفة (محمد بن علال) الذي ابدى شجاعة كبيرة في المعركة ، وكان صنو الأمير في الجهاد . وعضده الأيمن في الادارة والكفاح .

الامير بالمغرب الاقصى :

ولما تكاثر العدو وانتشر في انحاء البلاد التجأ الأمير الى بلاد المغرب الأقصى . ونزل بضواحي وجدة من اطراف

الريف فرحب به أهل تلك الجهة وأكرموه وألحوا عليه أن يقبل بيعتهم له أميرا عليهم نظرا لما يعلمونه عنه من قوة الشكيمة والشجاعة والبطولة ، إلى جانب خلقه الحسن وتدينه . غير أن الأمير امتنع عن قبول هذه البيعة قائلا : « اني دخلت بلاد السلطان لا لأكون ضده أو لآخذ منه ملكه فهذا لا يقول به عاقل» . وانما بقصد الاحتماء بهم ، ليمدوه بما يعينه على طرد العدو من الوطن ، وكل امنيته هو تطهير البلاد من المحتلين وصون شرف الشعب من أن يلوثه البغاة المعتدون .

ولم يرتح العدو لوجود الأمير في البلاد المغربية التي رحب به أهلها . ورأى في ذلك خطرا يهدد « حضوره » المزعوم بالبلاد الجزائرية فسعى لدى عبد الرحمن بن هشام سلطان مراكش كي يخرجه من البلاد أو يكفه على الأقل عن كل بادرة تظهر منه من أجل استرداد وطنه (الجزائر) وكان ذلك بلا جدوى لان الأمير تغلب معنويا على عقليته وحمله على الوقوف الى جانبه في واقعة (واد ايسلي 12 اوت 1944) ، في نفس الوقت الذي كانت فيه البوارج الفرنسية ترمي بقنابلها ثغري : طانجة وموغادور (11) .

العودة الى ارض الوطن من جديد :

وبما ان العساكر المغربية غير قادرة على مواجهة الفرنسيين ، رضخ السلطان إلى عقد الصلح في (10 سبتمبر 1844) على شروط أملاها عليه (بيجو) من بينها طرد الأمير من الأراضي المراكشية

---

(11) Le colonel Paul AZAN : L'Emir Abdelkader 1808-1883. Du fanatisme musulman au patriotisme Français (Paris-Hachette 1925) pp. 199-205,

والقبض عليه في أي فرصة تتاح من أجل سجنه ، أو قتله ، أو تسليمه اليه . وفعلا حاول هذا السلطان « المسكين » ، تنفيذ مسرحيته الهزلية يوم بعث اليه يستقدمه إلى عاصمته (فاس) في زيارة رسمية . إلا ان الأمير تفطن للمكيدة ، وعلم اصل الخديعة ، فاجابه بممانعة جيشه في ذلك ، ودخل من جديد في (1845م) إلى أرض الوطن . واخذ يهجم على معاقل الاستعمار مصلتا سيفه في وجه العدو ودارت معركة كبيرة بينه وبين (كافنياك) في سيدي ابراهيم هزم فيها الأخير وذلك في شهر سبتمبر 1845 .

وفي 1846 استطاع أن يجدد قواته ويجمعها . وجعل يفتح البلاد من جديد حتى بلغ جبال جرجرة .

وظهرت براعته في سرعة تنقلاته الكثيرة بين القبائل بحيث يصبح في مكان ويمسي في آخر مما جعله يكلف العدو مغبة التيه في مجاهيل التلول الوهرانية وسهولها طيلة شهرين كاملين بحثا عليه ، وتفتيشا عن قواته ، بينما هو يجول فاتحا وممهدا البلاد في أرجاء القبائل الكبرى واراضي متيجة والأغواط ولهذا سموه : « أبا ليلة وأبا نهار » .

وكاد الأمر يرجع إلى حيث بدأ لتستقيم الحالة للامير ، ولكن قوات العدو كانت أكثر فلم يجد بدا من الانسحاب إلى جنوب وهران ، ثم إلى بلاد مراكش مرة أخرى ، بينما كان الثائر بومعزة يقود الثورة في حوض الشلف وجبال الظهرة والونشريس.

فعادت فرنسا من جديد الى سلطان مراكش تطلب تسليمه حسب الشروط المعلومة المتفق عليها . وما زالت به حتى جهز جيشا جرارا قوامه خمسون الفا لمحاربة الأمير ، قاده ولداه :

أحمد ومحمد : وجرت معارك عنيفة وضارية اضطر اليهـا الأمير اضطرارا وألحق بالمغاربـة أفدح الخسائر والهزائم .

خاتمـة المطـاف :

ولما كانت الريـاح تجري بمـا لا تشتهي السفن .. والاقدار تخبيء عكس المامول .. والأيـام تحتفظ بمـا لم يكن في الحسبان .. وعوادي الزمن تظافرت كلهـا على معاكسة التيار التحريري .. فان مجهودات الأمير الحربية لا نقول انهـا منيت بالفشل ، أو ذهبت ادراج الريـاح ، وانمـا نقول انهـا توقفت لتعود من جديد ، وعلى اشد ما تكون ، في غرة نوفمبر 1954 حيث تلقي بفرنسا في اتون من الحرب يصليهـا نار ثورة تحريريـة مباركـة ، لم يعرف التـاريخ لهـا مثيلا سوف لا تكون نهايتهـا الا بموت فرنسا وفنائهـا في الجزائر ، وخلاص الشعب الجزائري من ربقـة الاستعمـار ، وتم ذلك والحمد لله عام 1962 . واصبحت الجزائر حرة مستقلة تبني وتشيد نفسهـا ومستقبلهـا بسواعد أبنائهـا .

أمـا الاميـر فكما قيـل :

ما للرجال مع القضاء محـالة   ذهب القضـاء بجلـة الاقـوام

قرر أن يسلم نفسه إلى الفرنسيين بعد أن تداول الأمر مع خاصته من جميع الوجوه . فخابر الجنـرال (لاموريسيـر) في الأمر : وحصل الاتفـاق على التسليم بشروط منهـا :

1) ان يحملوه مع عائلته إلى عكـة أو الاسكندرية .

2) أن لا يتعرضوا لمن يريد السفر معه من الضباط والعساكر .

3) أن الذي يبقى منهم في الوطن يكون آمنـا على نفسه وماله . فسار الأمير مع صحبـه وأهله وخاصته واتباعه قاصدا مرسى الغزوات .

وعندمـا وصل إلى مقـام سيدي ابراهيم الذي سبق منذ عامين أن انتصر فيه على الجيش الفرنسي وهزمـه شر هزيمـة ، في ذلك المكـان وجـد في انتظـاره : (الدوك دومال) ابن الملك والجنرالين : (لاموريسيير) و (كـافيناك) وغيرهم من الأعيان . فسلم نفسه اليهم بعد ان صلى ركعتين في المقـام وكان ذلك في (23 ديسمبر سنة 1847) .

وفي تلك الساعـة التي سلم فيهـا الأمير نفسه ردد شعرا جادت به قريحته في اللحظـة وقـال :

قلدت يوم البين جيد مودعـي — دررا نظمت عقودها من أدمعي
وحدا بهم حادي المطايا فلم أجد — قلبي ولاجلدي ولا صبري معي
ودعتهم ثم أثنيت بحســـرة — تركت معالم معهدي كالبلقعي
ورجعت لاأدري الطريق ولاتسل — رجعت عداك المبغضون لمرجعي
يا صاح : وانصت لاخبار الهوى — حاشا بمثلك أن يقول ولا يعي
إني أحدث بالهوى بغرائـب — وعجائب حتى كـأني الأصمعي
يانفس قد فارقت يوم فراقهم — طيب الحياة ففي البقا لاتطمعي

الاميـر بفرنســـا :

وبعد ثلاثـة ايـام مضت كلهـا ، في احكـام عقد التسليم ، وتنظيم الشروط اللازمـة لحفظـه وحفظ حاشيته وسائر اتباعه ، سواء من رغب في الهجرة معه ، أو فضل البقـاء في البلاد ، بعد

كل هذا توجه إلى (مرسى الغزوات) حيث كانت تنتظره البارجة الحربية الفرنسية . وفي المرسى قدم سيفه لابن الملك ثم صعد إلى البارجة هو وصحبه . واقلعت بهم لتمخر عباب البحر ، وتشق طريقها في وسط امواجه المتلاطمة .

وبينما الأمير ينتظر وصولها إلى المشرق إذا بها تلقي امراسها (بمرسى طولون الحربي) في (24 محرم 1264 / غرة جانفي 1848) وإذا بحاكم طولون يقف أمام الأمير ليقول له إني مأمور بانزالك هنا في برج (لاملاك) الحربي حتى تأتي الأوامر الجديدة من باريس .

فتأسف الأمير لهذه الخيانة وقال في رسالة وجهها الى الملك الفرنسي : « لو كنا نعلم أن الحال يؤول إلى ما إليه آل ، لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال » .

في قصر امبواز :

وبعد أيام من نزوله بقلعة طولون نقل إلى مدينة (بو) . ولم تمض عليه ستة أشهر فيها حتى نقلوه إلى سراية (امبواز) التابعة لمقاطعة (أورليان) حيث قضى هناك أربع سنوات وستة اشهر .

ومما يذكر في هذا الصدد أن الأمير عرضت عليه فرنسا ، بعد أن اخلفت الوعد ، بواسطة (دوماس) ان يتخذ من فرنسا الوطن الأم له يسكن حيث شاء في مقابل منحها له أراضي ، واملاكا وأموالا ، مع سماحها لكل من يريد الاقامة والسكنى معه ، من اصحابه وذويه . ولكنه رفض وقال :

« اني لا اقبل هذا ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالدباج » .

وأعظم من هذا أنها عرضت عليه سكنى (باريس) اسوة بخديوي مصر(ابراهيم باشا) فقال :

« إن ابراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزها له يمرح فيه كيف شاء . وأما أنا فلا أرى فرنسا الا سجنا لي ولمن معي ، فلا فرق عندي بين طولون وباريس » .

في باريس :

لقد تعرض الأمير بفرنسا لأنواع الاهانات والتضييقات من جراء غطرسة المسؤولين الفرنسيين ، وسوء معاملتهم الوحشية له . ولم ينته هذا العسف وذاك التضييق عليه الا بعد أن تولى (نابليون الثالث) الحكم فبادر برفع ذلك عليه . ثم زاره إلى قصر (امبواز) فسأل عن احواله ، ورفه عنه بعض الشيء . ثم استدعاه رسميا لزيارة باريس التي دخلها في (1269/1/14 = 1852/10/27) فكان يوما مشهودا قابله فيه الجمهور بالترحاب والاكبار ، وغصت شوارع باريس بالخلائق رافعين أيديهم تحية له .

وأقيمت على شرفه المآدب الفاخرة ، من طرف الوزراء ورجال الدولة ، ووجهاء الشعب الفرنسيين ، وبخاصة مأدبة (نابليون الثالث) . تناول الأمير فيها جميعا مختلف الاحاديث : العلمية مع العلماء ، والعسكرية مع الحربيين ، والسياسية مع رجال السياسة ، مما جعل الجميع يعجبون به وبذكائه ، وخبرته في كل الشؤون .

وقد أتاحت للامير ، هذه الزورة ، أن يضيف صوته وأصوات وأصحابه إلى قائمة الناخبين لفائدة نابليون الذي ما انفك يعطف عليه .

الاميـــر بالشــرق :

وبعد هذا صدرت الأوامر بالافراج عنه فتوجه إلى (القسطنطينية عن طريق صقلية ووصلها يوم الجمعة (1269/3/28هـ = 1/8/ 1853م) . وقبل ان ينزل ضيفا على الدولة العلية توجه إلى زيارة قبر (أبي أيوب الأنصاري) الصحابي الجليل . ثم دخل المدينة .

وخلال اقامته بها اجتمع بالسلطان عبد المجيد خان ، كما قابل الوزراء والأعيان ، وسفراء الدول الاجنبية ، وتحادث معهم في الشؤون العالمية .

ثم توجه الى (بروسه) حيث نزل بالقصر السلطاني ، وجعل يتجول بين الآثار والمشاهد . وهناك وافاه الزوار ولحق به بعض المهاجرين الجزائريين من دمشق عندما سمعوا به هناك ، وفيها ختن أولاده وأولاد الفقراء زمن الزلزال العظيم الذي حدث هناك .

ولم ينس ان يقوم برحلة الى الآستانة ، ومرسيليا ، وباريس للمرة الثانية .

في دمشـق :

وفي (1272هـ / 1856م) توجه الأمير الى (دمشق) الشام بعد أن استأذن من السلطان رغبة منه في الاستقرار بها . وفي طريقه اليها وافته وفود آل ارسلان وغيرها بجبال لبنان وكلهم يرغب

في اقامته عندهم وهو يعتذر لهم ، وهكذا حتى وصل الى دمشق . فنزل بداري (القباقي) الحكوميتين ، واتخذهما دار سكناه .

وبعد مدة زار بيت المقدس وطاف بين مختلف المعالم الاسلامية ، والمسيحية . ثم رجع الى دمشق بعد ان عرج على قبر الامام النووي .

حادثة دمشق :

وفي تلك الايام حدثت اضطرابات ، وقلاقل في جبال لبنان بين النصارى والدروز ، كما كانت تحصل من قبل . ولكنها في هذه المرة اشتدت حتى بلغت درجة تكاد توصف بالحرب .

ورغم ما اجراه الأمير ، وغيره ، من مقابلات وتدخلات لدى الوالي التركي حتى لا يصل الاضطراب على الاقل الى دمشق ، رغم هذا فان الوالي تصامم ولم يحرك ساكنا ، لانه يجهل ما كان يجري في الاحياء بين الجماعات من احاديث تنم على عداء المسلمين للنصارى الذين اضطهدوا اخوانهم الدروز بجبال لبنان .

واذ جف القلم بما هو كائن ، فان شرارة الفتنة قد قد انطلقت بدمشق في (1276/12/21هـ = 1860/7/10م) . وحرك ساكنها (طفل) صغير ، فامتدت الى صفوف اصطفت للقتال ، ذهب ضحيتها خلق كثير .

وكان للامير في هذه الحادثة المؤلمة مواقف شريفة تدعو الى الاعجاب اذ استطاع ان ينقذ أكثر من خمسة عشر الفا من النصارى بعث بهم الى منازله التي غصت بهم .

وبعد خمسة عشر يوما استطاع الأمير ان يحول (عشرة آلاف) جندي فرنسي الى فرنسا بعد ان كانوا يستعدون لنسف (بيروت) بقنابلهم المدمرة ، ويفرق جميع المراكب التي كانت ترابط هنالك منتظرة تطور الأحداث .

وكان لموقف الأمير الانساني في هذه الحادثة صدى عظيم في الاوساط العالمية فجاءته رسائل الشكر مصحوبة بالنياشين وشارات الفخر والتقدير من جميع ملوك ورؤساء الدول ، ونوهت به كبريات الصحف العالمية ، واشادت بخصاله الكريمة ، ومواقفه الانسانية .

فـي الحجاز :

وعلى أثر هذه الحادثة بمدة زار الأمير حماه وحمص ، وتوقف في الأخيرة عند قبر سيف الله (خالد بن الوليد) . ثم رغب في اداء فريضة الحج ، فركب الى الاسكندرية حيث استقبله قناصل الدول الاجنبية ، ووجهاء الشعب المصري واعيانه وخديويه . واقيمت له موائد التكريم ، ثم توجه على أثرها الى السويس ، فجدة ، فمكة .

وقبل دخوله اليها أراد شريف مكة ان يستقبله في موكب رسمي فاعتذر مفضلا دخولها كأبسط الناس .

وبعد ان ادى مناسك الحج زار مدينة الطائف . ثم توجه إلى المدينة لزيارة قبر نبي الاسلام ، ورسول السلام محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

وكان حيثما حل في طريقه اليها يقتبل بالحفاوة والاكرام . وفي المدينة المنورة مكث شهرا كاملا معتكفا بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وخلال اقامته بها زار مختلف المشاهد والمعالم العربية الاسلامية . واخيرا قفل راجعا الى دمشق ، وحل بها في (19 محرم 1282ه / 20 جوان 1864م) ، واستقبل من طرف اهاليها بحفاوة عظيمة ، واجلال كبير .

جولته الى الآستانة وفرنسا ولندرة :

وفي (27 ذي القعدة 1282ه / 10 افريل 1865م) قام بزيارة بيروت فالآستانة حيث اجرى محادثات عدة مع المسؤولين اسفرت عن عفو السلطان العثماني على المنفيين في حادثة دمشق ، وبعدها توجه الى مرسيليا ، فليون ، فباريس ، واجرى سلسلة من المحادثات مع نابليون وكافة الوزراء والاعيان والوجهاء . ثم رجع الى دمشق بعد ان عرج على (لندرة) عاصمة انكلترا التي اقام فيها اربعة ايام .

في مهرجان تدشين قنال السويس :

وفي (رجب 1286ه / نوفمبر 1869م) دعي الأمير لحضور مهرجان افتتاح (قنال السويس) الذي حضر اليه اعيان العالم كله ، فلبى الدعوة وحضر الى هناك ، واجتمع بجميع الملوك والوزراء والأعيان . واخيرا قفل راجعا الى دمشق .

وفي (1296ه) أشيع خبر موته في الأوساط وانتشر في اصقاع العالم ، وفي الحين كذب بواسطة التلغراف . اما الأمير فانه شكر كل من اشاد بخصاله في رسائل التعازي والصحف . وقال :

« ان الموت لا بد منه . ونحمد الله على ان كان ذكرنا حسنا » .

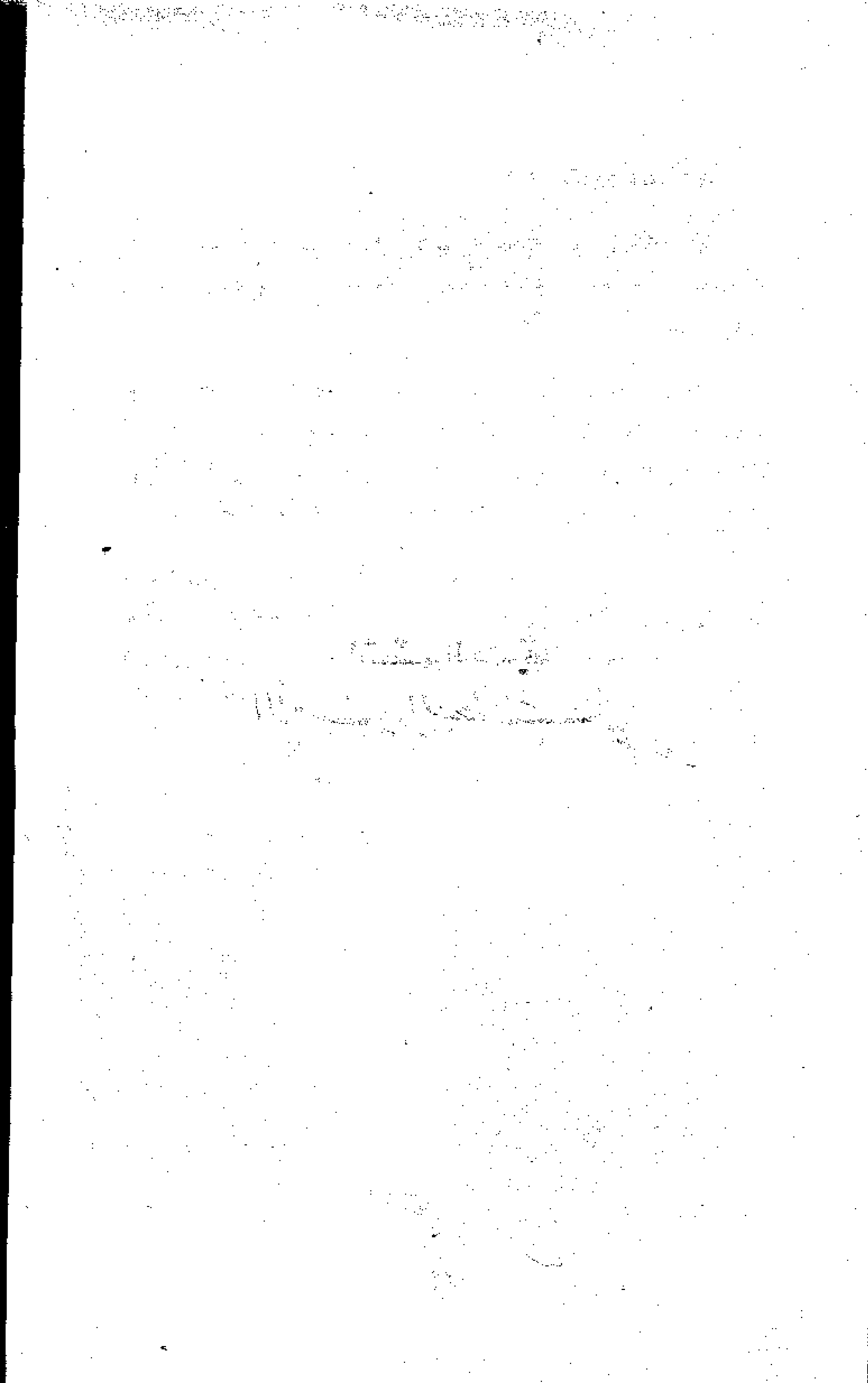
مرضـــه ووفاتـــه :

كان الأمير في شبابه وكهولته يتمتع بصحة جيدة . وفي أخريات أيامه أصيب بآلام وأوجاع خفيفة بالمثانة وحصر البول ، فتردد عليه الاطباء كثيرا .

وكان يخف عليه المرض أحيانا ويشتد أخرى حتى وافاه الأجل في منتصف ليلة السبت 19 رجب عام 1300هـ / 24 مايو 1883م في قصره بمصيف دمر عن عمر ستة وسبعين عاما كلها كفاح وجهاد وبطولة ، ونقل جثمانه الى داره بدمشق .

وبعد أن جهز جثمانه وصلي عليه في الجامع الأموي الكبير شيع الى مقره الأخير في جامع الشيخ الأكبر بالصالحية في موكب رهيب ضم كبار العلماء والأعيان ووزراء الدولة وضباط الجيش ، والجماهير الشعبية كبارا وصغارا ، رجالا ونساء ، ودفن بجوار قبر الشيخ محيي الدين ابن عربي .

القسم الثاني
الأمير البطل



شخصيته ودهاؤه وشجاعته :

ان الذي يبحث عن عظمة الأمير ، ومقدرته الحربية والسياسية ليبقى مشدوها حقا نظرا لما وصل اليه من مكانة خلال مراحل طويلة من الكفاح ، وضعته في قمة البطولة والمجد .

واذا ما بحثنا عن مصدر عظمة الأمير نجدها في أمرين اثنين : احدهما فطري طبيعي ، والآخر وضعي اكتسابي .

أما الفطري الطبيعي فلكونه ابن عائلة شريفة ، عظيمة الشأن ، كريمة المنشأ ، طيبة الارومة ، ولكونه من جهة أخرى ابن والد اجتمعت فيه خصال البطولة وشرف التدين ، والسطوة الروحية ، إذ كان شيخ الطريقة الشاذلية ، منه يستوثق كل الناس في تلك الجهات مبادئها كما اسلفنا ذلك .

وأما الوضعي الاكتسابي فلكونه قاد حروبا طاحنة ، وخاض معارك عنيفة طيلة سبعة عشر عاما ضد دولة كبرى ، وجيش منظم .

إن هذا وذاك مما ساعد على انشاء شخصيته العبقرية ، وتكوين مقدرته الحربية ، وخبرته العسكرية .

واذا استمد من والده اصول السياسة ، وتعلم من العدو الخبرة الحربية ، بفضل تلك الحروب الطاحنة التي خاضها معه ، فقد امكن له ان يصبح شخصية كبيرة له مقامه ومكانته في تاريخ الثورات التحريرية .

ولم تفتر همته عن تحقيق ما فيه راحة البلاد . فرتب سائر مايلزم من الخلفاء عنه ، والولاة ، ووطد الراحة العامة ، وحول أحوال البلاد من العسر إلى اليسر ، ومن الاضطراب إلى الاستقرار في مدة عشرين شهرا من بيعته ، وهو أمر لم يكن مظنونا عند من يعرف أحوال بلاد الجزائر في تلك الفترة .

وكان للامير إلى جانب خبرته العسكرية دهاء سياسي واسع لم يكن عند خصومه الذين يحاربونه آنذاك ، وبفضل ذلك الدهاء السياسي أوقع العدو في مآزق وعرضه للاخطار والمهالك . رغم تعدد مؤامراته ، ووفرة عدته وعدده .

وفي كل مرة يحاول اعداؤه تغليطه إلا وينقلب عليهم بركانا من الجحيم يصليهم نار خداعهم ، ويذيقهم طعم غدرهم وخيانتهم . ويدلنا على هذا ما وقع في معاهدة الصلح التي وقعها معه (دى ميشيل) . تلك المعاهدة التي رام العدو من ورائها اغتنام الفرصة للانقضاض على البلاد في أقرب فرصة تسمح له بفضل ما لديه من التآويل اللفظية ، والمغالطات الاستعمارية . فقد تلطف في الشروط التي قررها في عقد المعاهدة واظهرها في أسلوب عجيب حتى أن الجنرال دى ميشيل لم يتوقف في قبولها ، والموافقة عليها ، فامضاها في الحال . ثم ظهر له منها ما تركه في حيرة من

أمره ، وعلم أن الأمير قد خدعه ، من ذلك أن جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة (ارزيو) لا في سواها . وانها تكون تحت نظره لا مدخل للفرنسيين فيها . وان جميع ما يرد من البلاد الداخلية لا يباع إلا في أرزيو ، ولا يشحن إلى بلاد أوروبا إلا منها ، وأما وهران ومستغانم فلا يرد عليها من البلاد الداخلية إلا ما تقضي به حاجة أهلها .

وبفضل دهائه العظيم هذا تمكن من صد المعتدين والوقوف دون احتلالهم للبلاد قرابة السبعة عشر عاما .

أما شجاعة الأمير فالحديث عنها لا ينتهي وهي قوة روحية ومعنوية ، أورثته حب التضحية في سبيل الشعب والوطن ، ومن أجل العز ، والشرف ، والحرية ، والاستقلال .

وتعجبني في هذا المقام كلمته المأثورة التي رددها عندما هجم العدو على عاصمته الثانية بالزمالة في غيابه ونهبها بعد أن قتل غالب أهلها ، وأسر ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ، وكان من بين ما سلب مكتبته التي بها ما ينيف عن خمسمائة كتاب من أمهات الكتب والمجلدات . قال بعد أن لطف من روع أصحابه وهون من مصابهم ، وهدأ من اضطرابهم واسفهم : « سبحان الله ، كل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركاتنا ، ويقف في صدورنا عن الوصول إلى مطلوبنا ، والآن صرنا أحرارا متجردين لا شغل لنا إلا مقارعة الاعداء ، ومصارعتهم » . فهل بعد هذه الشجاعة من أخرى ، وهل بعد فقد الاهل والولد ، والمال والعشيرة، والصديق والنصير ، هل بعد فقد كل هذا ، واكثر من هذا ، من صبر يطاق ؟ أو شجاعة تذكر ؟ قال اسكندر بالمار : « ان من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث

مرات : الأولى بعد استيلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته معسكر ، والثانية بعد غزوة تلمسان ، والثالثة بعد واقعة سكاك ، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لان تكون سببا قويا لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم . ومع ذلك فانها لم تؤثر في أمره ، ولم تحصل الأمة الفرنسية منه على طائل . فلهذا أقول : لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة ، وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين . ومن هنا تعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوته » (1) .

وهكذا لو أردنا تعداد مواقف الأمير البطولية ، وأعماله التاريخية ومزاياه الانسانية ، لما استطعنا احصاءها .

مواقفه الإنسانية :

الأمير عبد القادر من أشد الناس تمسكا بالدين ، والعمل وفق مبادئه الحسنة الى جانب مجهوداته المتواصلة من أجل تركيز هذا الدين بين مختلف طبقات الشعب بشتى الوسائل والامكانيات المادية والادبية . ويعزى هذا الى نشأته في الوسط الديني بين أحضان عائلة متدينة لها سطوتها الروحية على قبائل الجهة وعروشها .

ولا شك أن شدة التأثر بمبادىء الدين هو الذي يكيف المرء تكييفا قوميا .

والأمير عبد القادر ممن أودع الله فيه صفة « الانسانية » ، التي محضته لخدمة شعبه ، وما الظاهرة الدينية في الحقيقة الا نوع آخر من الانسانية كان الأمير شديد التمسك بها حتى في أحرج

---

(1) عن تحفة الزائر . ج 1 . ص 168 .

أوقاته . ولنستمع اليه يقول في رسالة وجهها الى حكومة فرنسا بعد سقوط الملكية : « وان نقمتم على ما جرى بيني وبينكم من الحروب التي اتصلت عدة سنين فما اظن أن أحدا ممن على وجه الأرض من البشر ينكره علي أو يذمني به لأني رجل أوجب علي ديني أن أدافع عنه وعن أرض أهله المتمسكين بعروته الوثقى فقمت بذلك ، وبذلت وسعي فيه ما استطعت » .

وإذا كان الأمير علي جانب عظيم من التمسك بمبادىء الدين ، والعروبة والشرف ، فلا غرو ان يكون « انسانيا » وان تكون له مواقف « انسانية » خالدة . وعلى هذه القاعدة الانسانية سار في معاملاته الاجتماعية لدى كل الناس غنيهم وفقيرهم ، كبيرهم وصغيرهم ، سواء في ذلك بنو جلدته أو غيرهم . وكان حرصه على الوفاء بالعهد ، والوقوف عند حدود الوعد أشد ما يكون في موافقه الانسانية الكبيرة طيلة حياته .

ونحن عندما نريد أن نكشف الستار عن هذه الظاهرة نجد أن الأمير أوتيها منذ عهد صباه ، وزمان شبابه حتى أنه عندما بويع بالامارة كان أول عمل قام به هو دخوله على زوجه ليقول لها : « ان أردت أن تبقي معي من غير التفات إلى طلب حق فلك ذلك ، وان أبيت إلا أن تطلبيني حقك فامرك بيدك لاني قد تحملت ما يشغلني عنك » .

ونفس هذه الظاهرة الانسانية هي التي حملت الأمير على التنازل عن الامارة لسلطان مراكش في مقابل أن يساعده على تخليص الوطن الجزائري ، وافتكاكه من أيدي العدو ، وهي التي منعته من قبول بيعة أهالي الريف بالمغرب الاقصى رغم توفر الاسباب لذلك ، وخروج سلطان مراكش عن مبادىء الدين ، وشرف الوطن .

وما حادثة دمشق المهولة الا دليلا آخر على « انسانية » الأمير العظيمة حيث وقف فيها وقفة الرجل الانساني بما في الكلمة من معنى أتته بعدها رسائل الشكر ، ونياشين الفخر ، وشارات الشرف من جميع أطراف الدنيا .

نظم دولته الادارية :

وإذا تحدثنا عن مظاهر الأمير الشخصية ، ومواقفه الانسانية ، وعظمته السياسية ، ودهائه العسكري ، وخبرته الحربية ، وعلمنا أنه في أقل من عشرين شهرا أنشأ دولة فتية طارت شهرتها في المشرق والمغرب ، وتحدث الناس عنها في المحافل والنوادي . أرهبت العدو ، وبعثت فيه روح الفزع والهلع .

فهل يعرف عن هذه الدولة الفتية شيء ؟

ذلك ما سنحاول بسط الحديث فيه بإجمال مستعرضين أهم نظمها الادارية المدنية والعسكرية .

ولقد سار الأمير في سياسته الشعبية على أساس تحقيق العدل والديموقراطية للشعب وفق مطامحه . ولم يحد عن هذا المبدأ ، مبدأ حكم الشعب بارادة الشعب ، طيلة حكمه .

فبعد أن اتخذ مدينة معسكر عاصمة الدولة ، ومقرا لحكمه الشعبي كون :

1) **مجلس الشورى العالي الأميري** : ويتركب من أحد عشر عضوا من كبار العلماء والأعيان وهم السادة :

أحمد بن التهامي
عبد القادر بن ركوش

عبد الله سقاط المشرفي
طاهر المحفوظي
محمد المحفوظي
أحمد بن الطاهر بن الشيخ المشرفي
محمد بن المختار الورغي
المكي الخرنوبي
المختار بن المكي
الحاج عبد القادر بن ركوش الاكبر
ابراهيم بن القاضي

ويترأس هذا المجلس قاضي القضاة السيد : (احمد بن الهاشمي المراحي) نيابة عن الأمير ، وللمجلس سجل خاص تسجل فيه القضايا ثم تعرض عليه ويحضر الأمير الجلسات ويرأس المجلس بنفسه . وتصدر الاحكام باتفاق كل أفراد المجلس على نوع الحكم .

وله ديوان الانشاء الذي انيطت بعهدته هذه الأمور لضبطها وتسجيلها ورئيسه « مصطفى بن أحمد التهامي » .

2) **مناصب الوزارات** : ويعبر عنها بالنظارات ، وهي :

أ ـــ (وزارة الداخلية) : وأسندها إلى السيد : محمد ابن العربي .

ب ـــ (وزارة الخارجية) : وأسندها إلى السيد : أبي محمد الحاج المولود بن عراش .

ج ـــ (وزارة المالية) : واسندها الى السيد : أبي عبد الله الحاج الجيلاني بن فريحة .

د — (وزارة الاوقاف) : واسندها إلى السيد : أبي عبد الرحمن الحاج الطاهر أبو زيد .

ه — (وزارة الاعشار وصنوف الزكاة) : وأسندها إلى السيد أبي محمد الجيلاني بن الهادية : وكان الجباة يخرجون مرتين في السنة مرة في الربيع لجباية الزكاة ، ومرة في الصيف لجباية الأعشار .

و — (وزارة الحربية) : واسندها إلى أحد اقاربه السيد محمد ابن الجيلاني . ومهمة هذه الوزارة هي ضرب السكة وصنع الاسلحة والذخيرة وما يتعلق بادوات الحرب . ولها معامل ومراكز في انحاء القطر .

ز — (وزارة الخزينة الخاصة) : وتولاها السيد أبو سعيد محمد ابن فاخه .

3) **بقية الوظائف الأخرى** : وهي كتابة الديوان الأميرى ، والحجابة والقضاء بنوعيه : المدني والعسكري ، والإفتاء ، والعدل ، وادارة الموسيقى ، وشؤون الاصطبلات ، وحامل اللواء ، والملابس الأميرية ، وبقية الوظائف الأخرى الصغيرة ، كالكتبة وغيرهم ، وكذلك السقاية لها موظفون خاصون أيضا .

ولواء الأمير عبارة عن قطعة من الكتان الحريري اعلاها واسفلها أخضران . ووسطها ابيض مرسوم عليه بالذهب المزركش في صورة دائرة تامة « نصر من الله وفتح قريب ، ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين » . وفي وسط الدائرة صورة يد مبسوطة مطرزة بالذهب وصاحب هذا اللواء الذي يحمله دائما هو : (عبد الله بن يوسف) .

ويمتاز كاتب الديوان الأميري بكونه هو الذي يختم بطابع الأمير الخاص المراسيم التي تصدر عنه .

وهو عبارة عن خاتم كبير الحجم نقش عليه في دائرته :
«ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأُسْد في آسادها تجم»

وفي جوانبه : « الله ، محمد ، أبوبكر ، عمر ، عثمان ، علي »

وفي وسط الدائرة : « الواثق بالقوي المتين ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين » .

والتاريخ : « سنة 1248 هـ » .

4) **المقاطعات** : كان حكم الأمير في مبادىء الأمر محصورا في عمالة وهران فقط . ثم بفضل مجهوداته الحربية التي بذلها . ونفوذه السياسي والاجتماعي ، استطاع أن يكتسح معظم بلاد المغرب الاوسط « الجزائر » واضطر إلى تقسيمها الى مقاطعات ثمانية هي :

أ) مقاطعة تلمسان وضواحيها : وعاصمتها (تلمسان) . وولى عليها السيد « محمد البوحميدي الولهاصي » .

ب) مقاطعة معسكر : وعاصمتها « معسكر » وولى عليها السيد محمد بن فريحة المهاجي ، وبعد قتله ولي عليها « السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي » الذي هو في نفس الوقت رئيس ديوان الانشاء .

ج) مقاطعة مليانة ونواحيها : وعاصمتها « مليانة » . وولى عليها السيد « محيي الدين بن علال القليعي » ثم السيد : « محمد بن علال » احد اقاربه .

وتمتاز هذه المقاطعات الثلاث بأن لكل منها مرسى وميناء تجاري للتصدير والتوريد . فلتلمسان مرسى « رشكون » . ولمعسكر مرفأ « ارزيو » ولمليانة مرفأ « شرشال » .

د) مقاطعة تيطري ونواحيها : وحاضرتها « المدية » وولى عليها اخاه السيد : « مصطفى بن محيي الدين » . ثم السيد « محمد البركاني » .

ه) مقاطعة مجانة ونواحيها : في الشرق والجنوب والشمال . وعاصمتها « سطيف » . وولى عليها « محمد بن عبد السلام المقراني » ثم « محمد الخروبي القلعي » ثم « محمد بن عمر العيساوي ».

و) مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية : وعاصمتها « بسكرة » وولى عليها « فرحات بن سعيد » ثم « الحسن بن عزوز » ثم « محمد الصغير بن عبد الرحمن بن احمد بن الحاج » .

ز) مقاطعة الجبال (أو برج حمزة) : وعاصمتها (برج حمزة) (البويرة) وولى عليها السيد : « احمد بن سالم الدبيسي » .

ح) مقاطعة الصحراء الغربية : وولى عليها السيد : « قدور ابن عبد الباقي » .

والى جانب هذا فقد قسم المقاطعات إلى دوائر خاصة . ووضع على كل دائرة « آغا » . وكل دائرة تشتمل على قبائل عديدة تحتوي على بطون وعشائر . ويحكم القبيلة « قائد » والعشيرة « شيخ » .

وكانت الأوامر تصدر من الشيخ أو الخليفة إلى القائد الذي يرفعها إلى الآغا ، وهو يرفعها بدوره إلى الأمير . وهذا بالنسبة للقضايا المهمة . أما البسائط فتفصل قبل أن تصل إلى الأمير حسبما يرى ويتفق مسؤولو الدائرة أو العشيرة مثلا .

وهؤلاء القواد والخلفاء المدنيون ينقلبون في حالة الحرب إلى قواد عسكريين يديرون شؤون الحرب .

وقد اقصى الأمير جميع العمـال الذين كانوا في عهد الدولة الجزائرية التركية . واختـار لحكم البلاد ذوي العفة والنزاهـة الذين اشتهروا بالحزم والعزم ، والعلم والصلاح ، وحسن السياسة .

ومع هذا فانه لا يقنع بهذه الصفات الحميدة ، فيعمد الى تحليفهم على صحيح البخاري على ان يحكموا بالحق ، ويعملوا باخلاص وطهارة ضمير جاعلين امامهم مصلحة البلاد العليـا فوق كل شيء .

ومن شدة حرصه على اقرار العدل والمساواة ، وانصاف المحكـوم من ظلم الحاكم ، انه كثيرا ما يكلف من ينادي في الاسواق بان كـل مظلوم من طرف الحاكم عليه ان يقدم شكواه الى الأمير ، الذي آلى على نفسه انصافه مهما كان الامر وعلى اي حالة تكون .

ولهذا ساد الامن ، وعم الاطمئنـان ، وانتشر الاستقرار في البلاد طيلـة حكمـه .

النظـام العسكري والقوات المسلحـة :

كـان للامير جيش منظـم بلغ عدده في بعض الأوقـات (15.300) خمسة عشر ألفا وثلاثمائة جندي .

وقد قسمـه الى اصناف ثلاثة .

1) الخيـالة : وهم الذين يركبون الخيول .

2) المشـاة أو « العسكر المحمدي » .

3) رجال المدفعيـة أو الرمـاة أو الطوبجية .

وجعل على كل صنف من هؤلاء الثلاثـة رئيسـا :

فعلى الالـف خيـال « آغـة » ، وعلى الخمسين « سيـافـا » وعلى العشريـن « رئيس الصف » ، ودونـه « الجاويش » ، ولـكل الالف وكل مائة « كاتبا » ، وعلى الـكاتب رئيسا سماه « باش كاتب » .

وامـا العسكر المحمدي فانه قسمه الى مئات . وقسم كل مائة الى ثلاثة اقسام ، وجعل لـكل قسم خباء ورئيسـا عليه سماه « رئيس الخبـاء » ، اي الخيمـة ، وعين له نائبا يقوم مقامه وسماه « خليفة رئيس الخبـاء » . وجعل على كل ثلاثة اقسام من هؤلاء رئيسا سماه « سيافـا » وعين لهم كاتبـا يخصهم ، وجعل على كل عشرة من السيافين فاكثر رئيسا سماه « آغـا » .

ورئيس العسكر المحمدي : وشأنه النظر في احوال السيافين فمن دونهم .

وامـا الطوبجيـة فيسمى رئيسهم « بـاش طوبجي » . وعين لـكل مدفع اثني عشر جنديا يقومون بامره وعليهم رئيس وكاتب(2) .

ويقود العساكر المشاة والخيالة ، ابطال مغاوير ذاع صيتهم في الآفاق امثال (قدور بن بحر) و (عبد القادر بن عزالدين) و (محمد قوشارمه) و (محمد السنوسي) و (سالم الزنجي) و (احمد الغديوري) وغيرهم .

---

(2) تحفة الزائر ، ج1 ، ص 121 .

ويقود الجنود الرماة : « محمد آغـا » المعروف بابن كسكسه (الكول اوغلي) .

وفيمـا يلي احصائية مفصلة لقوات الأمير العسكريـة المنظمة والغير المنظمة التي كـان يتصرف فيهـا الأمير في عام (1840م) . والتي بواسطتهـا حارب أكثر من عشر سنوات القوات المعادية فـكسر شوكتها ، وهزمهـا .

1) ولايـات الغـرب :

أ) خليفة تلمسان : السيد محمد البوحميدي الولهاصي يتصرف في القوات التالـية :

المشـاة	800	رجل
فرسـان منظمـون	200	»
جنود المدفعية (يستعملون قطعا أربعـا)	30	»
مشـاة غير منظميـن	4000	»
فرسـان غير منظمين	8000	»
المجمــوع	13030	»

ب) خليفة معسكر : السيد الحاج مصطفى بن التهامي ، يتصرف في القوات التاليـة :

مشـاة منظمـون	1000	رجل
فرسـان منظمـون	200	»
رجال المدفعية (يستعملون قطعتين)	30	»
فرسـان غير منظميـن	12000	»
مشـاة غير منظميـن	2000	»
المجمــوع	15230	»

2) الولايات المركزية (الوسطى) :

أ) خليفة مليانة : السيد بن علال بن مبارك ، يتصرف في القوات التالية :

مشاة منظمون	1200	رجل
فرسان منظمون	200	»
رجال المدفعية (يستعملون قطعتين)	40	»
فرسان غير منظمين	5000	»
مشاة غير منظمين	4000	»
المجموع	10440	»

ب) خليفة المدية : السيد محمد البركاني ، يتصرف في القوات التالية :

مشاة منظمون	600	رجل
فرسان منظمون	200	»
رجال المدفعية (يستعملون قطعتين)	30	»
فرسان غير منظمين	4000	»
مشاة غير منظمين	2000	»
المجموع	6830	»

خ) خليفة (برج حمزة) : السيد أحمد بن الطيب بن سالم الدبيسي يتصرف في القوات التالية :

مشاة منظمون	300	رجل
مشاة غير منظمين	2000	»
فرسان منظمون	50	»
فرسان غير منظمين	2000	»
المجموع	4350	»

3) ولايات الشرق :

أ) خليفة مجانة : السيد محمد عمر العيساوي . يتصرف في القوات التالية :

مشاة منظمون	300	رجل
فرسان منظمون	50	»
المجموع	350	»

« وكفرق غير منظمة نستطيع ان نلاحظ ، مضيفين بعض فرسان اولاد بورمان واولاد عمر » .

ب) خليفة الزيبان : السيد الحسن بن عمر . يتصرف في القوات الآتية :

مشاة منظمون	300	رجل
فرسان منظمون	50	»
المجموع	350	»

ج) خليفة الصحراء الغربية : السيد قدور بن عبد الباقي رئيس قبيلة (اولاد شليف) . تتركب قواته كالتالي :

مشاة منظمون	300	رجل
مشاة غير منظمين	2000	»
فرسان منظمون	50	»
جنود المدفعية (يستعملون قطعتين)	30	»
فرسان غير منظمين	6000	»
المجموع	8380	»

وعلى هذا فقد كان الأمير عبد القادر يتصرف في جيش قوامه 58960 ثمانية وخمسون الفا وتسعمائة وستون جنديا ، منهم خمسة آلاف وتسعمائة وستون جنديا فقط من الفرق المنظمة (3) .

المنشآت :

اعتنى الأمير بتشييد الحصون والمعاقل ، واقامة المصانع والمباني ، وانشاء السدود ، وترميم القلاع ، وبناء المدارس والقرى .

فشيد حصون : (سعيدة) و (سبدو) في الجهة الغربية . و (بوغار) و (سبساو) و (عريب) و (بوخرشفة) و (تازا) و(تاكدمت) ، في الجهتين : الشرقية والجنوبية .

وأعظم هذه الحصون ، حصن (تاكدمت) الذي يربط تجارة الصحراء بالمناطق الساحلية .

وابتنى معامل حربية لصنع السلاح ، وانتاج البارود ، والرصاص في كل من المدن الثلاث : (المدية) و (مليانة) و (معسكر) .

وبمدينة (تلمسان) أقام معملا آخر لصنع المدافع . أسند إدارته إلى خبير (إسباني) .

وفي حصن تاكدمت شيد معملا لصنع السلاح استجلب له خبراء وفنيين من كل من فرنسا واسبانيا لصنع البنادق والحراب والسيوف ، والرصاص ، وغيرها من أدوات الحرب ومهماته .

---

(3) Marcel Emérit : L'Algérie à l'Epoque D'Abdelkader. (Larose-1951). pp. 277-280.

كمـا ابتنى دارا أخرى بجوار الحصن المذكور خصـصها لسبك العملـة التي نوعهـا إلى أصناف ثلاثـة كلهـا من الفضة والنحاس . هي :

(الفرنكـان ـ الفرنك ـ نصف الفرنك) .

كتب على وجهي الأول بالتوالي :

1) ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه .

2) ضرب في تاكدمت سنة 1255هـ .

وعلى وجهي الثاني بالتوالي :

1) ان الدين عند الله الإسلام .

2) ضرب في تاكدمت سنة 1255هـ .

وعلى وجهي الثالث بالتوالي :

1) ربنـا أفرغ علينـا صبرا وثبت أقدامنا .

2) ضرب في تاكدمت سنة 1255هـ .

وكـان له منجم كبير اكتشفه الخبراء بجبـال (الونشريس) يستخرجون منه الـكبريت ، ولربما الملح أيضا .

وفي أوقات الهدنة يستجلب الأمير من فرنسـا كل ما يحتاجه من البارود والرصاص ، وغيرهمـا من أنواع الذخيرة الحربية .

وفيمـا يلي احصائية لمؤن وذخائر الأمير عبد القادر في عام 1840م حسبمـا ذكر إيميريت :

نقـد (حوالي)	1،500،000 فرنك
بارود (منها الخراطيش المصنوعة)	400 قنطار
بنادق (فرنسية ــ انكليزية)	8000 بندقية
قمح	(مؤونة سنتين)
رصاص (ما يكفي لصنع الرصاص مع البـارود الـذي يملـكه)	
قنـابل	من 200 إلى 300 قنبلة
حديـد	2000 قنطار
نحـــاس	200 قنطار
كبريــت	100 قنطار
خيـــام	300 خيمة
جمـــال	2000 جمل
بغـــال	800 بغـل

خيول (أحصنة) حوالي 300 فرس . (دون فرسان خيالته المنظمـة) (4) .

والى جانب هذا فقد انشـأ « دارا » للمسافرين في حاضرته (معسكر) أقـام عليها ناظرا من امنائه ينزل الناس فيها على حسب منازلهم ويقدم لهم الأطعمـة والاشربة حسبمـا تقتضيه مراكزهم .

ولم ينس أن يحدث (المارستانات) الكبيرة التي جعلهـا خصيصـا لمرضى العساكر في سائر المقاطعات . وجعل في كل مارستـان أربعـة من الاطبـاء الكبار يرجع نظرهم إلى طبيب مارستـان الحاضرة معسكر (أبي عبد الله الزروالي) الـذائع الصيت الشهير بخبرته في فنون الادوية وخواص الاعشاب .

(4) «Marcel Emerit : p. 275.

وبالجملة فانه لم يأل جهدا في توفير موارد التجارة ، وأنواع الحرف العامة ، وانشاء الاسواق للتجارة ، وكل شيء من شأنه أن يوفر للأهالي وسائل الراحة والسعادة ، ويكفل لأرض الوطن حفظها وسلامتها .

وأورد توستان دومانوار : Toustain du manoir في المجلة الإفريقية اسعار الحياة اليومية في عصر الأمير عبد القادر هكذا على النحو التالي :

القمح : 4 سلطاني ، أو 21،60 ف لـ : (120) ليترة .

الشعير : 1 سلطاني ، أو 5،40 ف لـ : (120) ليترة .

البقر : 3 سلطاني ، أو 16،20 ف للرأس الواحد .

الغنم : 1 بوجو ، أو 1،80 ف للرأس الواحد .

البارود : 1 بوجو ، أو 1،80 ف للكيلة (0،650) كغ بالوزن الجزائري .

سلبيتر (نوع من البارود أيضا) سعره كسابقه (5) .

قال الأمير شكيب أرسلان :

« فلما انتهى الخصام بينه (الأمير) وبين فرنسا . شرع يقوي سلطته على البلاد التي أدخلت حديثا تحت حكمه . ورتب مسالح في : (الأغواط) و (مجانة) و (الزيبان) وخضع له أهل هاتيك الاطراف ما عدا المرابط (محمد التيجاني) الذي أبى الاعتراف بامارته . فزحف عبد القادر بنفسه الى (قصر عين ماضي) وحصره . وبعد حصار ستة أشهر فتحه ، مع أنه حصن منيع لم يتمكن الاتراك

(5) Toustain du manoir : revue africaine N° 109. pp. 126.

طوال حكمهم في الجزائر أن يدخلوه . ثم رتب عبد القادر جيشا منظما على نمط جيوش الدول . وقسمه الى : مشاة ، وفرسان ، ومدفعية . واستجلب لتعليمه وتدريبه ضباطا من الجيش التونسي ، ومن الجند التركي الذي بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسي . وسن لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ، ورواتبه ، ومدة التعليم ، وشروط الترقي فيه ، ونيل الأوسمة ، وغير ذلك ، وجعل دهاليز لادخار الحبوب وانابيب للاقوات ، ومعامل للسلاح ، ورمم القلاع . ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات الشرعية » (6) .

النشاط الديبلوماسي :

ولم يوقف الأمير عبد القادر نشاطه في حدود العمل الداخلي أو الانتصارات العسكرية على العدو فقط ، بل نشط في الاتصالات الخارجية مع الدول ، فعمل أولا على ربط الصلة ، وتوثيق عرى الأخوة مع سلطان مراكش والشعب المغربي . وجرت بين الأمير والسلطان مراسلات ديبلوماسية ، أسفرت عن تعيين (الحاج الطالب) سفيرا فوق العادة بفاس من قبل الأمير . وتبودلت الهدايا بينهما ، كان من بينها ذخائر حربية بعثها السلطان اليه في نطاق المساعدات الحربية .

ثم راسل الأمير (باي تونس) أيضا ، وتبودلت بينهما الهدايا والرسل ، وكاتب خديوي مصر ، وشريف مكة ، وحكومة بريطانيا . وبعد نقض معاهدة تافنة راسل الأمير بريطانيا ، والولايات المتحدة

(6) حاضر العالم الاسلامي ، مجلد 2 ، ص 173 .

الأمريكية عن طريق قناصلها في طانجة وجبل طارق . وراسل الدول العثمانية (7) .

أما فرنسا ، الدولة المحاربة له ، فقد تبادل معها التمثيل الديبلوماسي منذ إبرام معاهدة دي ميشيل عام 1834 .

فعين من قبله لدى فرنسا سفراء له يمثلونه في كل الشؤون وأوكل اليهم مراقبة العدو وتحديد نشاطه في الأماكن التي وضع يده عليها وهم :

1) مردخاي بن دران الموساوي « في الجزائر » .
2) محمد بن يخو « في وهران » .
3) محمد خليفة بن محمود « في أرزيو » .

وعينت فرنسا من قبلها لدى الأمير في معسكر (الكومندان عبد الله ويسون) سفيرا لها . وأصله من مماليك مصر كان يعمل جنديا في الجيش الفرنسي .

وقدّم السفير الفرنسي في حفل بهيج أوراق اعتماده للامير في دار الإمارة بمعسكر على النظام الحديث المتبع اليوم ، في موكب رسمي حضره بالخصوص قواد الأمير ورجال دولته . فرحب به الأمير وطلب منه التردد عليه من أجل اطلاعه على مختلف المشاكل التي تهم الدولتين .

---

(7) انظر : أ. سعد الله : أول اتصال عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين 1835 – 1836 . مجلة تاريخ وحضارة المغرب . عدد 13 . (الجزائر – جانفي 1976) . ص 19–39 . وكذلك : د. عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816–1871 . (الدار التونسية للنشر – 1972) ص 197–229 .

وقد نشط هذا السفير في زيارة الأعيان والوزراء ، وحاول التجسس عبثا لفائدة فرنسا لأن الأمير عرف كيف يشدد عليه المراقبة ، ويحدّ من نوع هذا النشاط المخرب .

أما سفراء الأمير فقد حرصوا على خدمة مصالح الشعب خاصة حينما جاءت مشكلة نزوح الاعراب إلى المدن التي يحكمها الفرنسيون ، وتقضي المعاهدة منعهم ، ويريد الفرنسيون السماح لهم مؤولين ؛ كما يحلو لهم ؛ نصوص المعاهدة . فوقف السفراء موقف الحزم ؛ ومنعوا كل من يريد ذلك . وتصلب الأمير وشدد في الأمر ، وندد بهذه الأباطيل التي يثيرها عمال فرنسا .

وهكذا استمر السفراء في أداء رسالتهم على أكمل وجه تحدوهم الغيرة على الوطن ؛ والذود عن شرف وكرامة الشعب ، وهيبة الدولة .

وعندما أمضى (بيجو) معاهدة تافنة عام (1838م) واصل السفراء مهمتهم الديبلوماسية على مقتضى روح تلك المعاهدة .

وفي الجزائر العاصمة عين الأمير سفيرا له جديدا إلى جانب الموساوي هو : (الم . كزماني كارل) الإيطالي الأصل ، وسفير أمريكا في الجزائر في آن واحد ، فقبل المهمة غير أن فرنسا أوجست خيفة من أن تعقد معاهدات ومحالفات بين الأمير وامريكا فعارضت في تعيينه واحتجت لدى الأمير مدعية أن المعاهدة تقضي بتعيين سفراء عرب لديها كما تقضي بأن تعين هي (فرنسا) سفيراً فرنسيا من قبلها لدى الأمير .

فرد الأمير عليها برفض الاحتجاج ، واتهمها بالتدخل في شؤونه الداخلية ؛ وأصر على تعيينه هو دون غيره . ولم يسع

فرنسا إلا الرضوخ لطلبه بعد أن علمت أن رفضها مرة ثانية معناه الحرب .

وهذا نص الرسالة التي وجهها الأمير الى السفير ، والتي بمقتضاها عينه سفيرا له :

« الحمد لله وحده ولا معبود سواه . من عبد القادر ناصر الدين الى مسيو كازماني كارل قارثين السلام على من اتبع الهدى .

« وبعد : فإننا منذ وقع الصلح بيننا وبين دولة فرنسا ونحن نسأن عمن يكون لنا وكيلا في الجزائر ، وواسطة بيننا وبينهم في دوام الألفة والمواصلة .

« ثم بلغنا عنك أنك من أعقل الناس ، وأعلمهم بطريق السياسة . وأخبرنا بعض المحبين انه لا يصلح لوكالتنا في الجزائر غيرك ، فانشرحت صدورنا لذلك .

« وبناء عليه كتبنا لك هذا إعلاما بأن تكون لنا وكيلا عند الفرنسيين وتتولى قضاء المصالح اللازمة لنا فيها ، وتجري أمورنا معهم على نظرك ، وتعرفنا بما هو الأصلح لنا معهم .

« والذي يعرض لنا من المسائل والمصالح نعرفك به . والذي يعرض لك في ذلك تعرفنا به .

« ومن المعلوم عنا أننا نحب الخير ، والهناء ، والعافية ، والأمن في سائر الوطن » (8) .

بعض رسائل الأمير الديبلوماسية :

كان الأمير عبد القادر يراسل غيره من كبار الملوك ، وعظماء الرجال وقادة الحروب ، سواء منهم العرب وغيرهم .

---

(8) تحفة الزائر ج 1 ص 217 .

وتمتاز رسائله السياسية التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا ، وقوادها الحربيين بالخبرة السياسية ، وبعد النظر في الشؤون الحربية .

وكانت رسائله التي تبادلها مع «بيجو» تتسم على الاخص بالشدة والصراحة الواقعية ، مع الرغبة التامة في فصل كل الشؤون على أساس العدل والانصاف ، وفي كنف التعايش السلمي .

هذه هي حقيقة الأمير عبد القادر من خلال رسائله الديبلوماسية أو الحربية إن شئت .

أما الجنرال بيجو فكان كثيرا ما يعمد الى المراوغة والتحيل والتملص ، لانه لم يخلص أبدا فيما كان بينه وبين الأمير . ولا غرابة في هذا مادام يحمل فكرة استعمارية بحتة كل ما يقال عنها انها ترمي الى استعباد الشعب الجزائري ، ومحو كيانه ، كما يتجلى ذلك من أعماله الوحشية طيلة وجوده بالجزائر .

وقد ذكر : مارسيل ايمريت Marcel Emerit ان رسائل بيجو إلى الأمير عبد القادر « تعطي انطباعا يختلف كثيرا عن الانطباع الذي ينبعث من حكاية علاقتهما اللامعة ، كما سجلها بيجو لتعلنها الصحف ، وكما طبعت مرات أخرى في ايامنا هذه في كل تواريخ الجزائر ، وفي كل ترجمة لهذين الشخصين » .

وذكر أيضا ان الجنرال بيجو كثيرا ما يعمد في رسائله تلك : « إلى الحركات الزاحفة التي تخالف تماما التصلب الذي يبدو في رسائله الرسمية » (9) .

---

(9) Marcel Emerit p. 142.

وهذا نص رسالة وجهها الأمير إلى (بيجو) على إثر انتهاء واقعة (عقبة خدة) الشهيرة بتاريخ : « 10 جمادى الأولى 1257هـ — آخر جوان 1841م) :

« الحمد لله وحده .

« من ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين إلى المارشال بيجو .

« أما بعد :

« فان كانت دولة فرنسا ليس عندها من الارض ما يكفي رعاياها وارسلتكم لتغتصبوا أراضينا ، وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم ، فنحن نتخلى لها عما هو في أيدينا الآن من السواحل . ونبقى معها في حال جيران ينتفع بعضهم من بعض . وإن أبت الا أن تستولي على جميع وطننا ، فنحن نبذل وسعنا في مدافعتها وحماية أرضنا منها الى ان يقضي الله بيننا وبينها بما شاء ، فان البلاد بلاده ، والعبيد عبيده .

« ولا يخفى عليكم ايها الحاكم ان مهاجمتكم على بلادنا كما انها السبب لإتلاف الكثير من جنودكم ، فكذلك نحن . وهذا شيء لا يرضى به عاقل فضلا عن فاضل .

« ودولتكم تدعي انها اول دولة في العالم تحب الانصاف وتستعمله . وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به ففعلها هذا يكذب دعواها ويبطل مدعاها .

« وانتم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب . وتبذلون انفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها ولو كان عندكم ادنى نظر سديد ما وافقتموها على اتلاف جنودها في الحرب ومواسيم الامراض المختلفة التي لا تذر ولا تبقي .

« فيا هل ترى بأي شيء تعوضون ما تخسره بلادكم من الرجال والأموال ، والكراع . فان كان يرضيها منكم ان تحملوا لها ما تقدرون على حمله من حجارة مدينة معسكر ، او من تراب الأراضي التي اغتصبتموها فافعلوا .

« وإني اراك ايها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا ، ظنا منكم ان ذلك اقوى سبب لخضوع اهل البلاد اليكم ، والحال ان هذا ليس بشيء عندهم. فان هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والاشربة مثلكم . بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ، ويقيم اودهم كيفما كان . على انه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية . وما تأخذونه انتم من ذلك ، فهو جزء من جملة اجزاء ، ولا اراكم في هذا الأمر إلا كمن ملأ قدحه من البحر معتقدا أنه ينقصه .

« وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم مادمتم في طغيانكم تعمهون ، وفي سبيل اعتدائكم تمشون . والحروب تربينا عليها وتغذينا بلبانها . فنحن اهلها من المهد الى اللحد . وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها . بل نحن فيها مخيرون مطلقون ، نصرفها كيف شئنا . واما انتم فقد بذلتم اموالكم ، وافنيتم قوة شبابكم في تعلم طرقها القولية . وعند اشتباك الصفوف تعاجلكم عن مراجعتها الرماح والسيوف .

« ومما علم من كتب التواريخ القديمة ان العرب يبتهجون في معامع القتال كما يبتهج العروس ليلة عرسه ، فلا يخطر في بالكم انهم يضجرون منها او يتركونها من ذات انفسهم ما دامت الاقدار الالهية مساعدة لهم .

« فان حكمت عليهم بغير ذلك فمن المعلوم ان الارض لله من بعدهم يورثها من يشاء من عباده . فلا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه. والسلام على من اتبع الهدى واتقى سبيل الردى » (10) .

ونحن عندما نقف عند حد هذه الرسالة . نجد ان الأمير تنبأ بعدة أشياء ، عاشها الشعب الجزائري في ثورته المباركة .. المنتصرة ، ثورة أول نوفمبر 1954م .

فعندما طالب الشعب الجزائري بحقوقه المشروعة في الحرية والاستقلال بالطرق السلمية قالت فرنسا إن تلك الحقوق على أفواه المدافع . فتقبل الشعب الجزائري الأبي هذا الجواب بكل سرور ، واستعد للامر ، واختار منتصف ليلة الاثنين أول نوفمبر 1954م ليعلن ثورته المقدسة .

وخاض غمار حرب تحريرية على أشد ما تكون . واقسم جميعه القسم الاكبر على ان لا يضع السلاح الا بعد تحقيق الاستقلال التام .

وكل فرد فيه ينادي : سنقاتل .. ونحارب .. وسنواصل ثورتنا حتى تستقل جزائرنا . وليس غير الاستقلال التام هدفا لنا .

وعززت الثورة مواقفها في الداخل والخارج :

في الداخل بما قام به جنود جيش التحرير في ميدان المقاومة بلغة الرشاش ، وصيحة الهاون ، ودوي البازوكا .

والفدائيون الاحرار في المدن والقرى .. والمسبلون في الأرياف ، وكل الشعب الجزائري الواعي لرسالته .

---

(10) نفس المصدر . ص 258-259 .

وفي الخارج بما قام به جنود جبهة التحرير في مختلف انحاء العالم والعواصم الكبرى ، من دعاية لقضيتنا الشريفة الشرعية وكشف لمآسي الاستعمار التي اقترفها : جنود الاحتلال الفرنسي بأمر من حكومة فرنسا (الديموقراطية) .

فجبهة التحرير الوطني الجزائري في الخارج ، كما هي في الداخل ، قامت على قدم وساق في سبيل شرح مبادىء ثورتنا الكبرى للرأي العام العالمي . وقد توصلنا فعلا الى هدفنا المشترك بفضل تلك الجهود المشتركة : وتحققت احلام عبد القادر ، واعطت جهوده ثمارها ونتائجها في عام 1962م : وأصبح شعبه حرا ، ووطنه مستقلا .

وقائعه التاريخية المشهورة :

وبعد ، فاذا كان هذا هو نظام الأمير ، وتلك هي دولته الفتية : بما فيها من منشآت ، ونظم ، في مختلف نواحي الحياة ، فكيف كانت حالته الحربية . وما هي وقائعه البطولية ؟

أجل ! لقد خاض الأمير أعنف المعارك مرددا :

سلوا عنا الفرنسيس يخبروكم ويصدق اذ حكوا منهم مقال
فكم لي فيهم من يوم حرب به افتخر الزمان ولا يزال

وقاد أعظم حرب تحريرية جعلت ساسة فرنسا في ذلك الوقت يفكرون في الانسحاب من البلاد وتركها لأهلها ، لولا هيمان العقلية الاستعمارية على اغلبية رجال الحكم الفرنسي العسكريين والمدنيين .

وقد استطعنا ان نحصي بالعد أشهر الوقائع الحربية التي خاضها الأمير ، وارتأينا تسجيلها باختصار حسبما وقعت متتالية . وها هي كما يلي :

1) واقعة (خنق النطاح) الأولى جرت على أسوار مدينة وهران في ماي 1832م ، ذي الحجة 1247هـ أبلى فيهـا الأمير البلاء الحسن . حيث خرق الرصاص جميع ثيابه وقتل فرسه فاستعاضه بآخر ، مستمرا في القتـال حتى انتصر المسلمون ، وهزم العدو شر هزيمة وفقد ما عنده من الذخيرة والعتاد ، وموقع هذه المعركـة يمثل اليوم قلب المدينة أين يوجد سوق تجاري يحمل نفس الاسم .

2) واقعة (خنق النطاح) الثانية جرت في نفس العام والمكان. اسند اللواء فيها للامير فهزم العدو ، وكبده خسائر فادحة واستشهد فيهـا عمـه الأمير (محمد سعيد) الذي افتك جثته من أيدي العدو باعجوبـة نادرة . وفر الجنرال (بوابيه) بمن بقي معه الى داخل المدينة وراء الاسوار .

3) واقعة (برج رأس العيون) . اسند فيها اللواء للامير ايضا بامر من والده . وتقدم حتى أشرف على مدينـة وهران ، فهاجم العدو وأوقع به هزيمـة شنعـاء ألجأته الى الدخول الى معاقل المدينة يجر اذيال الخيبة . ثم حاصر الأمير المدينة شهرا كاملا ارتحـل اثره عنهـا لضرورة قـاهرة .

4) غزوة قريـة (فايتة) المتمردة ، وتأديب أهلهـا العاصين ، وإرغامهم على الطاعة . وعند رجوع الأمير إلى معسكر بلغه خبر هجوم العدو على قريـة (الدبة) فعجل لملاقاته قرب وهران حيث انزل به هزيمـة منكرة تسببت في استشهاد بعض الرجـال ، واندحار العدو إلى داخل الحصون .

5) (غزوة وهران) الأولى . حصلت عندمـا كان الأمير محـاصرا لهـا . أعقبتهـا وقائع اخرى في امـكنة مختلفة ، كواقعة تأديب (ابن نونه) صاحب تلمسان الذي حاول شق عصا الطاعة ، وواقعة (الحصن الـكبير) الذي شيده الفرنسيون على ساحل البحر

قرب وهران ، ليتخذوه معقلا للذخيرة ينقضون منه على اطراف البلاد ، وواقعة تأديب اهالي ارزيو الذين تواطؤوا مع العدو ضده .

6) واقعة (مستغانم) بعد استيلاء العدو عليها . ولم تأت بطائل .

7) عقابه لبني عامر وتأديبه إياهم اثناء الجولة التي قام بها في بلادهم للاستطلاع عندما مانعوا في أداء الزكاة والأعشار . حصل كل هذا وهو في طريقه الى تلمسان قصد تأديب اهالي قبائل الدوائر والزمالة الذين تآمروا مع (مصطفى بن اسماعيل) عليه .

8) في جولته الاستطلاعية في اطراف البلاد أدب (ابن عربي) الذي شق عصا الطاعة في نواحي (القلعة) ، وشتت شمله ، وأحرق القلعة التي اعتصم بها وذلك في (17جوان 1834) .

9) وفي (14 جويلية 1834) وعندما كان في جولة اخرى استطلاعية قاتل اهالي الدوائر والزمالة الذين انضموا إلى حليفهم (ابن الغماري) وقومه ليقاتلوه، ونكل بهم بعد أن حاولوا منازلته. فأطاح برؤوس الفتنة ووقع (مصطفى بن اسماعيل) في قبضته .

10) (وفي أول يوليو 1836) نقض (تريزيل) حاكم وهران المعاهدة فهاجمه الأمير في مكان يدعى : (حرش مولاي اسماعيل) قرب أسيق . وألحق به هزائم حتى لم يبق في جيشه البالغ خمسة آلاف جندي الا عدد قليل . وغنم المسلمون كل ما عندهم من الذخيرة الحربية وغيرها وتعرف هذه الحادثة بواقعة (المقطع) الشهيرة .

11) وفي (غرة نوفمبر 1836) هاجم (كلوزيل) مدينة معسكر فأخلاها الأمير من كل شيء ودخلها العدو ليخرج منها بعد يومين . وعاد اليها الأمير فعمرها ، وجدد ما افسده العدو واحرقه منها .

12) وفي (13 جانفي 1837) وقعت معركة (تلمسان الأولى) . واسوة بمعسكر اخلاها الأمير ليحتلها العدو بعد معركة عنيفة . وعلى اثر استيلاء بيجو على تلمسان اتجه نحو الجهات الشرقية عبر الخط الفاصل بين التل والصحراء . حيث جرت بينه وبين قبائل (سبدو) و (سعيدة) وقائع وفواجع مؤلمة . ومن هنالك سار الى « القيطنة » (11) فخربها واحرقها .

13) وفي غرة (جويلية 1837) وقعت معركة (سكاك) المشهورة بالقرب من تلمسان .

14) حاصر الأمير تلمسان مرة ثانية قرابة تسعة شهور .

15) واقعة (الغزوات) جرت بضواحي (نهر الشلف) بالمدية قضى فيها الأمير على (محمد بن عبد الله البغدادي) المتمرد.

16) قام الأمير بعدة غزوات لقبائل (الزيتون) قضى فيها على دابر الفتنة ، وأرجع الأهالي إلى حاضرة الدين الاسلامي بعد أن مرقوا منه .

17) معركة (عين ماضي) التي ارغم فيها الأمير (محمد التيجاني) على التسليم بشروط أملاها عليه . وحصلت هذه الواقعة عندما كان الأمير في جولة استطلاعية ببلاد (الأغواط) في الصحراء .

18) سار الأمير مرة ثانية الى بلاد (الأغواط) ، ونكل بأهلها العاصين حتى جعلهم أشد الناس تعلقا به في احرج ظروفه .

---

(11) قرية القيطنة مسقط راس الأمير اختطها جده السيد : (مصطفى بن المختار) عام (1206هـ/1791م) على وادي الحمام غربي مدينة معسكر .

19) جرت واقعة (موزاية) قرب المدية ، وكان للامير فيها يوم خالد . لكنه اضطر اخيرا لاخلاء (المدية) ليدخلها العدو تحت وابل من الطعنات . ورغم هذا فان عاملها من قبل الأمير ما انفك يحاصرها مدة طويلة .

20) واقعة (مليانة) وهي كمعركة موزاية في الشدة والعنف والوصف .

21) وفي (28 افريل 1841) خاض الأمير معركة كبرى مع (بيجو) بضواحي مليانة بينما كان الأخير في طريقه الى الجزائر . وغنم الأمير كل ماعنده من العتاد والمؤونة بعد ان كاد ان يفني جنوده ايضا .

22) معركة (مضيق عقبة خدة) . وكانت مهولة جدا مات فيها من الجانبين خلق كثير ، واحتدم القتال طيلة يوم كامل . وهي من الوقائع المشهورة .

23) معركة (عين طاقين) استولى فيها العدو على عاصمة الأمير الثانية التي تدعى بالزمالة وذلك في غيابه .

24) بعد معركة طاقين خاض الأمير معركة اخرى ضد الذين تألبوا ضده من قبائل (الدوائر والزمالة) برئاسة زعيمهم (الآغا ابن سليمان) . فقطع الأمير رأسه ، وعندئذ تنفس المسلمون الصعداء وتحسر العدو لفقدان احد اذنابه وصنائعه .

25) (معركة الجعافرة) جرت بضواحي معسكر عندما تجمعت قوات العدو هنالك آتية من (قسنطينة) و (تلمسان) و(وهران) تريد حصار الأمير ومقاتلته . وكانت تحت قواد فرنسيين ثلاثة . وفيها اشيع خبر استشهاد الأمير نظرا لشدة بأسها ونجا الأمير باعجوبة نادرة بعد ان مزقت ثيابه ، وتقطع لباسه من جراء تكاثر الرصاص عليه .

26) واقعة (سيدي يوسف) باغتته قوات العدو فيها عند صلاة الصبح بينما كان مستريحا لشيء من النوم كعادته بعد كل صلاة صبح . واستطاع بفضل مهارة جيشه أن يفتك من العدو كل خسائره .

27) واقعة (بني عامر) الثانية . قتل فيها الأمير بنفسه صنيعة العدو (بالحميدي) بعدما افتك ما بيده من السلاح والذخيرة .

28) جرت وقائع أخرى مهولة بين الأمير و(لامورسيير) بينما كان الأمير سائرا صحبة أهالي قبائل الدوائر والزمالة لى حدود المغرب كي يسكنهم هناك اتقاء لانتقاضهم المتكرر! . وقد ألحق الأمير بلامورسيير خسائر فادحة .

29) معركة (الغزوات) الثانية قتل فيها معظم جنود العدو ، وشرد الباقي ، ولم ينج منهم إلا القليل سلموا أنفسهم إلى الأمير ، وفي هذه الواقعة أصيب الأمير برصاصة في أذنه ، فأطارت منها طرفا من اللحم وهو أول جرح لحقه منذ تقلد زمام الامارة والحرب .

30) واقعة (عين تيموشنت) . ولم يقع فيها قتال لأن العدو فضل الاستسلام إلى الأمير . وكان عدد جنوده خمسمائة .

31) جرت معارك أخرى بين الأمير ولامورسيير انكسر فيها حاكم المعسكر الفرنسي ، وحاصر جيش الأمير قواته من كل الجهات . وفي هذا الأثناء جال الأمير في مختلف انحاء الوطن ، ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة عجيبة ، جعلت العدو يتيه في مجاهيل التلول الوهرانية مدة شهرين كاملين بحثا عليه من غير طائل .

32) معركة (ابي الشطوط) من بلاد شريف بضواحي الشلف جرت فيها حوادث مهولة انكسر فيها العدو ، بينما تابع الأمير غزواته المتعددة ببلاد القبائل ومتيجة وجرجرة .

33) واقعة (نهر يسر) بضواحي الجزائر . تراجع فيها الأمير الى الوراء نظرا لكثرة عدد العدو .

34) جرت معركة كبرى بين الأمير ، و (يوسف) المتنصر العنابي في جهات أولاد نايل .

35) معركة (تافريست) ببلاد المغرب الأقصى. تغلب فيها الأمير على عساكر بالاحمر بعد أن قتل قائده وبعد المعركة وجه الأمير كل ما غنمه إلى سلطان مراكش بفاس .

36) واقعة (بني عامر الثالثة) جرت بضواحي فاس نكل فيها الأمير بمن أغاروا على مواطنيه المستقرين هناك بعد الهجرة .

37) واقعة (قلعة أسوان) ببلاد المغرب شتت فيها الأمير جيش (عبد الرحمن بن هشام) سلطان مراكش الذي يبلغ عدده خمسين الفا وذلك في (10 ديسمبر 1847) .

38) تتمة المعركة وتأخر الأمير التدريجي إلى ضواحي الدائرة (مقره) حيث سلم نفسه إلى السلطات الفرنسية بعد مذاكرات ومداولات يوم 23 ديسمبر 1847 .

تلك هي أهم معارك الأمير ، واحداثه التاريخية ؛ حاولنا عرضها باجمال حتى لا نحرم القارىء من الاطلاع عليها ، ولكي نسهل له مشقة الرجوع اليها . وهي تمثل صراعا بين الحق والباطل ، ومعركة بين الروح التحريرية ونزعة الاستعمار ، كان النصر فيها للحق والروح التحريرية .

حيرة التاريخ :

وإذا كان الأمير على هذه الحال من السطوة الروحية ، والبطولة المادية ؛ فلماذا كانت النتيجة عكس المأمول ؟ وأي

دائع جعل الأمير يختم مصيره بالاستسلام ؟ وبالتالي : هل لهذا المصير من عوامل قاهرة ؟ تلك هي « حيرة التاريخ» ، وذلك هو محل العبرة والتأمل . ومهما يكن من أمر هذا التساؤل وتلك الحيرة التاريخية ، فان هناك عوامل محددة دعت الى هذه النهاية المفروضة ، ودواعي متعددة وفرت للحالة وسائل الانتكاس والتقهقر تضافرت كلها على شيء واحد ، هو تقمص الروح التحريرية ! وانتشار الهيمنة الاستعمارية في طول البلاد وعرضها مما جعل الأمير يسلم سيفه إلى العدو ، مستسلما لما حكمت به الاقدار .

ذلك أنه في الوقت الذى كان فيه الأمير يشتغل بتعمير البلاد وتقوية صفوف الشعب ، وتنظيم كتائب الجهاد ، وتكوين فصائل الجند وإطارات الدولة، من أجل تقوية جبهة الكفاح التحريرى، وتدعيم الحكم الوطني للدفاع عن الوطن ، والذود عن شرف وكرامة الشعب واستقلاله ، وسلامته . في هذا الوقت بالذات ، كان ملوك العرب ، وسلاطين المسلمن يشتغلون بلعب الشطرنج ، ويمرحون في حدائقهم الغناء ، وقصورهم ، وسط الجوارى ربات الحجال ذوات النهود القائمة ، والخدود الموردة ، والعيون الداعجة ، لا يعنيهم من مصالح الأوطان ، وحاجيات الشعوب شيء . ولا يشغل بالهم الا التفكير في الموائد الملوكية ، وحفلات الرقص ، مع ما يتبع هذا من النوم الطويل ، والتنزه في اطراف الأجنة ، والاشتغال بالصيد قتلا للوقت ان لزم الأمر .

وفي الوقت الذى كان فيه الأمير يستنجد بهم طالبا المعونة المادية كي يستطيع طرد العدو الغاصب المحتل من الوطن ، تتفق اجاباتهم كلها على نغم واحد ، ووتيرة واحدة تتلخص في حثهم اياه على مواصلة الجهاد ممحضين النصح له بأن لا يتوانى في مقاتلة العدو ، مستدلين على ذلك بنصوص من اقوال مالك ، وفقهاء

المذهب ، كأن الأمير يجهل ذلك . والحقيقة ان المشكلة لو وقفت عند هذا الحد ، وانتهت الى هذا الأمر فقط لهان المصاب ، وقل العتاب . ولكن المسألة كانت غير هذا كانت في أن هؤلاء الملوك واولئك الأمراء والسلاطين لم يشعروا بالخطر يهددهم أبدا ولا فكروا في يوم من الأيام بأن هذا الذي يعتدي الآن على شعب الجزائر لا بد أن يعمل آخر الأمر على السطو على بلدانهم أيضا ما داموا لم يحركوا ساكنا ، ولا حيروا ولو خنفساء أمام هذا الخطر الداهم .

ويعزى هذا إلى قصور في تفكيرهم ، وجهل عام مطبق في سياستهم ازاء اقتياد الشعوب ، ومتابعة الحوادث . هذا إلى جانب جهلهم المطلق بموقع القطر الجزائري ، ومركزه الجغرافي والاستراتيجي . وكيف يمكن لهم أن يعرفوا استراتيجية القطر الجزائري ، وهم يعيشون في قصورهم العاجية لا يعرفون عن أحوال بلادهم ، وحدود أوطانهم ، ومشاكل شعوبهم شيئا يذكر ، فضلا عن أوطان غيرهم وأحوالها ؟!

ومهما تكن تلك التعلات التي يتذرع بها هؤلاء المسؤولون ، وكيفما كان نصيبها من الواقعية . فإنها أتفه ما تكون بالنسبة لباي تونس ، ولسلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بالخصوص لانها عبارة عن خرافات هي أغرب من أساطير وأقاصيص الاغريق.

فمنذ أن بدأ الفرنسيون يهاجمون الجزائر ، اصبح عرش سلطان مراكش في خطر . وكان عليه بعد تلك الحروب الطاحنة المتوالية التي جرت قرب حدود بلاده ، والتي شاب لها الرضيع ، وتألم منها الوليد ، كان عليه أن يستعد للامر ، وينهض للموقف في شيء من القوة كبير ، استعدادا للطوارىء ، وكان عليه أن يمد الأمير بما يكفل له الانتصار على العدو ، ودفعه إلى البحر .

من غير أن يطلب منه ذلك ، تلبية لواجب الأخوة ، وحقوق الجوار والوطن . وهو ما كان من الأمير حيث طلب منه ذلك مرات .

أتدري ماذا كان جواب سلطان مراكش ؟ إنه يقول :

« وإننا نتمنى الحضور بانفسنا في غمار المسلمين ، ومباشرة القتال بايدينا بين صفوف المجاهدين . ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة ، وكف البغاة جهاد (اسمع جيدا وتحسس) بل أفضل من جهاد النصارى حسبما نص على ذلك إمامنا مالك رحمه الله . ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا وإياهم لنصرة الدين ، وقمع الكفرة المعتدين ، وبذلك ينال الموفق غاية أمله . ونية المرء خير من عمله . والسلام » .

نعم ! هذا هو جواب سلطان مراكش ، وتلك هي مساعدته الأولى أزجاها للامير في قوالب أقوال مالك، ونصوص فقهاء المذهب ، ولخصها في تفضيل نية المرء على عمله وان في ميادين القتال ، بحيث يتحتم عليه — حسب رغبة صاحب الجلالة — أن يلتزم المكث في مكان واحد . ويترك المجال للعدو يمطره بوابل من الطعنات بعد أن ينوي الانتصار في قلبه ، وفي قلبه فقط . ألا ما أجلها من نصيحة ، وأعظم بها من قولة (كريمة) !

اما المساعدة الثانية فهي أعظم ، واعظم منها بكثير ، وكثير جدا . مساعدته الثانية كانت (عملية) بحق يغبط عليها ، إذ أتاحت له أن يوجه جيشا كبيرا قوامه خمسون الفا لمحاربة الأمير، وتشتيت قواته ، وسبي اهله وعشيرته ليباعوا في أسواق النخاسين بالمغرب ، وليحمله هو أخيرا على تسليم نفسه إلى الفرنسيين الذين تواردت على صاحب الجلالة من طرفهم مختلف الهدايا ، واجمل الجواري ، وحفنات التبر من الذهب والفضة جزاء له على صنيعه الجميل هذا لهم .

حدث كل هذا في الوقت الذي كان فيه الأمير يخاطبه في شأن تنازله عن الإمارة لفائدته مقابل أن يمده بما يعينه على طرد العدو من البلاد ، إلى جانب رغبته الاكيدة في الانزواء لمحض العبادة لله . نقول هذا رغم قول صاحب تاريخ (الاستقصا) بانه لما يئس الأمير عبد القادر من الفوز على الفرنسيين بقوته الخاصة حدثته نفسه بقلب سلطنة المغرب والجلوس على عرش فاس فاوجس السلطان عبد الرحمن خيفة من دسائسه وارسل تلك القوة لمطاردته ، وخضد شوكته قبل أن يستعصي امره .

وهنا لا مفر من القول بان هذا الموقف الشاذ من طرف عبد الرحمن بن هشام لم يكن بارادة الشعب المغربي ، ولا بموافقة الرأي العام المراكشي . وانما كان بدافع المحافظة على كرسي العرش على حساب الأمة المغربية .

ولهذا كان لزاما علينا أن نعقب هذا بان الشعب المغربي الباسل قد دافع كثيرا عن سيادة شقيقه (الشعب الجزائري) ، ووقف إلى جانب صفوف المجاهدين يكافح طيلة العهود ، وعلى مدى التاريخ . فبذل الغالي والنفيس في سبيل المحافظة على وحدة المغرب الكبير .

والشعب الجزائري الوفي يعمل اليوم جاهدا وبكل ما أتيه من قوة ، وما لديه من وسائل حتى تتحقق وحدة المغرب العربي الكبير التي كانت من بين الاهداف المشروعة التي ثار من أجلها وحمل السلاح بغية تحقيقها ، على اعتبار أنها الضمان الوحيد الذي يكفل سلامة الوطن وقطع دابر أطماع الاستعمار إلى الأبد .

ما يؤاخذ عليه الأمير :

على أن مؤاخذتنا لسلطان مراكش (عبد الرحمن بن هشام) وغيره لا تعني أن الأمير سالم منها . بل لا نحاشيه منها في اشياء

مـا كـان من حقه أن يغفل عنها ، وان لا يقدرهـا حق قدرهـا .
وهي :

1) عدم اهتمـامه بالثغور البحريـة التي كانت خير مساعد العدو على احتلال البلاد ، واهمـاله للاسطـول البحـرى اهمالا تـاما ، في حين كان العدو يصرف اثمن الاوقات والاموال في ترميم تلك الثغور ، واصلاح الاسطول اللذين همـا كل اعتماده في برنامج الاحتلال . ولا ادل على هذا من كونه لا سبيل له إلى غزو البلاد إلا عن طريق الثغور ، ولا شيء يحمل له المؤونة والعتـاد غير الاسطول .

2) سرعته إلى إخلاء المدن والقلاع عندمـا تشتد الحالـة ، ويقوى نذير الخطر ، بينما التكتيك الحربـي يفرض عدم التخلي عنهـا مهمـا كان ثمن التضحيـة ، خصوصا وانه رأى كيف كان ذلك العدو يستميت في الدفـاع عن المدن التي يستولي عليهـا كما وقع ذلك في مدن : الجزائر ، ومليانة ، والمديـة ، ومعسكر ، ومستغانم ، وتلمسـان ، ووهران .

3) تساهله في اخلاء عاصمته الأولى معسكر أول مرة . وكـان الواجب الوطني ، محافظـة على معنويـات الجند ، وقوة الشعب ، يقضي بالدفاع عنها إلى آخر رمق . وهذه الظاهرة تذكرنـا بموقف (الفوهرر أدولف هيتلر) في الحرب العالمية الثـانية حيث امتنع عن الخروج من العاصمة (برلين) رغم إلحاح قواده العسكريين عليه في ذلك ، ورغم اقتراب الخطر منه لحظة فلحظة، مركزا رأيه على ما قلناه حتى أنه في كل ساعتين كان يذيع بيانا على الشعب الالماني ليذكره بوجوده هناك في العاصمة .

4) التسامح الكبير الذي يبديه ويطبقه مع الخونـة العاصين الذين يأتون اليه تائبين مظهرين الطاعة مضمرين الشر والفساد ،

ووضعية البلاد وحالة الوطن كانت تقضي بقطع دابرهم والضرب على ايديهم بصرامة وشدة ، مهما تكن منزلتهم ، وأيا كانت سوابقهم .

5) حسن ظنه بدولة فرنسا ، ونوابها بالجزائر في أغلب الاحايين ، وفي أيام الهدنة بالخصوص ، وسلوكه معها سياسة اللين والملاطفة مما سبب له اتعابا جمة ، وأخطارا جسيمة ، وأتاح لفرنسا أن تبث عملاءها وجواسيسها في البلاد لاستمالة قلوب الاهالي اليها بالقوة والاغراء معا . وهو ما كان في خاتمة المطاف لكفاح الأمير خاصة أثناء وجود بيجو السفاح . ولعل قصة ليون روش تكفي دليلا على حسن ظنه بالاعداء .

موقف الرأي العام الفرنسي من أحداث الجزائر :

إن الأمير عبد القادر قد كافح كفاحا مريرا ، وواصل حربه التحريرية باذلا كل ما أوتيه من القوة والحيلة ، والغالي والنفيس ، كما أن فرنسا لم تأل جهدا في حشد الجيوش ، لمحاربته مع الفارق الكبير بين المعركتين . ذلك انه بينما يخوض الأمير غمار المعارك والحروب ، من أجل التحرر والاستقلال ، وفي سبيل اقرار الحق والحرية ، والفضيلة والمساواة ، والكرامة والشرف ، كانت فرنسا تشن الغارة تلو الغارة ، والغزوة تلو الاخرى بدافع الاستغلال والاستعمار ، والاستثمار ، والاحتلال ، والسيطرة على موارد البلاد ، وخيرات الشعب ، بل ومن أجل محو كيانه ، ولهذا كانت الحروب التي وقعت بين الأمير وفرنسا ، تمثل صراعا بين الحق والباطل ، والاستعمار والتحرر . وتوقفت لتعود من جديد كأعنف ما تكون في غرة نوفمبر 1954 .

ومن غير أن نطيل نود أن نتساءل عن تلك الحروب الفرنسية الاستعمارية التي شنتها (فرنسا) على شعب الجزائر . هل كانت برضا الشعب الفرنسي ، وعن طواعية منه ؟ أم كانت قسروا عليه ؟

إن الشعب والرأي العام الفرنسي بصفة عامة لم يكن راضيا عن تلك الحروب الاستعمارية ، ولا يفكر في الهجوم بمثل تلك الصفة ، على شعب آخر مثله ، له كيانه ، وشرفه ، ونظامه ولولا تنطع بعض المتهورين من ساسة فرنسا ، وتكالبهم على أكل لحوم البشرية ، وشرب دماء الاحرار الآمنين ، ما وقع كل ما حصل .

ولئن لم يظهر هذا السخط الذي يكنه الرأي العام الفرنسي لاولئك المتهورين المتوحشين ، فإن (واقعة المقطع) الشهيرة التي انهزم فيها (تريزيل) حاكم وهران جاءت حدا لذلك الصمت الطويل ، وكانت سببا في طيش عقول نواب المجلس الوطني وفي شغب الشعب ، واحتدام النزاع في الأوساط المسؤولة . وهذا أحد النواب الفرنسيين يؤكد « ان هجوم الفرنسيين على البلاد الجزائرية من الأعمال الناشئة عن الطيش والهوس ، لأن سائر الأعمال الحربية فيها لم تأت بنجاح ، والمدن التي استولوا عليها لا أرى فائدة لهم في الاقامة فيها » وقد عضده النائب تيير في آرائه وأكد أن فرنسا لا تستفيد من غزو افريقيا .

التاريخ يعيد نفسه :

وهكذا أعاد التاريخ نفسه وشاهدنا الضمير الفرنسي الحر يستنكف من تلك الحرب القذرة التي كانت تدور رحاها في الوطن الجزائري ، ويحاربها في كل فرصة تواتيه وتسنح له بكل الوسائل سواء عن طريق الصحافة اليومية ، والجرائد الاسبوعية ، والمجلات

الشهرية . أو عن طريق التلفزة ، وأحاديث الندوات والمجتمعات والنشرات الدورية .

ولا يجهل أحد تلك المظاهرات الصاخبة التي قام بها الجنود الفرنسيون في مختلف المدن الفرنسية غداة ترحيلهم إلى الجزائر ليحاربوا إلى جانب القوى الرجعية والسيطرة الاستعمارية البغيضة شعبا أبيا .

ولا يجهل أحد ما حدث من البلبلة والاضطراب ، وما وقع من رد فعل من طرف الأوساط الفرنسية ضد (قي موللي) رئيس حكومة فرنسا ، منددة بسياسته التي يتبعها جلادوه الرجعيون أمثال (لاكوست) و (بورجيس مونوري) و (ماكس لوجون) واضرابهم من عمداء الاستعمار ، واجراء المعمرين بالجزائر .

ولا تخفى على أحد تلك المواقف الشريفة التي وقفها احرار فرنسا ، ومفكروها التقدميون لصالح الشعب الجزائري ، وكرامة الأمة الفرنسية وفي طليعتهم الصحافي المشهور (روبير بارا) ، والكاتب المبرز الاستاذ (ماندوز) اللذان لم يمنعهما سجن المسؤولين لهما والتضييق عليهما أن يقولا الحقائق كما هي عن قضية الجزائر العادلة ، كما لم يكفا عن نشر الفظائع الوحشية التي يرتكبها الجيش الفرنسي في الجزائر بمساعدة لاكوست وموللي اللذين اشترى ضميرهما « الاشتراكي » المعمرون بالجزائر . هذا الى جانب الكتلات الشعبية المتحررة التقدمية ، التي ما انفكت تفضح السياسة الرجعية المتبعة في الجزائر .

وهنا لا مفر من تسجيل تبعة تلك الحرب القذرة ، وعواقبها الوخيمة على كاهل الساسة الفرنسيين ، ومسيريهم وحدهم ومن

والاهم فقط ، مادام الرأي العام غاضبا عليهم ، نافرا من أعمالهم الوحشية هذه متبرئا من نتائجها السيئة على الأمة الفرنسية .

والجديد في هذه المرة هو تحقق انتصار الحق والعدالة ، على الشر والطغيان ، وبلوغ الشعب الجزائري أهدافه ومطامحه المجسمة في التمتع بالحرية والاستقلال تحت راية العدل ، وفي أحضان المساواة . ان انتصار ثورة نوفمبر قد مسح دموع الأيتام والأرامل ، وطمأن قلوب الشهداء .

صدق تنبؤات الامير والشعب :

وبعد ؛ فهذه قصة بطولة الأمير عبد القادر ، وتلك أحداثه ومواقفه الشهيرة التي وقفها أمام جيش الاحتلال الفرنسي الغاشم طيلة سبعة عشر عاما .

وهذه هي قصة بطل الثورة الجزائرية الأول وموقد شرارتها الأولى منذ أن نزل بارض الوطن جيش الاحتلال الفرنسي .

فما موقف الشعب الجزائري من موقد هذه الشرارة الأولى للمقاومة التحريرية الجزائرية !

أجل ! وأي أجل ! لقد كان هذا الشعب المكافح الأبي مؤمنا كل الإيمان ، واثقا كل الوثوق ، بأنه لا بد أن ينتصر على الظلم والطغيان ، والقهر والجبروت مهما كان الأمر ، وإن طال الزمن .

ومن أجل ذلك فانه لا يستكين من ثورة الا من أجل أن يستعد لاخرى أشد منها بأسا وقوة . وهكذا حتى جاءت الساعة الاولى من ليلة الاثنين (غرة نوفمبر 1954) التي أعلن فيها الشعب الجزائري كله ثورته الكبرى العظيمة وخرج منها ظافرا منتصرا .

وليس هناك شيء يعطينا صورة واضحة ومثالا رائعا أحسن من آثار الشعب نفسه الذي يقطع قول كل خطيب متقول .

وآثار الشعب هذه تتجلى في استعراض نص كامل لرسالتين سياسيتين وجههما هذا الشعب المجاهد الكريم ، إلى الجنرال (بيجو) ردا على رسائله السخيفة ، التي يدعو فيها القبائل والعروش للخضوع الى طاعته طورا باللين ، وأخرى بالتهديد .

والرسالتان من الروعة والسمو بمكان سواء من حيث الفكرة ، أو الحجج ، أو الصمود أو غير ذلك ، بحيث تدلان دلالة واضحة على مدى ما وصل اليه الشعب الجزائري من الوعي القومي ، والادراك الكامل للمسؤوليات التي صيرته لا ينخدع ، ولا يستكين لاقوال المزيفين رغم نشرهم للاصفر الرنان ، ولا يكترث لتهديداتهم ، وإن قرنت بالعمل ، لانه يعلم معنى الكرامة ، ويدرك شرف الجهاد ، من أجل العزة .. والحرية .. والاستقلال .

ونص الرسالة الأولى :

« 20 ربيع الثاني عام 1257هـ (12)

« 11 جوان عام 1841م .

« من كافة الحشم : الشراقة والغرابة ، ومن اليهم . كبني شقران ، وبني غدو .

« إلى النصراني (بيجو) . السلام على من اتبع الهدى وثبت عليه .

« قد وصلنا تحريرك ، وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا إلى الطاعة وتخبرنا أنك عازم على أن تجعل بلادنا سعيدة ، مباركة .

---

(12) انظر نص الرسالتين في التحفة ، ص 260–263 .

« وأي سعادة أحب الينا من سعادة الجهاد ، وحماية البلاد ، وثباتنا امام اعدائنا ولو بدون محاربة ولا طعان . فان الله تعالى جعل لنا ثوابا عظيما إذا نحن أذقناهم مرارة الوبال ، ونكلنا بهم شديد النكال ، وكبدناهم أنواع المشقات ، وألجأناهم إلى التفريق والشتات . وإذا لم نتمكن من ذلك كله فمن بعضه ؛ فان لم يتيسر لنا فيكفي الثبات في وجوههم ، وعلى قدر التعب يحصل الأجر .

« وكونك تعدنا كعادتك مع غيرنا بالفخر والمجد إذا نحن أطعناك وإلى مطلوبك أجبناك . فهذا لا نسمعه ولا نلتفت اليه ، بل نعده ضربا من المحال . والذين أطاعوك من أهل وطننا فإنهم عندنا قوم لادين لهم ولا خلاق . بل لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه . فلا تغتر بكلامهم . وانما قادهم اليك الطمع فيما عندك . فباعوا لك دينهم بالذهب والفضة .

« وأما نحن فلا نبيع ديننا . وانما نبيع أنفسنا إلى الله تعالى الذي يشتريها منا بالجنة . ومن الواجب عليك أن تنظر إلى عظمة سيدنا الأمير كما ننظرها نحن . فانه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة عن غير كبير عدد ولا ذخائر مؤثلة ، ولا خزائن قائمة وافرة .

« وأما انتم فلا مزية لكم لان دولتكم قديمة من الف سنة ، فجمعت الأموال ، ودربت الجيوش الجرارة على الحروب ؛ فان هي غلبت الآن فان اميرنا حديث العهد بالملك ، ورعيته قد انهكتها الحروب الاهلية والأجنبية من مدة متطاولة . فأي مزية لدولتكم في تغلبها علينا .

« والظاهر أنك أيها الحاكم مسرور بكونك اخرجتنا من اوطاننا واحرقت أغلالنا ، وارسلت لدولتك تبتهج بذلك . ولو كنت من أهل النظر ما ظهر هذا منك .

« نعم ! لو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عددا واستعداد ، وفعلت بنا ما فعلت كان يحق لك أن تبتهج بعملك ، وتفتخر به . ولكن حيث إنك جلبت الينا جيوشا يزيد عددهم على عدد نفوسنا وكراعنا ، وشجرنا ، وحجرنا ، فلا حق لك في سرورك لان من غلب كثرة لا مزية له ، ولا فخر . وانما المزية لمن غلب من يكافئه عَدَدا وعُددا ، أو يكون اكثر منه .

« ونحن لله الحمد مع قلة عددنا ، فقدوقفنا في صدوركم ، واذقناكم نكال الحرب ، ومرارة الجلاد والضرب مدة أحد عشر عاما من حين استيلائكم على مدينة الجزائر إلى يومنا هذا . ولا نزال بحوله تعالى وقوته على ذلك إلى أن نغلب أو نُغلب ، ويهلك كبيرنا وصغيرنا . وعلى كل حال فلا تتعب نفسك فإنك لا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند الملوك كما هو في بالك ، لان ذلك إنما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة من كل شيء ، وأما دولة قليلة العدد والعدد فلا مزية لمن غلبها .

« وما يتعجب منه كل العجب أن دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر . وهل عاقل في العالم يفتخر بالظلم والاعتداء ؟ حاشا وكلا ! إنما الفخر في تركهما وعدم التخلق بهما .

« وجميع ما أتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا لوجود غيره عندنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عديدة فان نفدت فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب أو المشرق مفتوحة . وكما أن مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر ، فكذلك نحن عندنا الجمال تحمل الينا ما نحتاج إليه من القاصية .

« ومن الواجب عليك أن تنظر فيما دخل في يدك من الذخائر والمؤن في هذه المدة ، وما خرج منها . فان وجدتها ناقصة فبادر إلى ارسال ما يسد نقصها من حجر معسكر ، وتراب

غريس إلى دولتك . وبذلك تجعلك محبوبا لديها ، كبيرا في عينها .

« ولو احصيت أيها الحاكم قتلاك وأسراك ثم قابلناهم بمن قتل منا وأسر لظهر لك خسرانك ، وتحقق عندك نقصانك ، والمكافأة في الحرب وإن كانت لاتقضي بالمزية لاحد الطرفين فانها تقضي لنا به نظرا لكثرتكم وقلتنا ، وكبر دولتكم وصغر دولتنا .

« هذا جوابنا فصلناه تفصيلا مفرطا في الاسهاب والاكثار رجاء أن تفهم » .

ونص الرسالة الثانية :

« 29 ربيع الثاني 1257هـ .

« 20 جوان عام 1841م .

« من الحشم وغيرهم من القبائل المتمسكين بدينهم الاسلامي الوثيق العرى ، إلى النصراني (بيجو) .

« قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين (بني يخلف) واطلعنا عليه : فوجدناك تطلب منا نص ما طلبته سابقا غير مرة . فتعجبنا من إلحاحك ، وإكثارك علينا في الطلب ، مع أننا بذلنا وسعنا في إقناعك ، فلم تسمع ، واوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسك بديننا وطاعتنا لاميرنا ، فلم تفهم ، ولو فهمت لعدلت عن إلحاحك ، وتتابع طلبك .

« وعلى كل حال فهذا آخر جواب ياتيك من طرفنا ، فليكن مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله الينا .

« وكيف نترك ديننا الذي هو أشرف الأديان ، ونتخلى عن اميرنا الذي هو عندنا أعظم أمير ، وأشرف من يطاع . هذا مما لا يقول به عاقل ولا يعلق به أفكاره آمل .

« والذي حملك على الالحاح هو تصديقك لاولئك المتنصرة الذين يسارعون إلى الدخول في طاعتك . ولو كانوا مما يعتد بهم في الديانة ما جحدوا نعمة الله عليهم بالاسلام ، وأطاعوك ودخلوا تحت رايتك وانت عدو دينهم ودنياهم .

« والذي أخذ بنواصيهم ، وقادهم إلى ذلك إنما هو حب المال الذي يسرتم له طريق الطمع فيه . ولم تعلموا أنهم كما أزاغهم الشيطان وتركوا دينهم ، ورفضوا طاعة أميرهم . كذلك يتركون دينكم وطاعتكم ، لان من كان بهذا السبيل لايوثق به . وأنت لغرورك بهم ، وثقت بحالهم ، واتبعت اشاراتهم وآراءهم .

« وبالجملة ، فنحن في وطن واسع الاطراف ، ممتد القاصية ، لا نزال ننتقل فيه غربا وشرقا ، وجنوبا وشمالا . وانتم تتبعون آثارنا ؛ فلا تدركون شأونا وغاية ما هنالك . إن عساكركم تفنى جوعا ومرضا ، وذخائركم تنفد . وكل ذلك من غير طائل .

« فالأولى لكم أن تعمروا بلادكم التي نشأتم فيها ، ونشأ آباؤكم من أجيال متطاولة .

« واما بلادنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة . وهب أنكم استوليتم عليها ، واقمتم فيها ثلاثمائة سنة ، مثل من ملكها قبلكم (يشيرون بذلك الى مدة حكم الاتراك العثمانيين) فانكم لا بد ان تخرجوا منها كما خرجوا ، وتمسوا كأمس الذاهب . والدهر هكذا واهب ، ناهب .

« والظاهر أنه يخطر في فكرك أنك إذا استوليت على وطننا : أن فرنسا تجعلك ملكا تدين بطاعتك . هيهات !! إنما أنت عسكري تعيش عسكريا ، وتموت عسكريا ، ولم تستفد شيئا ، فانك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .

« والذين استهووك ، وغروك من العرب بطاعتهم لا يعبأ بهم إذا حضروا ، ولا يسأل عنهم إذا غابوا ، فاقوالهم ، ومواعيدهم إنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . وغاية أمرهم : أن الذي يؤملونه منكم لا يصلون اليه ، وإنما يموتون كفارا تحت رايتكم ، نسأل الله العافية والحماية من ذلك .

« ومن العجيب أنكم تعلمون أننا ، وإن كنا خاضعين لاميرنا ، فإننا ما طلبنا الصلح معكم إلا قهرا ، وامتثالا لأمره . فكيف الآن نميل إليكم ونرغب في طاعتكم .

« ثم لايخفى أن بلادنا تمتد غربا إلى حدود المغرب الاقصى ، وشرقا إلى حدود افريقية (تونس) ، وشمالا وجنوبا من البحر إلى القفر . وجميعها مع اتساع أقطارها في غاية الامن بالنسبة الينا .

« فلا تظنوا أنه يلحقنا ضرر منكم ، او يرهبنا وضع عسكركم في (معسكر) و (مليانة) و (المدية) . فان الضرر والخسارة وامثالهما في الحقيقة لا تعود الا على اولئك الجنود الذين لا نراهم الا اسرى في بلادنا اذ لا يأتيهم ما يقتاتون به الا بمشاق ، واتعاب يتلف فيها من اخوانهم عدد كثير ، ومن الذخائر اكثر .

« وملخص ما نقول إننا وإياكم عبيد الله تعالى ، والأرض أرضه والبلاد بلاده . وهو الذي وطن فيها آباءنا ، فان ابقانا فيها فله الفضل والطول وان اخرجنا منها ، وجعلها في ملككم ،

وقبضة تصرفكم ، فهو مختار في فعله ، يفعل مايشاء ، ويحكم ما يريد » .

وبعد : فماذا تدل عليه هاتان الرسالتان ؟ وما فحواهما ومراميهما ؟

ان هاتين الرسالتين ان دلتا على شيء فانما هو انتشار الوعي القومي — كما قلنا — في البلاد ، ونضج الساسة المسيرين بالخصوص .

لان ما تحمله هاتان الرسالتان بين طياتهما من ردود دامغة ، وأجوبة صريحة وقوية لا تترك مجالا للشك في ان الروح التحريرية تغلغلت في أدمغة المسؤولين ، وتجاوزتهم الى جموع الشعب .

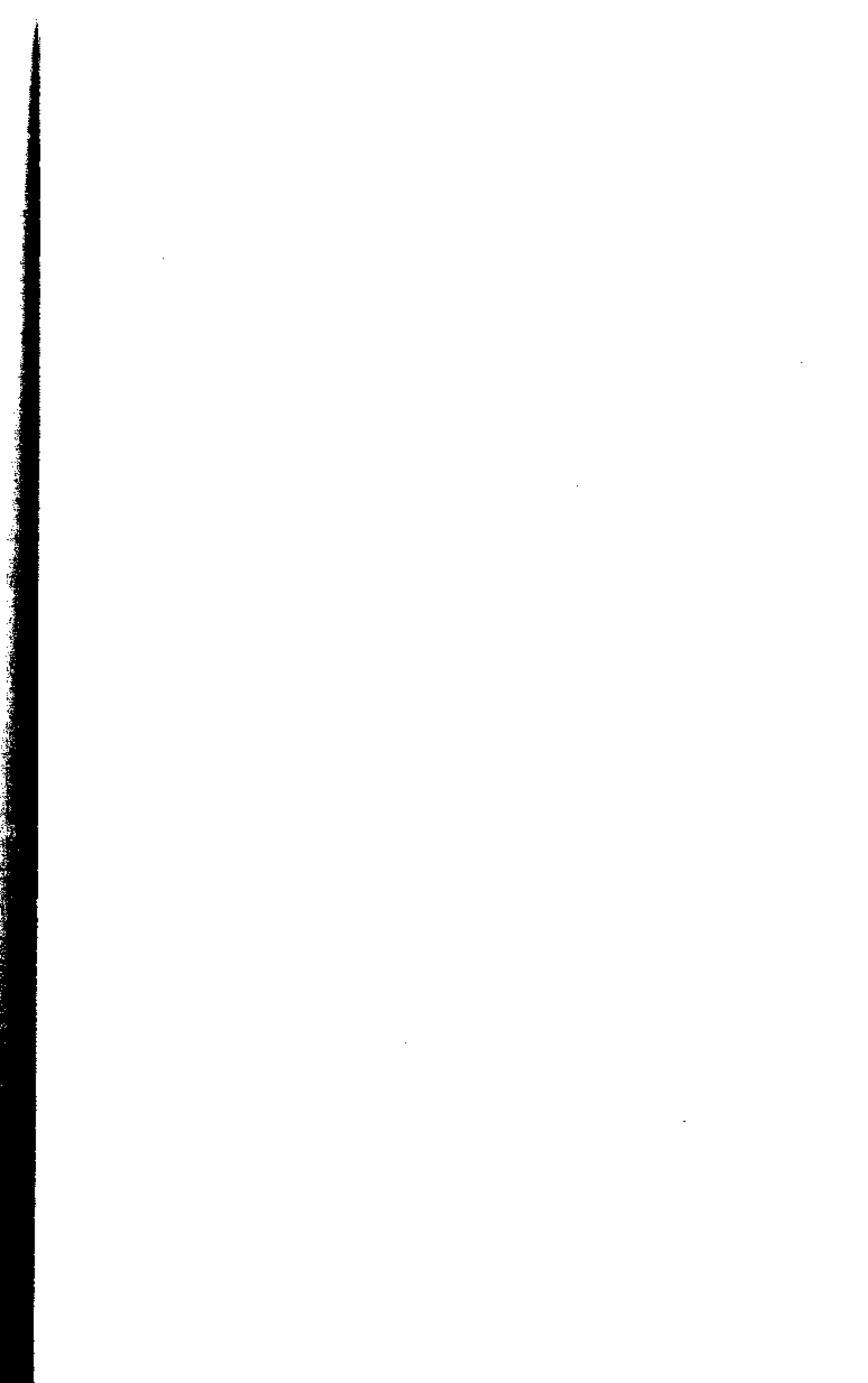
ومثل هذه الردود المفحمة ، وتلك الاجوبة الدامغة لايمكن بحال ان تصدر الا عن شعب قوي له من حسن الادراك ، وبعد النظر ، الشيء الكثير .

ولهذا لم يعدم الأمير الصواب عندما تغنى برجاله وقال فيهم :

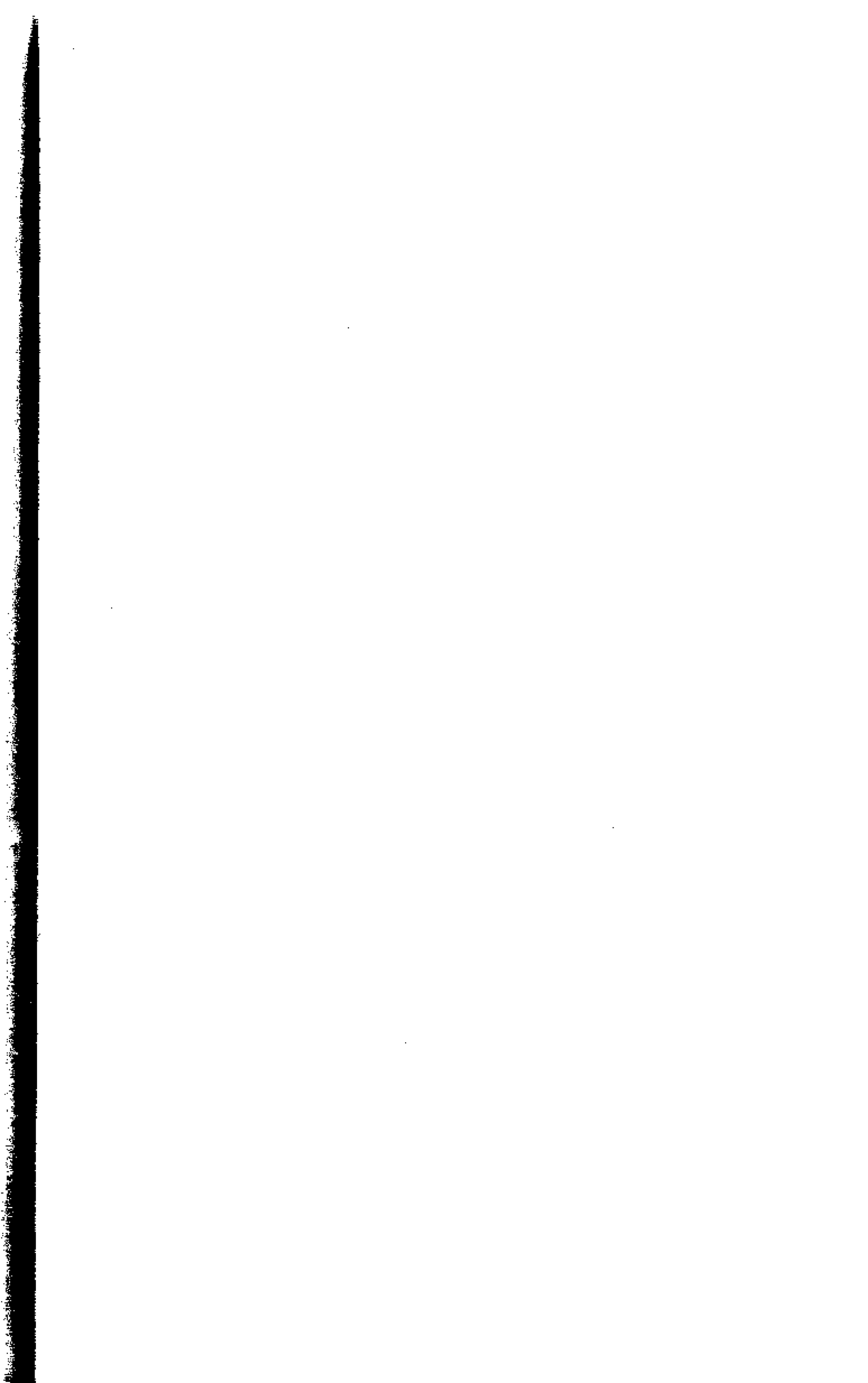
وألذ شيء عندهم لحم العدا ... ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق ... رغما على الاعداء بغير تهول
لايعرف الشكوى صغير منهم ... أبدا! ولا البلوى اذا مايصطلي
ما منهم الا شجاع قارع ... أو بارع في كل شيء مجمل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم ... عند الصباح له مشوا بتهلل
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة ... ممسوحة بثياب كل مجندل
لايحزنون لهالك بل عندهم ... موت الشهادة غبطة المتوسل
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة ... والموت عندهم بموت الهمل

ولقد ظفرت مجهودات الأمير الحربيـة ، والسياسية ، والاجتماعية بنتـائج طيبـة وعظيمـة ؛

وصدقت تنبؤات الشعب في ان المحتل الغاصب لا بد راحل من هذا الوطن ، كمـا رحل غيره من المعتدين منذ آلاف السنين ، وقد رحل فعلا والحمـد لله الى غير رجعـة غداة النصر المظفر في مطلع شهر جويلية 1962 ، بعد ثورة عارمـة دامت سبع سنوات ونصفـا انطلقت في أول نوفمبر 1954 ، وبعد كفاح مرير دام قرنـا واثنين وثلاثين عاما ، قدم الشعب الجزائري خلالها ، ملايين من الشهـداء الأبطـال ، سقوا بدمائهم كل رقعة وبقعة من تراب الجزائر ، وأرضهـا الزكيـة الطـاهرة .



القسم الثالث
الأمير العالم



معـارفـه ومؤلفاته :

الأمير عبد القـادر ذو ثقـافة واسعـة في مختلف العلوم ، وفروع الآداب . درس من كتب العلم والفلسفـة : (رسائل اخوان الصفـاء) و (فيثـا غورس) و (ارسطاطاليس) . وتعمق في دراسـة (الفقـه ، والحديث) و (الجغرافية ، والفلك ، والتاريخ) ، و (كتب العقاقير) وفنون (اللغة ، والبلاغـة ، والأصول ، وعلم الـكلام) وغيرهـا .

وكـان على جانب عظيم من سعـة الادراك ، نظرا لتضلعه في المعرفـة . وهذا ما جعله يجيب بنفسه عن القضايـا التي ترد عليه من كبـار علمـاء الاسلام ومفكري الغرب ، مسهبـا في الاجابة عن تلك الاستفسارات الى درجة تبكت المعاند ، وتخرص المناهض مع الايفـاء بالمقصود . كمـا انه كـان كثيرا ما يوجه الاسئلـة الى مجالس العلمـاء ، وكبـار الفقهـاء ، طيلـة حياته ، سواء بالمغرب الأوسط والأقصى ، او بالمشرق وفرنسا .

ولم تصرفـه مشاكل الجهـاد والحرب عن نفع الغير فتصدى للتدريس ، والإقراء .. ودرّس صحيحي البخاري ومسلم وكتاب الشفـا للقـاضي عياض (في الحديث) ، والالفية (في النحو) ،

والسنوسية (في التوحيد) ، والرسالة (في الفقه) ، وايساغوجي (في المنطق) ، والاتقان في علوم القرآن (في التفسير) ، والعقائد النسفية (في التوحيد) .

وكانت اماكن تدريسه تختلف بحسب الظروف . فتارة في المدرسة الاشرفية التي تدعى بدار الحديث النووية ، وآونة بالمدرسة الجقمقية ، وفترة بالجامع الأموي ، ومرة بالمسجد الحسني ، واخرى بمنزله .

وله مؤلفات عدة ، ورسائل مطولة عديدة ، واجوبة متنوعة تحدث فيها عن شتى الاغراض . ومختلف المسائل ، والمشاكل . ومن بين مؤلفاته :

1) « المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من اهل الباطل والالحاد » . وهي رسالة مطولة كتبها بسراية (امبواز) في فرنسا . وذلك ردا على الطاعنين في مبادئ الاسلام بقصد النيل من اصوله ومبادئه الحكيمة .

2) « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » . وهي رسالة مطولة ايضا كتبها للاكاديمية الفرنسية عندما انتخبته عضوا فيها . وقد ضمنها مسائل جمة في مختلف العلوم : كالتاريخ ، والفلسفة ، والدين ، والاصلاح الاجتماعي ، والاخلاق .

3) « المواقف » وهو كتاب في علم التصوف .

4) تعليقات على حاشية جده (عبد القادر بن خدة) في علم الكلام .

5) رسائل اخرى ، واجابات عن اسئلة متعددة في مختلف الاغراض وشتى الفنون ، وعديد المشاكل العلمية ، وغيرها .

قال شكيب ارسلان : « وكان المرحوم عبد القادر متضلعا من العلم والادب ، سامي الفكرة ، راسخ القدم في التصوف ،لا يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا ، ولا يحن اليه شوقا حتى يعرفه ذوقا ، وله في التصوف كتاب سماه (المواقف) . فهو في هذا المشرب من الافراد الأفذاذ . وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين كتاب أسماه : (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) (1) في الحكمة والشريعة وقد ذكر مؤرخو الافرنجة أن ملكته العلمية (والدينية) كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها . وانه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان » (2) .

وكل هذا في الحقيقة لا يكفي للتدليل على سعة الأمير العلمية ، مادمنا لم نر بالملموس نتاجه الفكري ، وذخره العلمي . ولهذا نورد للامير على سبيل المثال جوابا لسؤال واحد من بين عشرين سؤالا وجهها اليه الجنرال (دوماس) الفرنسي المسيحي ، كي ندرك طريقته في البحث وسعة أفقه في ادراك كنه المشاكل وتفهمها .

قال دوماس سائلا : « ان المسلمين نرى الرجل المسن منهم يخطب البنت الصغيرة ، ويأخذها . وعند النصارى هذا عيب وقاحة . وقليل من يصبر على هذه الوقاحة ، ويأخذ بنتا صغيرة وهو كبير » ؟

فقال الأمير مجيبا : « هذا غير مسلم ، بل فيه عيب كبير عند المسلمين ، وقليل من يفعله منهم نادر . والنادر لا حكم له . إذ الغالب فيه عدم الالفة ، والمحبة من البنت الصغيرة للشيخ غير

---

(1) الصحيح ان اسم الكتاب هو : (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) كما ذكرناه آنفا ويظهر ان الأمير شكيب صاغ اسم الكتاب من معناه .

(2) حاضر العالم الاسلامي . م2. ص 173 .

مرجوة ، بل لا بد ان تكره وتنفر من شيبه . ومن طبع النساء النفور من الشيب . قال امرؤ القيس :

ان تسألوني عن النساء فانني خبير باحوال النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له من ودهن نصيب

وقال بعض العرب وكان شيخا شائبا : رأيت امرأة جميلة فقلت لها : أيتها المرأة إن كان لك زوج بارك الله لك فيه . وإلا فاخبرينا .

فقالت له : فيّ شيء لا تحبه . قال : قلت : ماهو ؟ قالت : شيب في رأسي ، وتبسمت ضاحكة من قولي . فذهبت عنها . فقالت : ارجع والله ما بلغت سني عشرين سنة . وهذا راسي . ولكن الشيب في رأسك ، فاعلمتك أننا نكره منكم ما تكرهونه منا .

وقيل لامرأة من العرب : ما تقولين في ابن عشرين سنة ؟ فقالت : ريحانة يشم . قيل لها : فابن ثلاثين ؟ قالت : قوي متين . قيل لها : فابن أربعين ؟ قالت : أبو بنات وبنين . قيل لها : فابن خمسين ؟ قالت : يجوز في جملة الخاطبين . قيل لها : فابن ستين قالت : صاحب سعال وانين .

وعندنا إذا صبغ الرجل شيبه ، وتزوج المرأة ، وأوهمها أنه شاب فان الشرع يعاقبه ، ويفسد النكاح ويبطله . وكان رجل خطب امرأة وصبغ شيبه فعرفت المرأة ولامته . فقال :

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها :

سترته عنك يا سمعي ويا بصري

فقهقهت ثم قالت من تعجبها :

تكاثر الغش حتى صار في الشعر

وكذلك المرأة العجوز إذا تزوجت شابا صغيرا يتخذهـا النـاس هزؤا وسخريـة » (3) .

وخير لنا أن نسمع اليه يحدثنـا في شعره عن مدى فقهه لسائر العلوم فيقول :

فنحن أكاليل الهداية والعـلا	ومن نشر علياهم ذوي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيـا تجمعـا	ولا فخر الا ما لنا يرفع اللـوا
منـاقب مختاريـة قـادرية	تسامت وعباسية مجدها احتوى
فان شئت علما تلقني خير عالم و في	الروع أخباري غدت توهن القوى
لنا سفن بحر الحديث جرت به	وخافت فطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحي فعج على	مجالسنا تشهد لداء العناء دوا
وان شئت نحوا فانحنا تلق ما له	غدا يدعن البصري زهوا بما روى

واتمـامـا للفائدة نستعرض هنـا فقرات من رسالته المسمـاة « ذكرى العاقل وتنبيه الغافل » التي أشرنـا اليهـا سابقـا . والتي قلنـا انه وجههـا إلى (الاكاديمية الفرنسية) بباريس ، عندمـا بلغه أن علماءهـا منحوه عضويتها وسجلوا اسمه في قائمـة أعضائهـا ، باعتباره من مفكري ذلك العصر .

وقد بحث فيهـا الأمير مسألة النظر والبحث والتنقيب ، سعيا وراء التجديد المنتج .. وحمل على دعـاة التقليد الأعمى حملـة شعواء على أسـاس الادلـة والبراهين القويـة الثابتـة . ثم تناول بالبحث فضل العلم والعلمـاء .. والتعريف بالعقل ، والقوى الأربع ، وأقسام العلم ، وغيرهـا .

(3) تحفة الزائر ، ج 2 ، ص 168 — 169 .

قال في افتتاحية الرسالة بعد الحمدلة والديباجة وأسباب الوضع.

« وسميت هذه الرسالة (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) ورتبتها على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة . وفي كل باب فصل وتنبيه وخاتمـة .

« أمـا المقدمـة ففي الحث على النظر وذم التقليد .

« وأمـا الباب الأول ففي فضل العلم والعلماء وفيه فصل في تعريف العقل الذي به ادراك العلوم . وتكملة في القوى الأربع التي إذا اعتدلت في الانسان يكون انسانا كاملا . وتنبيه في فضل ادراك العقل على ادراك الحواس ، وفضل مدركات العقل على مدركات الحواس . وخاتمـة في انقسام العلم إلى محمود ومذموم .

« وأمـا الباب الثاني ففي العلم الشرعي . وفيه فصل في اثبات النبوة التي هي منبع العلوم الشرعية . وفيه تنبيه في معرفة النبي وما يتعلق بالنبوة وخاتمـة في المكذبين للانبيـاء .

« وأمـا الباب الثالث ففي فضل الكتابة . وفيه فصل في الكلام على كتابات الأمم ومن وضعهـا وما ينجر إلى ذلك . وتنبيه في بيان حروف الكتابة العربيـة . وخاتمـة في احتيـاج النـاس الى التصنيف وما يتعلق به » (4) .

وقـال في طالع المقدمـة :

« اعلموا أنه يلزم العاقل أن ينظر في القول ولا ينظر إلى قائلـه . فان كان القول حقـا قبله ، سواء كان قائلـه معروفـا بالحق أو الباطل .

---

(4) الأمير عبد القادر : ذكرى العاقل وتنبيه الغافل . (بدون تاريخ ومكان الطبع) ص 3—4 .

« فان الذهب يستخرج من التراب ، والنرجس من البصل ، والترياق من الحيات ، ويجنى الورد من الشوك .

« فالعاقل يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال» (5) .

حقا إن الرجال تعرف بالحق لا العكس . وهي كلمة خالدة ما بقي الدهر ، وان لم يعها ويدرك مغزاها إلاّ القليلون .

وقال في فصل (التعريف بالعقل) من الباب الأول :

« قوة العقل هي احدى القوى الاربع التي إذا اعتدلت في الانسان يكون انسانا كاملا .

« وهي قوة العقل ، وقوة الشجاعة ، وقوة العفة ، وقوة العدل

« فقوة العقل هي حالة للنفس ، بها يدرك الصواب من الخطإ في جميع الاحوال .

« والعدل حالة للنفس بها يسوس الغضب والشهوة ويحملها على مقتضى العاقل في الاسترسال والانقباض .

« والشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في اقدامها واحجامها .

« والعفة تؤدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

« فمن اعتدال هذه القوى الأربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها . فمن اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأي ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأمور الخ»(6)

---

(5) نفس المصدر ص 5 — 11 .
(6) نفس المصدر . ص 23 — 30 .

وقال في خاتمة الباب الثالث في معرض الحديث عن المعركة القائمة بين القديم والجديد :

« ... فان نتائج الافكار لا تقف عند حد ، وتصرفات العقول لا نهاية لها ، لان العالم المعنوي واسع كالبحر الزاخر ، والفيض الالهي ليس له انقطاع ولا آخر .

« وغير محال ولا مستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين .

« فقول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئا خطأ ، والقول الصحيح هو : كم ترك الأول للآخر . ويقال : لا كلمة أضر من قولهم : ماترك الاول للآخر شيئا ، لان هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلم على علم المتقدمين ، ويقتصر الآخر على ما قدمه الأول . وهو خطر عظيم ، وقول سقيم .

« فالاوائل فازوا باستخراج الاصول ، وتمهيد القواعد . والأواخر بالاستنباط من الاصول ، وتشييد تلك القواعد وزيادة البناء فيها » (7) .

وهكذا الرسالة كلها مليئة بالافكار الجديدة ، والحكم البليغة ، والتوجيهات الصحيحة المبنية على التجربة ، وحصافة الرأي ، وبعد النظر لمفاهيم الاشياء .

وقد تجلت فيها بالخصوص براعة الأمير في حسن الاسلوب ومتانة التعبير ، ودقة المعنى ، وجمال السبك ، وغزارة التفكير . والمنطق الوزين ، حتى لتخال الأمير فيها فيلسوفا بحق ، وحكيما قديرا .

---

(7) نفس المصدر . ص 110–132 .

ولئن كانت الرسالة تحوي بعض النظريات الغريبة بالنسبة لمنطق الفكر العصري ، لكنها في مجموعها على كل حال ذخر طيب لاغنى للقارىء العربي عن الاطلاع عليه .

وكل ما في الامر ان بعض ما فيها مما ليس له قيمة ادبية أو علمية تذكر اليوم ، هي من صميم الجديد في الفترة التي عاشها الأمير . هذا من الناحية الأدبية ، اما من الناحية العلمية والبحث التاريخي ، فكلها كما قلنا من صميم الجديد . صور لنا فيها الأمير عقلية البيئة ، وشخص لنا حياة المفكرين لعصره ، وارانا كيف ينهج الباحثون في الدراسة ، وما هي عقليتهم وما مدى منطق تفكيرهم وواقعهم ، كشأن كل الكتاب والمحررين .

ومن هذا وذاك مما سبق ذكره يتبين لنا ان الأمير على جانب عظيم في ميدان الثقافة والآداب .

واعظم مزية نعطيها له في هذا المضمار هو جمعه بين الثورة المسلحة والكفاح (النظري) . حيث استطاع وسط تلك الانهار المتدفقة بسيول من الدماء ، وأمواج من الانتفاضات المتكررة ان ينشيء جوا من الثقافة والأدب ، يكاد لا يكون له نظير في ذلك الوقت خصوصا وانه قد اصطحب منذ صباه بعراقيل لو كان غيره هو الذي اصطحب بها ما استطاع ان يعرف شيئا ابدا مما هو ضروري فضلا عن التوسع الى ذلك الحد الذي عليه الأمير .

واذا علمنا ان حروبه التحريرية قد تقلد رايتها وهو ابن خمس وعشرين عاما ما يزال يافعا في طور الفتوة لم تكتمل بعد مواهبه ، لو قيس بغيره ، سهل علينا ان نمنحه لقب (العبقري) الذي يعز منحه حتى للعبقريين بحق لما فيه من الشروط .

ولكن الأمير الذي وصل الى هذه الدرجة في ميدان الحرب ، ومدارج العرفان ، قليل في حقه هذا اللقب ، ويستحق اكثر من هذا وهو صادق في قوله :

فـان شئت علمـا تلقني خيـر عـالم
وفي الروع اخباري غدت توهن القوى

وهكذا كان رائد الجميع في السياسة والحرب والمعارف بلا جدال .

سير التعليم ونظامه في دولته :

واذا كان الأمير عبد القادر عالما فذا ، ومصلحا اجتماعيا كبيرا ، بشهادة اعدائه ، فانه لم تشغلـه رسالته الحربية التحريرية عن ان ينظـم البلاد اداريـا ، ويكوّن في الشعب روح التحرر من الجهـل ، كمـا بعث فيه حماسة التحرر من الاستعمـار .

ولقد ادرك من اول الأمـر ان نجـاح المعركـة الحربيـة يتوقف على انتشـار الوعي القومي في مختلف الطبقـات . والوعي القومي عبارة عن فشو الثقـافـة وانتشـارهـا .

ومن اجل هذا لم يغفل عن انشـاء المدارس في انحـاء الوطن كي يتعلم فيهـا الشبـاب الى جانب المساجد والزوايـا المنتشرة في البلاد ، والتي يقبل عليها الشعب كبيره وصغيره ، في اوقات منظمـة معلومة حسبمـا الف النـاس ذلك في نفس الوقت والعهد .

وذكر مرسيل إيميريت انه كان يوجد في تلمسان وحدهـا خمسون مدرسة ابتدائية ، ومعهدان كبيران للتعليم الثانوي والعالي ،

همـا : (مدرسة الجامع الأعظم) و (مدرسة اولاد الإمام) (8) :
وهذا يدل على أن التعليم كان منتشرا جدا، ويحتل المقام الأول في
دولـة الأمير الذي أولى عنايتـه بالمدارس والمساجد والزوايـا
وبالعلمـاء والمقرئين الذين يدرسون فيها للطلاب .

وكانت هناك امتحـانات تجرى لمعرفـة المجتهدين من غيرهم ،
وتمنح للمتفوقين (جوائز) ومنح خاصة تشجيعـا لهم مما جعل
النـاس جميعـا يقبلون على طلب العلم ، ويجتهدون في تحصيله .

وحرص الأمير كثيرا على جمع الكتب من جميع الجهات
حتى انه امر العساكر ان توافيه بـكل كتاب تعثر عليه ، فنظم مكتبة
كبيرة (في تاكدمت) ثم نقلهـا الى الزمالة تمشيـا مع الاحوال
والطوارىء بلغ عدد ما فيهـا من انفس المجلدات قرابة الخمسمائة
كتـاب كمـا يروي ذلك ولده الأمير محمد ، جعلها الفرنسيون
اثرا بعد عين عندمـا استولـوا على الزمالة عاصمة الأمير المؤقتة
بعد معركـة عين طاقين عام 1843 .

وهذا الموقف من الفرنسيين يذكرنـا بالاسبانيين عندمـا
احتلوا بلاد الأندلس واستولوا على المكتبات العلمية الشهيرة التي
أنشـأهـا العرب الفاتحون هناك فاحرقوهـا وأتلفوهـا .

كمـا يذكرنـا ايضا بالمغول عندمـا احتلوا بغداد وأخرجوا
منهـا عصارة الفكر البشري آنذاك ليجعلوه قنطرة يعبرون منها
على دجلـة .

احرق الاسبان عصارة الفكر البشري في الأندلس .. واحرق
المغول عصارة الفكر البشري في بغداد .. واحرق الفرنسيون عصارة

---

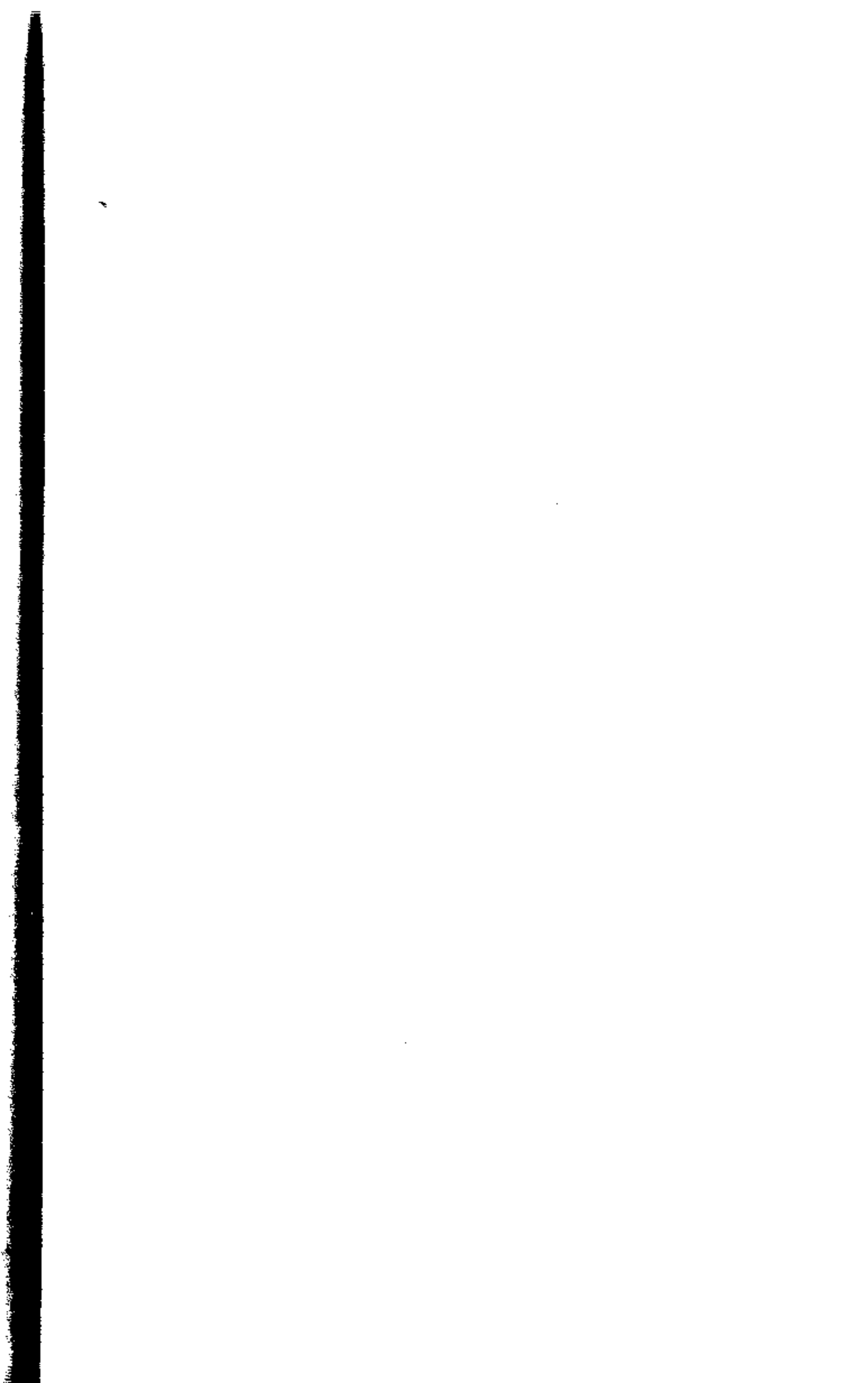
(8) Emerit p. 13.

الفكر البشري بالجزائر .. فهل هذا من حسن المصادفة ؟ كلا !! انه التسابق في الاجرام والآثام .

ومن حرص الأمير على انتشار الوعي الثقافي .. والقومي .. والاخلاقي .. أنه اجبر الناس على اتباع الاخلاق الحسنة ، وألزمهم بالتحلي بالمحاسن والفضائل .

وبذل جهودا جبارة في اصلاح الآداب العامة ، وتهذيبها . وشدد على الناس في استصلاح الاخلاق العامة .. وحثهم على حسن السلوك ، حتى انه منع الناس من التدخين ، وفرض عقوبات صارمة على شاربي الخمور ولاعبي القمار ، وتاركي الصلاة .

القسم الرّابع
الأمير الشاعر



كفـاحه القـولي :

ان الحديث عن الأمير عبد القادر كشاعر ليس معنـاه : الغوص في دراسة شعره دراسة عميقة ، وتحليله تحليلا دقيقـا على مقتضى المقاييس الادبية ، ووفقـا لمـا تتطلبه الفنون الشعريـة . من اعتنـاء بالالفـاظ والاوزان . كمـا أنه ليس المقصود مقارنة شعره بأشعار غيره من الفحول المتيمين . والافذاذ الفخريين ، والعباقرة الغزليين والمادحين وغيرهم . لان كل ذلك نقول سلفـا ان الأمير لربمـا كان د ، او لم يطرق اعتابه من مسالكها على الاقل .

وهذا لا يعني ان الأمير قصر عن غيره من الشعراء في هذا المضمـار ، إذ أنه في الحقيقة طرق كل أبواب الشعر من مدح وعتاب . وفخر وتوسل . وشوق وتغزل . وتهنئة ومطارحة ، وما إلى ذلك من الأغراض الشعرية . وزيادة على هذه امتاز بشيء آخر هو تصويره الصادق لحالة وطنه في روائع أشعاره وقصـائده .

فجـاء شعره صورة طبق الأصل لمـا يقوله الادبـاء والكتاب اليوم في تعريف الشعر من أنه : « تصوير وتعبير » .

وجاءت براعته الثانية في كونه استطاع ان ينظم هذا الشعر، ويتعاطى قريضه ، وهو ما يزال يافعا دون الخامسة والعشرين من سنه . لم يسبق له ان تعلم موازين الشعر ومقاييسه ، ولا سبق ان تلقى اصوله ومبادئه على استاذ خبير في فنون الشعر واصوله .

واعجب من هذا كله ، جمعه بين كفاح السيف والقلم في وقت كان فيه اتون الحرب مشتعلا ، وبركان الثورة متقدا ، ونار الانقضاض والتمرد على الطغيان ملتهبة .

وفوق هذا العجب كله ان يكون اروع شعره مما قاله زمان الحرب والثورة جاء على اشد مايكون في قوة المعنى ، ومتانة الاسلوب . صور واقع البلاد والشعب واعطى لنا صورة واضحة قوية عن شخصيته وبسالة جيشه الفتي ، كما جسم مظاهر تلك الوقائع الحربية المهولة .

اغراضه الشعرية :

ومهما يكن افتقادنا لشعره الذي قاله زمان الصبا والفتوة قبل الامارة وبعدها ، اذ يقال انه ضاع وافتقد فيما افتقد من اوراقه عندما استولى جيش الاحتلال الفرنسي على (مكتبته) الكبرى الشهيرة في عاصمته الثانية (الزمالة) التي احتلها آنذاك ، فان القسم الموجود بين ايدينا ، والذي جمعه ولده الأمير محمد في ديوان صغير تحت عنوان : « نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر » . هذا القسم كاف لان يعطي لنا صورة واضحة عن قيمة الأمير الادبية ، وقوته الشعرية ، ومقدرته الفنية ، في الفخر والاعتداد ، والتهنئة والعتاب ، والشوق ، واللغز ، والتصوف ، والمدح ، التغزل ، وغيرها .

على ان هناك مزية اخرى تفرد بها الأمير في عالم الشعر . هي انه كان اول شاعر في المغرب العربي عامة ، وفي الجزائر بالخصوص . تعاطى شعر الحماسة ، وطرق باب القريض الملحمي ليفتحه على مصراعيه لمن يأتي بعده من فحول الشعراء ، وروّاد الحماسة والملاحم .

ولئن كان شعر الأمير في مجموعه لا يتسم بالقوة اللفظية ، والجزالة البلاغية ! على غرار طريقة امراء الشعر من مثل الملك الضليل ، والبحتري ، وأبي تمام ، وبشار ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، لكنه على كل حال كثيرا ما يتلاقى مع أبي الطيب المتنبي في الفخر والحماسة ، ومع أبي تمام في المدح والاستعطاف . ومع البحتري وابن زيدون في الوصف والتغزل . وحكيم المعرة في الفلسفة والحكمة .

ولئن كان اسلوبه الشعري في النسج والسبك مفككا مهلهلا في بعض الاحيان فانك تجده في الغالب والاكثر من المتانة بمكان ، قويا جزلا ، فصيحا متناسقا . محكم العبارات متماسك الجوانب .

ولئن كانت اغراضه التي يرمي اليها من وراء شعره مسفة في بعض الاحيان فانها في الاحيان الاخرى عميقة وقوية ، بعيدة عن السطحية والتقليد ، أصيلة في شرف المقصد ، ونبل المرمى ، صادقة في معناها ، تنم عن حيوية الضمير ، وشدة الحساسية .

ولئن كان المتنبي قد استنفد طاقته الشعرية في اعتاب كافور ، وقصور سيف الدولة الحمداني ، ولئن كان البحتري وأبو تمام قد رهنا شخصيتهما للملوك ، وربطا موهبتهما الشعرية وقيداها

بهدايا الملوك والوزراء ، فان الأمير عبد القادر قد محض شعره للدفاع عن حياض الوطن ، وايقاد روح الكفاح والجهاد في قلوب الشعب حتى يتسنى له أن يدافع عن وطنه ، ويقبل على محاربة العدو .

وحسبه في هذا المقام أن يكون ، كما قلنا ، أول من قام بتحمل هذه الرسالة الشعرية الأدبية في المغرب الأوسط (الجزائر) في الوقت الذي انطفأت فيه شعلة الشعر ، وتجمدت جميع القرائح وتكمشت في داخلها كل المواهب ، بحيث يكاد يقفر الوطن الجزائري من مثل هؤلاء الرواد الذين يعهد اليهم بحمل لواء رسالة الشعر الحماسي ، وراية القريض الحربي ، والمشعل الأدبي .

وإذا ما علمنا بأن الشاعر العربي في العصر الجاهلي وما بعده إنما هو بمنزلة المحامي يدافع عن حقوق قومه ، والصحافي ينشر أخبارهم في البلاد ، والترجمان يشرح لهما مبادىء السير قدما إلى الأمام في شيء من الحزم والنشاط ، والتيقظ والحذر .

وإذا ما علمنا بان الشاعر العربي في مختلف العصور هو الذي يوكل إليه إثارة الحمية في طبقات الشعب ، وايقاظ الإحساس في الأوساط البيئية حتى تتكتل ، وتتحد ، وتتعاون على دفع الخطر ، ودرء الأهوال ، والوقوف صفا واحدا حائلا دون تسرب قوى الشر والطغيان والاخطار والمفاسد .

إذا ما علمنا كل هذا سهل علينا أن ندرك الغرض الذي دعا الأمير إلى تعاطي مثل هذا النوع من الشعر الحماسي في حروبه التحريرية وأن نعرف سلفا بانه جزء لا يتجزأ من كفاحه الشريف ، ونضاله المستميت ، وجهاده المقدس ، بالحديد والنار .

ذلك أنه أدرك بثاقب بصيرتـه ، وعقله الحكيم ، بان الشعب ينقـاد إلى حكيم القول ، وأصدق العبارة ، وأنجع الكلام ، أكثر ممـا ينقـاد إلى العصـا والسيف .

ولذلك نراه يحرص كل الحرص في أثنـاء حروبـه على ألا يترك الفرصة تفوت عندمـا تسنح له ، فيتوجه إلى شعبه الوفي بقصيد بليغ من روائع الشعر العربي في الحماسة بالنسبة لذلك العصر ، وفي تلك البيئة وفي مثل ذلك الوطن . وقد افتتح عهد القريض الحمـاسي بمقصورته الكبرى التي نظمهـا عقب معركـة خنق النطـاح الأولى بأرباض وهران وقال فيها :

وإنا بنو الحرب العوان بها لنـا سرور إذا قامت وشانئنا عـوى

شعره الحمـاسي :

ويهمنـا كثيرا هنـا أن نتعرض إلى قصائده الحربية بالخصوص لأن لهـا مساسا قويـا بشخصيته : واتصالا متينـا بمواقفه العظيمـة ، وانسيانيته الكريمـة ، وشهرتـه الفائقـة في اقتياد الشعب ومصاولة العدوان .

فاذا ما قال في ابتداء ملـكه يفتخر :

فكم من مفازات يضل بهـا القطـا
قطعت بها والذئب من هولها عوى
فان شئت علمـا تلقني خير عـالم
وفي الروع أخباري غدت توهن القوى
وكم هـامة ذاك النهـار قـددتهـا
بحد حسـامي والقنا طعنـة شوى ..
شـددت عليهـم شـدة هـاشمية
وقد وردوا ورد المنايا على الغوى ..

فلكونه يعلم أن عروس الملك لم تخطبه إلا أنه أهل لهب يقودها إلى الامام غير مبال بأيّ كان من العوارض .

وكيف لا ! وهو القائل :

وإنا بنو الحرب العوان بها لنا	سرور إذا قامت وشانئنا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتي	كفجأة موسى بالنبوة في طوى
وقد علمتني خير كفء لوصلها	وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرا لدى تبرجت	ولي اذعنت والمعتدي بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية	وأسقيت ظاميها الهداية فارتوى
واني لأرجو أن أكون انا الذي	بين الدياجي بالسنا بعد ما اوى

والحقيقة ان اعتداد الأمير بنفسه كان كبيرا جدا حتى ليخال المرء الذي لا يعرف عن سيرته شيئا أنه من قبيل المبالغة ، إلا أنه صادق في الواقع فيما يدعي ، ومحق فيما يقول ، ومعاركه الحربية التحريرية طيلة سبعة عشر عاما خير شاهد على ذلك .

وأعتقد أن هذا الاعتداد الشديد الذي يظهره في حياته والذي امتاز به عن غيره ، هو الذي اعانه على مواجهة تلك الحروب الطاحنة ، والأهوال والأخطار مدة كفاحه الذي لم يتخلله ادنى راحة أو فتور .

والاعتداد بالنفس من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الامام بشرط أن يصاحب ذلك نوع من الحكمة التي تكيف الانسان لتجعل منه عظيما بحق يستحق لقب الزعامة بنوعيها : الحسي ، والمعنوي .

ومن غير شك ان كل هذا توفر لدى الأمير ، واكتمل . ولنسمع اليه كيف يقول مفتخرا :

لنا في كل مكرمة مجال — ومن فوق السحاب لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول — وخضنا أبحرا ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزا — فحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لما — ينادي المستغيث الا تعالوا ؛
ولفظ الناس ليس له مسمى — سوانا ، والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر — ومصر ، هل بهذا ما يقال ؟
رفعنا ثوبنا عن كل لؤم — واقوالي تصدقها الفعال

وهكذا لم يقنع بكل هذا فنادى في الناس جميعا ليسألوا عنه غيره : وخصوصا الفرنسيين كي يتحققوا فيما قاله ، ويعرفوا أنه الحقيقة بعينها . فقال :

سلوا عنا الفرنسيس يخبروكم — وبصدق إذا حكوا منهم مقال
فكم لي فيهم من يوم حرب — به افتخر الزمان ولا يزال

ولم يفتأ يفاخر بنفسه ، ويعتد بشجاعته وإقدامه حتى عندما يخاطب زوجه الغضوب وهو يردد :

أمير إذا ما كان جيشي مقبلا — وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخليل إني لأول — وإن جال أصحابي فاني لها تالي
أدافع عنهم ما يخافون من ردى
فيشكر كل الخلق من حسن افعالي
وأورد آيات الطعان صحيحة — وأصدرها بالرمي تمثال غربال

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي

وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وبي تتقي يوم الطعان فوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا تشتكي خيلي الجراح تحمحما أقول لها صبرا كصبري وإجمالي
وأبذل يوم الروع نفسا كريمة على أنها في السلم أغلى من الغالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه على ضامر الجنبين معتدل عالي
سلي البيد عني والمفاوز والربى وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي
وعني سلي جنس الفرنسيس تعلمي بان (مناياهم) بسيفي وعسالي

فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي

« أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي»

أجل ! إلى هذا الحد يعتد الأمير بنفسه ، وإلى هذه الدرجة يعلو بنفسه حتى يجعل منها ، مجنا يحتمي به فوارسه ، ويسكن تحته جيشه ، ويلوذ به أبطاله .

إنها لشجاعة اخرى ، وبطولة كبيرة هذه التي أصبح صاحبها يهاب وهو تحت الثرى . وإلى جانب هذا فهي أمر واقع عندما يحدثنا التاريخ بأن الأمير أصيب فرسه بثماني رصاصات ، وسقط بالتاسعة وهو في الخط الامامي في (واقعة خنق النطاح الاولى) ، وان ثيابه كلها تقطعت وخربها الرصاص ، وان أربعة افراس كاملة تصاب بالموت في واقعة رأس العيون فيستبدل غيرها ليواصل العمل في المعركة . وهكذا في المقطع وتافنا وتلمسان والغزوات وغيرها .

وإذا كان اعتداده بنفسه قد بلغ هذه الدرجة ، فان اعتداده باصحابه ، وافتخاره بهم ليس بأقل من هذا . وهو دليل آخر

على صدق الأمير فيما يقول ؛ حيث لم يحتكر ذلك لنفسه فحسب . وهو ضمان من جهة أخرى لقيمة ذكراه ، وسمو تفكيره ، وعلو مقاصده الشريفة ؛ لانه بهذا الاعتراف الجميل منه لأولئك الابطال المغاور ، وضعهم في مأمن من التزعزع .

يقول الأمير في اصحابه هؤلاء :

إن غيرهم بالمال شح وما سخا — جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم — في حب مالكنا العظيم الاجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم — يوم الكريهة ، نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى — الحاملون لكل ما لم يحمل
إن نال غيرهم اللذائذ مسرفا — هم يبتغون قراع كتب الجحفل

وإذا كان الأمير قد كان ذلك منه « وصفا » لا عملا ، فان جيش الاحتلال قد كان ذلك منه « عمليا » ؛ حيث انه في احدى الوقائع حشر الأهالي العزل في المغاور وسد مدخلها بالنيران حتى ماتوا جميعا مختنقين بالدخان ، واكلتهم النيران طعمة مستساغة ، كما وقع ذلك عام (1845م) لقبيلة من (أولاد سيدي يحيى) بالصحراء . حيث حاصر أهلها (كافينياك) في غار يدعى : « غار العقبة البيضاء » . وكانو (500) وقيل (7000) شخصا ، فاحرقهم جميعا بنفس الطريقة الآنفة الذكر .

نعم ! يعيب ذاك عن الأمير من لم يعلم هذا واكثر من هذا ، أما من اطلع عليه فلا يلومه في قوله يصف اصحابه :

وألذ شيء عندهم لحم العدا — ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق — رغما على الاعداء بغير تهول
لا يعرف الشكوى صغير منهم — أبدا ولا البلوى إذا ما يصطلي

ولا مراء في أن مثل هؤلاء الاصحاب لا بد أن يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام لا يستهان بهما ، ولا شك أيضا أن يكونوا قد ادوا خدمات جليلة للوطن ، إلى جانب كونهم سواعد الأمير الميامين ، وفرسانه المغاوير .

أجل ! بهذا يحدثنا عنهم الأمير عبد القادر قائلا :

ما منهم الا شجاع قارع	أو بارع في كل شيء مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا	من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا	أقوى العداة بكثرة وتمول
كم صابروا كم كابروا كم غادروا	أقوى أعاديهم كعصف مؤكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلدوا	للنائبات بصارم وبمقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا	من جيش كفر شبه موج يعتلي
كم ثبتوا كم بتتوا كم شتتوا	شمل الكوافر باقتحام الجحفل
كم ادلجوا كم ازعجوا كم اسرجوا	بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتوعدوا	تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم	عند الصباح له مشوا بتهلل
فدماؤهم مسفوحة وسيوفهم	ممسوحة بثياب كل مجندل
لايحزنون لهالك بل عندهم	موت الشهادة غبطة المتوسل
ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة	والموت عندهم بموت الهمل

وهنا لا بأس ان نقف قليلا لنذكر ان الأمير في مواقفه هذه جاد غير هازل ، صادق غير مجازف. وهذا على عكس غيره من الشعراء بصفة عامة الذين يطرون في المديح الى حد الكذب ، ويغرقون في الفخر الى درجة التدجيل .

وميزة الصدق في الاقوال قليلة عند الانسان في مثل هذه المواطن ، ومع ذلك فإن الأمير كان فيها الصادق الأمين ، والمخلص الوفي . وكيف لا ! وهو القائل :

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم (وأقوالي تصدقها الفعال)

ومرة اخرى نلمس صدقه في أقواله ، وذلك عندما نصب حكما في فصل قضية تفضيل البدو على الحضر ، اذ يقول :

ياعاذرا لامرىء قدهام في الحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر

لاتذممن بيوتا خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني

لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

حقا ان الجهل عظيم الضرر ، والا فكيف لا تكون البادية خيرا من الحاضرة مادام سكانها في خير مستمر ، وعافية دائمة . هم اصحاب الكلمة في اوطانهم بعيدين عن كل خطر وبلاء بما توفر لديهم من الهواء الطلق ، والكرم الحاتمي ، والخلق الرفيع ، مع ما يصاحب هذا من القوة الجسمية التي تجعلهم دائما على قدم الاستعداد لدفع كل الاخطار ، وصد كل الهجومات ، بسيوفهم البتارة ، وحميتهم المتقدة ، وسفائنهم البرية .

يقول الأمير :

سفائن البر بل أنجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر

لنا المهارى وما للريح سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر

فخيلنا دائما للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا احدا واي عيش لمن قد بات في خفر؟

لانحمل الضيم ممن جار نتركه وارضه ، وجميع العز في السفر
وان اساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضر ولا ضـرر
نبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ما له ملجا ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر

ومهما يكن عدم مشاطرتنا للامير في جعله كل العز والشرف في السفر ، لان صاحبه يفقد الحياة الرتيبة التي تتطلبها الحاضرة ، والواقع البشري ايضا ، ولأن الاستقرار الانساني يجب ان تتوفر له عوامل الاقـامة حتى يتجه الانسان الى اداء رسالته في اي وجهة كانت مهمـا يكن ذلك ، فاننـا نوافقه كل الموافقة ونشاطره في قولـه :

ما في البداوة من عيب تذم به الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقسوم على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن اطول خلق الله في العمر

بقيـة الأغراض الأخرى :

واذا ما تجاوزنـا اشعاره الحربية والفخريـة الى شعره الغزلي نجد انه متمسك بخلة الصدق ايضا كما نعثر على ذلك في شعره الصوفي .

يقول متغزلا بزوجه خديجة بنت عمه علي بن ابي طالب :

أقاسي الحب من قاسي الفـؤاد وارعـاه ولا يرعى ودادي
اريـد حيـاتها وتريـد قتلـي بهجر ، أو بصد ، او بعـاد
وابكيها ، فتضحك ملء فيهـا واسهر ، وهي في طيب الرقاد

هكذا يستسلم ، وهو القائد الحربي ، والبطل العسكري ، والزعيم السياسي ، الى هذا الاباء والشمم اللذين تظهرهما معشوقته وتصر على تنفيذهما وتطبيقهما عليه .

فهل حرك ساكنا ، ابدا ! لماذا ؟ الجواب عند الامير نفسه الذي تملكه العجب بدوره إزاء هذا الواقع ، والظاهرة العجيبة . يقول :

ومن عجب تخاف الاسد بطشي ويمنعني غزال عن مرادي
وماذا غير ان له جمالا تملك مهجتي ملك السواد
وسلطان الجمال له اعتزاز على ذي الخيل والرجل الجواد
وهذا العقل مغتفر وزين اذا يوما أبيت على ميعاد

ولئن كان الناس يتهافتون على عالم المادة متسابقين الى كنوز الذهب والفضة بكل الوسائل الشرعية وغيرها ، في شيء من الحزم والجد ، فان الامير يكفيه ذخرا وزادا الحضوة ببنت عمه :

اذا ما الناس ترغب في كنوز فبنت العم مكتنزي وزادي

وبالوقوف قليلا عند هذا الحد نستبين من خلال شعر الأمير ان اهالي البيئة في عصره ، وجمهور الشعب يحبون الجمال ، ويعشقون مظاهره . وهو دليل على صفاء الذهن ، و خصب الذاكرة ونباهة العقل ، ووفرة الخيال ، ودقة الفطنة .

وهذا يجر إلى اعتبار رقي البيئة ، وقبولها للتطور في صورة وجود عوامل الرقي ووسائل التحضر .

ومعنى هذا أيضا أن المجتمع الجزائري عريق في الحضارة منذ القدم . ذلك أن ظاهرة عشق الجمال ، وفشوها في أمة ،

مـا ، معناه ليونـة الطباع في ذلك الانسان ، وليونـة الطباع منشؤهـا من تهذيب الافكار ، وتهذيب الافكار وليد رقي العقل الباطني . ورقي العقل الباطني يحفز صاحبه إلى البحث والتنقيب عن أسرار الكون ، ومقومـات الطبيعة .

ولصحة ما نقول في نضوج الشعب الجزائري وتحفزه إلى الامـام عندمـا يمنح مسيرين حكمـاء نعود إلى فترة حكم الأمير عبد القـادر التي مرت بنـا فيمـا مضى من الكتاب ، كي نتـأكد إلى أين ارتقى في ظرف لم يتجاوز السبعة عشر عـاما ، مر معظمهـا في الكفـاح الحربي التحريري .

ومع هذا فقد حقق الأمير عبد القـادر للشعب الجزائري ما لم يتوفر لفرنسـا نفسهـا في ذلك الوقت ، ولا حتى لبقية الأمم الاخرى غيرهـا .

ومـا حققه الأمير عبد القـادر للشعب الجزائري غير ممكن أن يحققه لولا أن هذا الشعب كان قابلا للتطور ، مستعدا للعمل المتواصل في سبيل حيـاة فاضلة ، ومستقبل زاهر ، وأصبح يدرك معنى الحيـاة في ظل الحرية الكاملـة ، والاستقلال التـام ، تحت رايـة الحكومـة الوطنيـة الشعبيـة . ولعل تجربـة البنـاء الرائدة التي حققهـا بعد تحقيق الاستقلال في أقـل من عقدين ، خير دليل على مدى تحفزه للعمـل .

ونعود إلى الجمـال لنذكر أن دفـاع الأمير عنه أمر لا يقدر ، حتى أنه شنع كثيرا بأولئك الذين يريدون تشويه الخدود بالموسى بواسطة الوشم فقـال !

أقول لقوم لا تفيد نصيحتي لديهم وإن أبديت كل الادلة
ألا فاتركوا ورد الخدود وشأنه فتخديدكم في الخد أقبح فعلة

أيعمد ذو لب لخد مورد ويقسمه عمدا إلى شر قسمة
ومادح شرط الخد بالسود صادق وأما بخد البيض فالقبح عمدتي
أما يختشي من أن يكون مخددا ويدخل فيمن حاز أفظع قولة
فباللحظ لا الموسى تخدش وجنة فيا ويلتا منه ويا طول حسرتي
وإني لأهوى كل خد مورد زها قط لم يمسسه موسى بخدشة

أما شعره الصوفي فتراه فيه ينتقل من عالم البشرية المادية إلى عالم الانسانية الروحية ، متعجبا من أولئك الذين يغذون السير طلبا للكمال وراء المادة .

وكل ما في الأمر أن مكة المكرمة بها كعبتان عنده : كعبة المادة ذات الجدران والاركان وصاحبة الفروض والمناسك ، وكعبة الجناب العالي الذي سما مستغنيا عن الركن والحجر .

يقول الأمير :

فمكة ذي خير البلاد فديتها فما طاولتها الشمس يوما ولا النسر
بها كعبتان كعبة طاف حولها حجيج الملا بل ذاك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجناب الذي سما وجل فلا ركن لديه ولا حجر
وشتان ما بين الحجيجين عندنا فهذا له ملك وهذا له حجر
عجبت لباغي السير للجانب الذي تقدس مما لا يحد له السير
ويلقي إليه نفسه بفنائه بصدق تساوى عنده السر والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعا ويلقى فراتا طاب نهلا فما الفطر

وهكذا لو تتبعنا سائر اغراضه الشعرية بالدرس والتحليل ما وسعنا مجلد ضخم ، زيادة عن كون ذلك يخرجنا عن غرض الكتاب .

فاكتفينا بهذا القدر على أن نعود لدراسة الموضوع بصفة أوسع واشمل إن سمحت الظروف ، وزرقنا التوفيق .

* * *

منتخبات من شعره

قال الأمير مفتخرا في ابتداء ملكه بعد واقعتي خنق النطاح اللتين انتصر فيهما الأمير انتصارا باهرا :

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى   وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعر جيادا جاد بالنفس كرها   وقد أشرفت مما عراها على الثوى
وكم قد جرت طلقا بنا في غياهب   وخاضت بحار الآل من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا   قطعت بها والذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسي ضوا را   وتلك سهام للعدا وقعها شوى
إلى أن بدت نيران اعلامنا لها   وماضوء نيران الكرام له انزوا
ولاسيما أهل السيادة مثلنا   بنو الشرف المحض المصان عن الهوى
فقالت ايا ابن الراشدي لك الهنـا
كفى فاترك التسيار واحمد وجى النوى
الا يا ابن خلاد تطاولت للعلا   وباينت دأواك الكريم وما سوى
فمن أجل ذا قد شد في ربعنا لها   عقالا وناديتا لك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه   فمن حل فيه مثل من حل في طوى
فنحن أكاليل الهداية والعلا   ومن نشر علياهم ذي المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعـا   ولا فخر الا ما لنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادريــة   تسامت وعباسية مجدها احتوى

فـان شئـت علما تلقني خير عـــالم
وفي الروع اخباري غدت توهن القوى

لنا سفن بحر الحديث جرت به وخاضت فطاب الوردممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحي فعج على مجالسنا تشهد لداء العنـا دوا
وان شئت نحوا فانحنا تلق ما له غدا يذعن البصري زهدابمادوى
ونحن سقينا البيض في كل معرك دماءالعداء والسمر اسعرت الجوى
الم تر في خنق النطاح نطاحنـا غداة التقينا كم شجاع لهم لوى
وكم هامة ذاك النهار قددتهـا بحد حسامي والقنا طعنة شوى
وأشقر تحتي كلمته رماحهـم ثمان ولم يشك الجوى بل وما التوى
بيوم قضى نحبا أخي فارتقى إلى جنان له فيها نبي الرضا أوى
فما ارتد من وقع السنان عنانه إلى أن أتاه الفوز راغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى وكم رمية كالنجم من أفقه هوى

ويوم قضى تحتي جـــواد برميـــة
وبي احدقوا لولا أولو الناس والقوى

وأسيافنا قد جردت من جفونها وردت إليها بعد ورد لها روى
ولمـا بدا قرني بيمنـاه حربـه وكفى بها ناربهاالكبش قد شوى
فايقن اني قابض الروح فانكفا يولي قوافاه حسامي مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشميـة وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
نزلت ببرج العين نزلة ضيغـم فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى
ومازلت أرميهم بـكل مهنـد وكل جواد همه الكر لا الشوى
وذا دأبنـا فيـه حيـاة لـديننـا وروح جهاد بعد ما عضه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت له غريس لهافضل أتانا وما انزوى

فكم اضرموا نار الوغى بالظبا معي
وصالوا وجالوا والقلوب له اشتوى

وانا بنو الحرب العوان بها لنا ... سرور اذا قامت وشانئنا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتي ... كفجأة موسى بالنبوة في طوى
وقد علمتني خير كفء لوصلها ... وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرا لدي تبرجت ... ولي أذعنت والمعتدي بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية ... واسقيت ظاميها الهداية فارتوى
واني لأرجو أن أكون أنا الذي ... ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى

وعندما اخلى له الفرنسيون مدينة (تلمسان) بعد عقد الصلح مع بيجو المعروف بمعاهدة (تافنة) قال :

الى الصون مدت تلمسان يداها ... ولبت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الأزرار فلج به ... وبلل فؤادا من زلال نداها
وذا روض خديها تفتق نوره ... فلا ترض من زاهي الرياض عداها
ويا طالما صانت نقاب جمالها ... عداة وهم بين الانام عداها
وكم رائم رام الجمال الذي ترى ... فأرداه منها لحظها ومداها
وحاول لثم الخال من ورد خدها ... فظنت بما يبقى وشط مداها
وكم خاطب لم يدع كفء لها ولم ... يشتم طرقا من وشي ذيل رداها
وآخر لم يعقد عليها بعصمة ... وما مسها مسا أبان رضاها

وقال يفتخر ايضا :

لنا في كل مكرمة مجال ... ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول ... وخضنا ابحرا ولها زجال

اذا عنها توانى الغير عجزا فنحن الراحلون لها عجال
سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث: ألا تعالوا !
ولفظ الناس ليس له مسمى سوانا ، والمنى منا ينال
لنا الفخر العميم بكل عصر ومصر ، هل بهذا ما يقال ؟
رفعنا ثوبنا عن كل لؤم وأقوالي تصدقها الفعال
ولو ندري بماء المزن يزري لكان لنا على الظما احتمال
ذرا ذا المجد حقا قد تعالى وصدقا قد تطاول لا يطال
فلا جزع ولا هلع مشين ومنا الغدر او كذب محال
ونحلم ان جنى السفهاء حقا ومن قبل السؤال لنا نوال
ورثنا سؤددا للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ومنا فوق ذا طابت فعال
وكان لنا دوام الدهر ذكر بذا نطق الكتاب ولا يزال
ومنا لم يزل في كل عصر رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريا حماة الدين دأبهم النضال
لهم لسن العلوم لها احتجاج وبيض ما يثلمها النزال
سلوا عنا الفرنسيس يخبروكم ويصدق اذ حكوا منهم مقال
فكم لي فيهم من يوم حرب به افتخر الزمان ولا يزال

وقال في الفخر أيضا مخاطبا زوجه :

تسائلني أم البنين وانها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لا متهيبا وأحمي نساء الحي في يوم تهوال

يثقن النسا بي حيثما كنت حاضرا ولاتثقن في زوجها ذات خلخال
امير اذا ماكان جيشي مقبلا وموقد نار الحرب اذلم يكن صالي
اذا ما لقيت الخيل إني لاول وان جال أصحابي فاني لها تالي
أدافع عنهم مايخافون من ردى فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
وأورد ايات الطعان صحيحة وأصدرها بالرمي تمثال غربال
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس ابطالي
وبي تتقي يوم الطعان فوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
اذا تشتكي خيلي الجراح تحمحما اقول لها صبرا كصبري واجمالي
وابذل يوم الروع نفسا كريمة على أنها في السلم أغلى من الغالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه على ضامر الجنسين معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والربى وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي
وعني سلي جنس الفرنسيس تعلمي بان مناياهم بسيفي وعسالي
فما همتي الا مقارعة العدا وهزمي لأبطال شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي
أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي

وقال متشوقا الى خليفته وجنوده بجبال جرجرة من بلاد القبائل :

يا ايها الريح الجنوب تحملي مني تحية مغرم وتجملي
وأقري السلام اهيل ودي والثرى من طيب ما حملت ريح قرنفل
حلي خيام بني الكرام وخبري أني أبيت بحرقة وتبلبل
جفني لقد الف السهاد لبينكم فلذا غدا طيب المنام بمعزل

كم ليلة قد بتها متحسرا ... كمبيت ارمد في شقا وتململ
سهران ذو حزن تطاول ليله ... فمتى أرى ليلي بوصل ينجلي ؟
ماذا يضر احبتي لو ارسلوا ... طيف المنام يزورني بتمثل ؟
كل الذي ألقاه في جنب الهوى ... سهل سوى بين الحبيب الافضل
ادي الامانة ياجنوب ، وغايتي ... في جمع شملي يا نسيم الشمأل
اهدي الي من بالرياض حديثهم ... أذكى واحلى من عبير قرنفل
تهدي الي طرائفا وظرائفا ... ولطائفا بتعطر وتعسل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي ... مه! ذامحال ويك عنه تحول
كيف التصبر عنهم وهم هم ... أرباب عهدي بالعقود الكمل
ايحل ريب الدهر ماعقدوا وكم ... حلت عقودي بالمنى المتخيل
تفديهم نفسي وتفدي ارضهم ... ازكى المنازل يا لها من منزل
أفدي اناسا ليس يدعى غيرهم ... حاشا العصابة والطراز الأول
يكفيهم شرفا وفخرا باقيا ... حمل اللواء الهاشمي الاطول
قد خصهم واختصهم واختارهم ... رب الانام لذا بغير تعمل
هم بالمديح احق لكن ربما ... ضاعت حقوق بالعدا والعذل
ان غيرهم بالمال شح وما سخا ... جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم ... في حب مالكنا العظيم الاجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم ... يوم الكريهة ، نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى ... الحاملون لكل ما لم يحمل
ان نال غيرهم اللذائذ مسرفا ... هم يبتغون قراع كتب الجحفل
وألذ شيء عندهم لحم العدا ... ودماؤهم كزلال عذب المهل
النازلون بكل ضنك ضيق ... رغما على الاعدا بغير تهول

لا يعرف الشكوى صغير منهم — أبدا ولا البلوى إذا ما يصطلي
ما منهم إلا شجاع قارع — أو بارع في كل شيء مجمل
كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا — من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا — أقوى العداة بكثرة وتمول
كم صابروا كم كابروا كم غادروا — أقوى أعاديهم كعصف مؤكل
كم جاهدوا كم طاردوا وتجلدوا — للنائبات بصارم وبمقول
كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا — من جيش كفر شبه موج يعتلي
كم ثبتوا كم بتتوا كم شتتوا — شمل الكوافر باقتحام الجحفل
كم أدلجوا كم ازعجوا كم اسرجوا — بتسارع للموت لا بتمهل
كم شردوا كم بددوا وتعودوا — تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى يوم المسرة عندهم — موت الشهادة غبطة المتسول
فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة — ممسوحة بثياب كل مجندل
لايحزنون لهالك بل عندهم — موت الشهادة غبطة المتسول
ماالموت بالبيض الرقاق نقيصة — والنقص عندهم بموت الهمل
يارب ! انك في الجهاد أقمتهم — فبكل خير عنهم فتفضل ...

وعندما التجأ اخوانه سعيد ، ومصطفى ، والحسين ، إلى المغرب الاقصى قال متشوقا اليهم :

ياسواد العين يا روح الجسد — ياربيع القلب يا نعم السند
كنت لي قرة عين وبها — راح قلبي لا بمال وولد
فرمى الدهر بعيني اسهما — مذ نأيتم لا أرى فيها احد
ايروق الطرف شيء بعدكم ؟ — لا ! ورب البيت في هزل وجد
مذ ترحلتم اذبتم مهجتي — ودموعي فائضات من كمد

قد فنى صبري ولم يفن الجوى ما اراه فانيا حتى الأبد

وانذوى ما كان رطبا يانعا ووهى العظم ، ولم يبق الجلد

مذ تواريتم توارى فرحي ما يسر القلب في أخذ ورد

فحياتي بعدكم مذ غبتم من مجاز مرسل عندي يعد

طال ليلي يا أحبائي ولم يعلم الحال سوى الفرد الصمد

كم أنادي حين يبدو صحبه يا (سعيد) هل خيال لي يرد

فترد الروح للجسم ، ويا (مصطفى) هل من دواء للكمد

شاقني حب (حسين) شاقني ما لحكم الله في الخلق مرد

هل يجود الدهر من بعد النوى باقتراب يحيي ميتا لم يعد ؟

فاذا لي تم ما املته عاد إنساني وروحي للجسد

يا ذوي القربى قريبا من أب انتم ذخري وكنزي والسند

لي كونوا مثل ماكان الأولى سلفوا لي أهل سعي لا يرد

فاذا ما أقبلت فلتبذلوا وإذا ما أدبرت فارضوا بود

وعليكم مني سلام صيب طيب يترى إلى غير أمد

يشمل الاحباب أني قد ثووا كل حب لي هو الصنو الاود

وعندما حكمه بعض الأمراء الفرنسيين في الخلاف الناشب بينهم . هل الحضر أفضل من البدو ؟ أجاب وهو بفرنسا بتفضيل البدو ، فقال :

ياعاذرا لامرىءقدهام في الحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر

لا تذمن بيوتا خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم مافي البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

أو كنت اصبحت في الصحراء مرتقيا بساط رمل به الحصباء كالدرر

أوجلت في روضة قد راق منظرها بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيما طاب منتشقا يزيد في الروح لم يسر على قذر
أوكنت في صبح ليل هاج هاتنه علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها سربا من الوحش يرعى اطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حزن في قلب مضنى ولا كد لذي ضجر
نباكر الصيد أحيانا فنبغته فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر
فكم ظلمنا ظليما مع نعامته وإن يكن طائرا في الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدت هوادجنا شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلنا كوى مرقعات باحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها على البعاد وما تنجو من القمر
نروح للحي ليلا بعد ما نزلوا منازلا ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقي الخيام وقد صفت بها فغدت مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الأولى قد مضوا قولا يصدقه نقل وعقل ، وما للحق من غير
(الحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشعر او بيت من الشعر)
أنعامنا إن اتت عند العشي تخل اصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر بل أنجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائما للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا وأي عيش لمن قد بات في خفر؟

لاتحمل الضيم ممن جار نتركه وارضه وجميع العز في السفر
وان أساء علينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضر ولاضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ما له ملجا ولا وزر وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب ما يخالطه ماء ، وليس حليب النوق كالبقر
اموال اعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به إلا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقسوم على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن اطول خلق الله في العمر

ومن شعره في التغزل قوله في زوجته :

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد وارعاه ولا يرعى ودادي
اريد حياتها وتريد قتلي بهجر ، او بصد ، أو بعاد
وابكيها فتضحك ملء فيها واسهر وهي في طيب الرقاد
وتعمى مقلتي ان ما رأتها وعيناها تعمى عن مرادي
وتهجرني بلا ذنب تراه فظلمي قد رأت دون العباد
واشكوها البعاد وليس تصغي الى الشكوى ، وتمكث في ازدياد
وابذل مهجتي في لثم فيها فتمنعني ، وارجع منه صاد
واغتفر العظيم لها ، وتحصي علي الذنب في وقت العداد
واخضع ذلة فتزيد تيها وفي هجري اراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عز وما انفك في ... نسادي
فما في الذل للمحبوب عار سبيل الجد ذل للمراد
رضا المحبوب ليس له عديل بغير الذل ليس بمستفاد

ألا ! من منصفي من ظبي قفر؟ لقد اضحت مراتعه فؤادي
ومن عجب تهاب الاسد بطشي ويمنعني غزال عن مرادي
وماذا غير ان له جمـــالا تملك مهجتي ملك السواد
وسلطان الجمال له اعتزاز على ذي الخيل والرجل الجواد
وهذا الفعل مغتفر وزين اذا يوما ابيت على ميعـاد
فان رضيت علي أرت محنا بشوشا بالملاحة ظل بادي
خليلي ان اتيت الي يومـا بشيرا بالوصال وبالوداد
فنفسي بالبشارة إن ترمها فخذها بالطريف وبالتلاد
إذا ما الناس ترغب في كنوز فبنت العم مكتنزي وزادي .

وقوله فيها أيضا :

أقول لمحجوب تخلف من بعدي عليلا بأوجاع الفراق وبالبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمر من شدة الوجد
وقلت أرى المسكين عذبه النوى وأنحله حقا إلى منتهى الحد
وساءك ماقدنلت من شدة الجوى وقلت فما للشوق أرماك بالجد
وإني وحق الله دائم لوعـة ونار الجوى بين الجوانح في وقد
غريق أسير السقم مكلوم الحشا حريق بنار الهجر والوجد والصد
غريق حريق هل سمعتم بمثل ذا ففي القلب نار والمياه على الخد
حنيني أنيني زفرتي ومضرتي دموعي خضوعي قدأبانوالماعندي
ومن عجب صبري لكل كريهة وحملي لأثقال تجل عن العد
ولست أهاب البيض كلا ولا القنا بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها بيوم يشيب الطفل فيه مع المرد
وأرجاؤه أضحت ظلاما وبرقه سيوفا وأصوات المدافع كالرعد

وقد هالني بل قد أفاض مدامعي وأضنى فوادي بل تعدى عن الحد

فراق الذي أهواه كهلا ويافعا وقلبي خلي من سعاد ومن هند

فحلت محلا لم يكن حل قبلها وهيهات أن يحلل به الغير أو يجدي

وقد عرفتني الشوق من قبل الهوى كذا والبكا ياصاح بالقصر والمد

وقد كلفتني الليل أرعى نجومه إذا نامه المرتاع بالبعد والصد

فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما

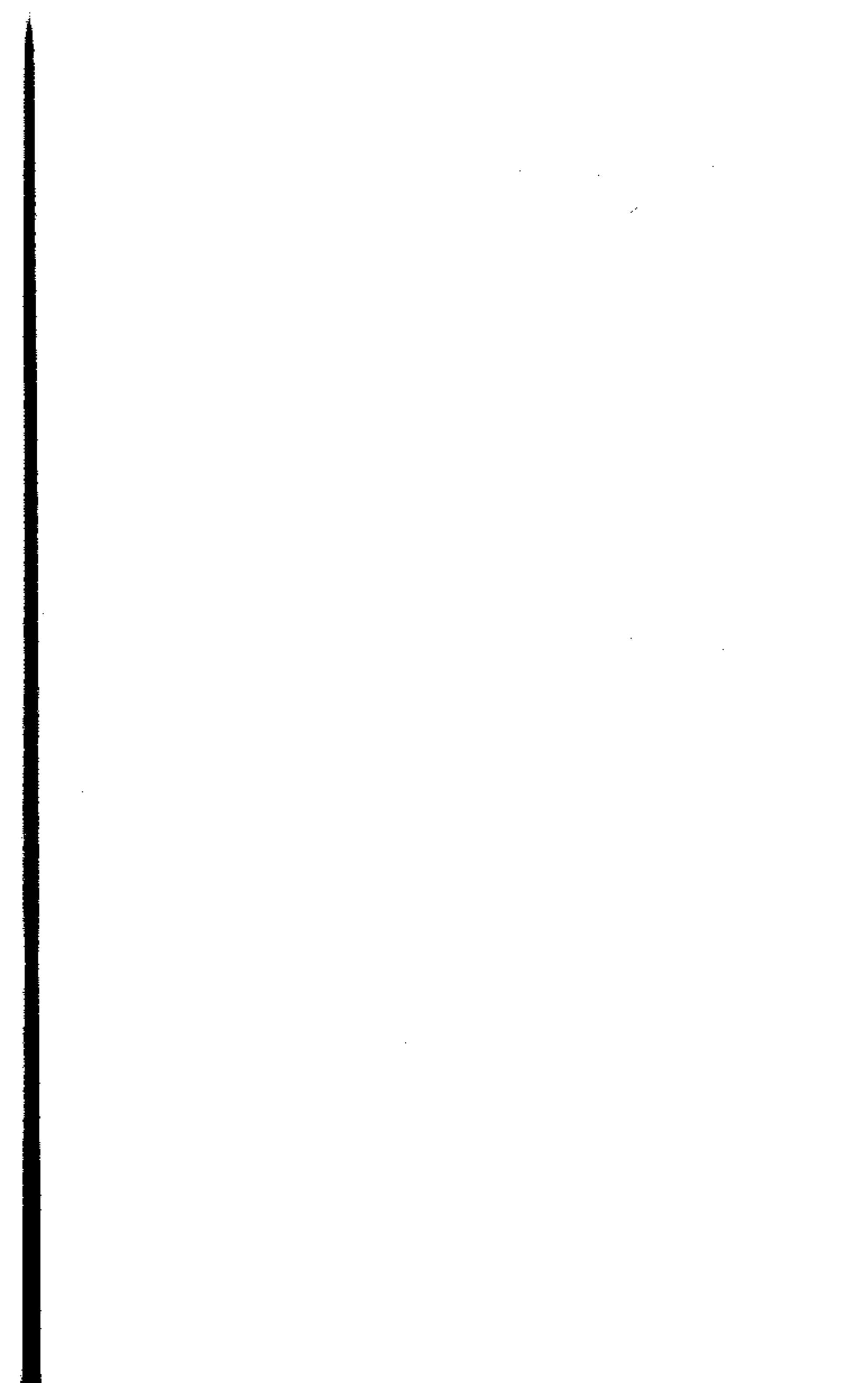
حملت لذاب الصخر من شدة الوجد

ألا هل لهذا البين من آخر فقد تطاول حتى خلت هذا الى الحد؟

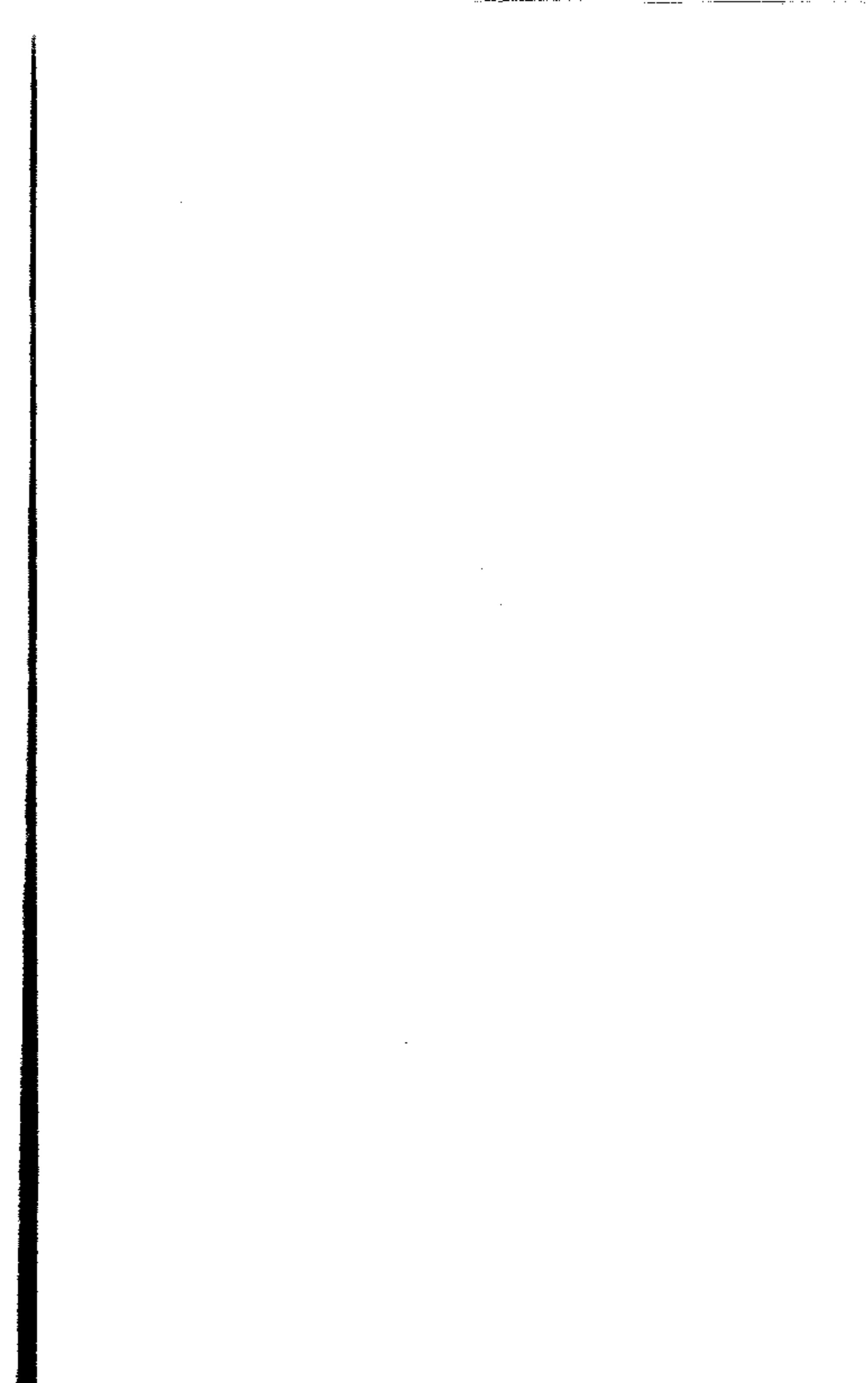
ألا هل يجود الدهر بعد فراقنا فيجمعنا والدهر يجري إلى الضد؟

واشكوك ما قد نلت من الم وما تحمله ضعفي ، وعالجه جهدي

لكي تعلمي أم البنين بأنه فراقك نار واقترابك من خلد



القسم الخامس
الأمير الدبلوماسي



الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة

صلات الأمير عبد القادر بقادة العالم من خلال رسائله

كانت للامير عبد القادر ، صلات دولية واسعة ، مكثفة ومتعددة ومتنوعة مع كثير من ساسة العالم ، وقادته العسكريين ، والسياسيين ، والمفكرين (1) ، وحظي بالتقدير والاكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة ، في الحرب ، والسلم ، وسعة اطلاعه ، وتفهمه للمشاكل ، وعمق ثقافته وتفكيره ، وبعد نظره في القضايا والابعاد السياسية والعسكرية .

ورغم كثرة ما كتب وألف عنه ، فان جوانب كثيرة من نشاطه العسكري وحياته السياسية ، ما تزال مجهولة ، ومـا يزال الباحثون والمنقبون يكتشفون ويزيحون الستار والغطاء عن البعض منها مرة على مرة في أبحاثهم ودراساتهم الجديدة . وذلك

(1) انظر جريدة الجمهورية بتاريخ 10 رجب 1400 الموافق ليوم 24 ماي 1980 ، حيث نشرنا هذه الكلمة بمناسبة الذكرى السابعة والتسعين لوفاته . والجريدة تصدر في مدينة وهران بغرب الجزائر .

لان الأمير كان كثير الاتصال ، والمراسلات ، للدول ، والملوك ، والامراء والحكام ، والرؤساء ، والوزراء ، والعلماء ، والكتاب والسياسيين ، والديبلوماسيين ، سواء خلال معركة الكفاح المسلح بالجزائر (1830—1847م) أو في منفاه بفرنسا ودمشق الشام (1848—1883م) .

* * *

ففي خلال كفاحه ومقاومته للاستعمار الفرنسي بالجزائر . راسل الملك الانجليزي والحكومة الانجليزية عن طريق قناصلها بطنجة ، ومدريد ، وطلب منهما التأييد والمساعدة المادية ، بعد أن شرح لهما شراسة جيش الاحتلال الفرنسي ، وخداع قادته . وعرض على الحكومة الانجليزية ان يمنحها ميناء تنس ، أو غيره ، لاستثماره مقابل حصوله على الاسلحة والذخائر الحربية .

وفعل ذلك مع الحكومة الامريكية ، وراسلها بواسطة قنصلها بطنجة ، وشرح لها خيانة الفرنسيين وعدم وفائهم للعهود ، وطلب منها أن تدعمه وتؤيده بالاسلحة ، مقابل منحها ميناء ، أو منطقة على الساحل لصالح الاسطول البحري الامريكي .

وراسل السلطان العثماني عبد المجيد ، والصدر الاعظم ، بإلحاح من حمدان بن عثمان خوجة ، وشرح لهما وضع البلاد والنكبات المتوالية التي يلحقها جيش الاحتلال الفرنسي بها . ثم طلب منهما مساعدة وتأييد ودعما عسكريا وسياسيا .

وقد نشر الدكتور عبد الجليل التميمي بعض هذه المراسلات (2) وأعاد الدكتور أبو القاسم سعد الله نشر البعض منها كذلك (3) .

(2) الدكتور عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس ، الجزائر ، ليبيا 1816—1871 (تونس ، الدار التونسية للنشر ، مارس 1972) 358 ص .

(3) الدكتور أبو القاسم سعد الله : أول اتصال عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، عدد 13 (الجزائر — جانفي 1976) ص 19—39 .

ويتضح من هذه المراسلات ، تفهم الأمير للصراع الدولي القائم آنذاك بين الدول الاستعمارية خاصة بين فرنسا وانجلترا ، وسعيه للاستفادة منه الى أبعد حد في كفاحه .

وتوسط بعض خلفائه في شرق الجزائر ، وعلى رأسهم : الحسن بن عزوز ومحمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بالحاج ، بينه وبين بايات تونس ، ووزرائها ، وحاولوا أن يحكموا الصلة بينه وبينهم ، لخدمة القضية الوطنية وأرسلوا اليهم باسم الأمير وبأمر منه ، هدايا كثيرة . ونشرنا عن ذلك دراسة خاصة بمجلة الاصالة (4) .

وربط الأمير صلاته بوكيل وجق تونس في جبل طارق ، زاكي كرطوزو اليهودي ، وكلفه بشراء الاسلحة والذخيرة ، وتقديم جوازات سفر لمبعوثيه حتى يتمكنوا من قضاء مآربهم ، ويستكملوا استعلاماتهم . غير أن بايات تونس اختاروا طريق التحالف مع جيش الاحتلال الفرنسي ، ووبخوا وكيلهم زاكي كرطوزو ، وأنبوه على فعله ، وطلبوا منه أن يكف في الحال عن الاتصال بالامير ، لان تونس ، حسب تعبير رسالة الباي اليه ، صديقة لفرنسا ، وتعادي من يعاديها ويحاربها . وقد نشرنا عن ذلك دراسة وثائقية في مجلة الاصالة كذلك (5) .

وراسل الأمير ملكة اسبانيا ، وحكامها العسكريين في مليلة ، وطلب منهم التوسط بينه وبين فرنسا ، وتزويده بالاسلحة والذخائر ،

(4) يحيى بوعزيز : جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية . مجلة الاصالة ، عدد 48 . (الجزائر — أوت 1977) ص 2—42 .

(5) يحيى بوعزيز : مواقف بايات تونس من الأمير عبد القادر وثورته . الأصالة ، عدد 23 (الجزائر — جانفي ، فيفري 1975) ص 23—34 .

بعد أن شرح لهم ما يرتكبه الجيش الفرنسي من أعمال القتل والتخريب وهو موضوع فصلنا هذا الذي نقدمه اليوم للقراء ، كموضوع ذي محتوى جديد بالنسبة لكفاح الأمير عبد القادر في سنواته الأخيرة .

وعندما اشتد الخصام والعداء بين الأمير عبد القادر وسلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن بن هشام راسل الامير علماء مصر ، وشرح لهم خيانة هذا السلطان ، وعدد لهم من جرائمه الامور الستة التالية :

أولا : امداده لجيش الكفار النصارى بالحيوانات للذبح بعد أن حرمهم هو منها مدة ثلاث سنوات .

ثانيا : مصادرته 1500 بندقية انجليزية من عامل له اشتراها من الانجليز للمجاهدين .

ثالثا : مصادرته 400 بذلة من الجوخ اشتراها وكيله (الأمير) للمجاهدين .

رابعا : مصادرته مال أحد رعاياه الذي أوقفه للمجاهدين بالجزائر بدعوى أنه أولى به .

خامسا : منعه بعض رعاياه من التجنيد في صفوف المجاهدين لمحاربة الفرنسيين .

سادسا : اتفاقه مع فرنسا في معاهدة أوت 1844 ، على اعتبار الأمير عبد القادر خارجا عن القانون ، والعمل على قتله ، أو اعتقاله وتسليمه لفرنسا ، أو نفيه عن البلاد (6) .

---

(6) الأمير محمد : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر واخبار الجزائر . (الاسكندرية 1903) ج 1 ، ص 306-313 .

فأجابه الشيخ عليش آنذاك بوجوب محاربة هذا السلطان لانه أصبح مارقا عن الدين ، وشرحنا نحن ذلك في كتابنا عن الامير (7) كما شرحه الأمير محمد في كتابه السابق الذكر (8) .

* * *

وعندما نفي الأمير عبد القادر الى المشرق ، واتخذ دمشق الفيحاء مستقرا له ومقاما ، واصل نشاطه واتصلاته بالقادة والساسة ، في أوروبا وافريقيا ، وآسيا . وقام بعدة رحلات الى باريس ، ولندن ، والآستانة ، والديار المقدسة ، ودعي للمشاركة في حفل تدشين قناة السويس عام 1869 .

وعلى اثر سقوط الامبراطورية الفرنسية الثانية ، ونابليون الثالث وقيام ثورة المجلس البلدي بباريس ، واعلان نظام الجمهورية الفرنسية الثالثة يوم 4 سبتمبر 1870 ، استشار الأمير صديقه جون دوليسيبس وكيل وجق تونس بباريس في تهنئة رجال العهد الجديد ، ولم ينتظر الجواب ، فبعث تهانيه اليهم ونشرت جريدة المبشر رسالته آنذاك (9) .

ولما اندلعت ثورة المقراني والحداد ، وصبايحية الحدود الشرقية عام 1871 ، التحق ولده محيي الدين ، عن غير علم منه ، ورضاه ، بمنطقة الجريد ، واتصل بثوار أولاد خليفة بتبسة ، وعزم على المشاركة في هذه الثورة ، فغضب عليه واستنكر منه ذلك . وراسل قناصل فرنسا ، في دمشق ، وطرابلس ، وتونس .

---

(7) يحيى بوعزيز . بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، ط1 (تونس 1957) ص 156—166 .

(8) الأمير محمد : المصدر نفسه .

(9) يحيى بوعزيز : الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الإفريقي ض الاصالة عدد 25 ، (الجزائر — ماي ، جوان 1975) ص 97—118 .

وراسل وزراء تونس ، وطلب من الجميع أن يعيدوا ابنه الى المشرق ، وتبرأ منه ، ومن عمله ، ووصفه بالمجنون ، والعاق . وكاتب ابن عمه في معسكر ليحث الناس على مقاطعته . ونشرنا عن ذلك دراسة وثائقية في مجلة الاصالة (10) ، وعللنا معارضته هذه وبررناها بالعطف الابوي ، والمصير المجهول ، والضغط الفرنسي بصورة خاصة عليه .

وعلى اثر فشل المقرانيين في ثورتهم ، والتجائهم الى تونس ، أرسلوا وفدا اليه في دمشق ، فتوسط لهم لدى باي تونس ، وطلب منه ومن وزرائه أن يحسنوا استقبالهم ، ويكرموا مثواهم ، وان تعذر ذلك عليهم فليوجهوهم اليه في دمشق ليعالج أمورهم ، وكان عددهم خمسمائة شخص ونيفا . وهذا يسفه ادعاءات الفرنسيين بأنه كان ضد ثوار 1871 ، وحركتهم ، خاصة أولاد مقران . وقد نشرنا عن هذا الموضوع دراسة وثائقية في الثقافة (11).

وتدخل الأمير كذلك لصالح الثائرين : محمد الكبلوتي ابن الطاهر رزقي ، وابن ناصر بن شهرة ، لدى بايات تونس ووزرائها . ونشرنا ذلك في دراستين اثنتين وثائقيتين : واحدة بالاصالة (12) والاخرى بمجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران (13) .

---

(10) وثائق جديدة عن دور محيي الدين بن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 ، وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه . الاصالة عدد 38 (أكتوبر 1976) ص 25—62 .

(11) يحيى بوعزيز : وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 ، الثقافة عدد 39 (الجزائر — يونيو ، يوليو 1977) ص 11—24 .

(12) يحيى بوعزيز : مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871 ، الاصالة عدد 60/61 (سبتمبر 1978) ص 223—233 .

(13) تدخل الأمير عبد القادر لدى بايات تونس ووزرائها لصالح الثائرين الكبلوتي وابن ناصر بن شهرة ، مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران (وهران — 1977—1978) ص 23—32 .

وعندما عزم الفرنسيون على انشاء مشروع البحر الداخلي الافريقي ، في منطقة شطوط الجريد التونسي خلال عقد السبعينات وأوائل الثمانينات ، من القرن الماضي ، وأظهر سكان المنطقة ترددا وامتناعا ، لان البحر المقترح سيغمر قراهم وأراضيهم ، توسط اصحاب المشروع ، وعلى رأسهم دوليسبس بالأمير عبد القادر ، وطلبوا منه أن يكاتب السكان ويقنعهم ، فامتثل وراسلهم بذلك بعد نظره ، وتفهمه ، وادراكه للاهمية الاقتصادية لهذا المشروع الضخم رغم أنه كان بعيدا عن الميدان ، وليس له أي اختصاص في الموضوع .

وقد نشرنا عن هذا الموضوع دراسة وثائقية كذلك بمجلة الاصالة انتقدنا فيها موقف الأمير (14) ، ثم لما تعمقنا في الموضوع بالبحث والدراسة ، اكتشفنا انه على حق ، ونحن الذين أخطأنا في حقه ، فصححنا ذلك في الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامي بتامراست عندما تناولنا هذا الموضوع بالبحث والدراسة ، في اطار البحث عن اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه (15) .

واذا صحت رواية فيليب ديستايور شانتران ، فان الامير كانت له مراسلات كذلك مع الساسة والمسؤولين في كل من روما ، وبرلين ، وفينا ، وسان بطرسبورق (روسيا) ، الى جانب لندرة ، واصطنبول ، وباريس ، وطنجة ، ومدريد ، وواشنطون (16) .

---

(14) يحيى بوعزيز : الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الافريقي الاصالة عدد 25 (ماي — جوان 1975) ص 97—118 .

(15) يحيى بوعزيز . : اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه . (تامنراست — الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامي 28 أوت 7 سبتمبر 1979) ص 30 . مجلة الثقافة عدد 57 (مايو ، يونيو 1980) ص 15—28 . وعدد 58 (يوليو — أوت 1980) ص 45—60 .

(16) Philippe d'Estailleur-Chantraine : *L'Emir magnanisme abdel-Kader le Croyant* (Paris 1959), pp. 146-149 .

وهذا يعني أن هناك رسائل كثيرة في هذه العواصم وغيرها ، تحوي حوادث ، وتفاصيل جديدة ، عن نشاط الأمير وكفاحه السياسي والعسكري . تنتظر من يبحث عنها ويبرزها الى الوجود .

* * *

هكذا كان الأمير عبد القادر ، مصدرا لمراسلات عديدة ، وكثيرة ومكثفة ، الى جهات كثيرة من العالم ، ومع شخصيات مختلفة المشارب والاتجاهات ، وفي مواضيع متنوعة ، ومتباينة ، عسكرية ، وسياسية ، واقتصادية ، وثقافية ، ودينية .

ولا شك أن هذه المراسلات تؤلف في حد ذاتها تراثا هاما لتاريخنا الوطني بجوانبه المختلفة ، وأملنا وطيد في أن يعمل الباحثون على كشف رسائل أخرى وتقارير ، في المستقبل ، تضيف الى تاريخ الأمير جوانب أخرى ، والى تاريخنا الوطني رصيدا آخر من الحقائق والمعلومات .

وتبقى بعد ذلك كلمة أخيرة لا بد منها ، وهي ضرورة اقامة متحف ، ومكتبة تاريخية لتراث الأمير في عاصمته الأولى مدينة معسكر ، تجمع فيهما آلاته وأدواته الحربية وتراثه الثقافي ، وتسعى الدولة لاسترجاع ما هو موجود ما وراء البحر بدور المحفوظات الفرنسية ومتاحفها ، وفي البلدان المجاورة خاصة المغرب الاقصى . ويجري العمل على اعادة طبع كتبه المتداولة ، وطبع المخطوط منها . واذا امكن كذلك ينقل رفاته مرة أخرى الى مدينة معسكر فهي أولى بها من مقبرة العالية .

أوضاع الأمير العسكرية في سنواته الأخيرة

لقد كانت الفترة التي تمتد من نوفمبر 1839 الى ديسمبر 1847 ، حاسمة في تاريخ مقاومة الأمير وكفاحه . فبعد أن تم نقض معاهدة تافنة أواخر عام 1839 . ركز الفرنسيون كل قواتهم وجندوها ضده ، فانتزعوا منه عاصمته معسكر ومعظم مدن الناحية الغربية مثل تلمسان ، وسعيدة وتاكدمت ، واضطر الأمير أن ينسحب الى الجنوب بعاصمته المتنقلة التي تدعى : « بالزمالة » . وفي يوم 16 ماي 1843 ضاعت زمالته هذه في معركة « عين طاقين » بجبال عمور في غيابه هو ، وكان ذلك ضربة قاضية له ولقواته وانصاره (1).

فاضطر أن يلتجيء بمن بقي معه من الأهل والاتباع الى داخل المغرب الاقصى ، وانزلهم في دائرة خاصة بعين زورة في جبال الريف قرب سواحل البحر المتوسط . وكان يأمل أن يحقق ثلاثة أمور :

أولا : الحصول على تأييد ومعونة المغاربة ، للجهاد والمقاومة .

ثانيا : ادخال الاطمئنان على نفوس أتباعه والمؤدين لكفاحه ،

(1) Le colonel Paul Azan : *L'Emiri abd-el-Kader*, 1808-1883. *du fanatisme musulman au patriotisme français.* (Hachette, 1925), pp. 161-196.

ثالثا : تأمين دائرته في زمالته عندما يعود هو للجهاد داخل الجزائر (2) .

ورغم أن الأمير أخضع كل القبائل الخارجة عن طاعة السلطان ، وأعادها الى سلطته ونفوذه ، الا أن السلطان لم يعبأ بذلك ، واعتذر للامير عن عدم استطاعته تقديم العون له بانشغاله بقمع العتاة . فترك الأمير دائرته حيث هي بجبال الريف ، وعاد الى الجزائر لمواصلة المقاومة جنوب عمالة وهران . واتصلت الحكومة الفرنسية بسلطان المغرب في شأنه ، وأجابها بان بلاد الريف خارجة كلها عن طاعته ، وتخضع عمليا للامير عبد القادر ، فكلف الجنرال بيجو كلا من الضابطين : بيدو ، ولاموريسيير ، بالزحف على منطقة الحدود ، ونزلا بقرية لالاّ مغنية في ماي 1844 وانتهكا حرمة الضريح فضج السكان ، وتدخل حاكم وجدة المغربي محمد بن القناوي ، وطلب من القوات الفرنسية أن ترحل عن المكان ، والتحم معها في معركة فهزمته واستولت على ماكان معه من المؤن والذخائر . ولحق بيجو نفسه بالمنطقة في جوان من نفس العام واحتل وجدة في نفس الفترة التي كانت فيها البوارج الفرنسية الحربية تقذف مينائي : طنجة ، والصويرة (موقادور) .

فارتاع السلطان ، واشتد خوفه ، ورضخ لمطالب الفرنسيين ، وأمضى معهم معاهدة مهينة في شهر سبتمبر من نفس العام ، اعترف فيها بأن الأمير عبد القادر خارج عن القانون ، وتعهد بأن يطرده من بلاده أو يعتقله ويسلمه اليهم (3) ، وأثار بموقفه هذا

(2) الأمير محمد ، تحفة الزائر ، ج1 ، ص 279–285 .
(3) Paul Azan : Ibid, pp. 197-200.

شعور الشعب المغربي الشقيق ، وتقدمت قبائل جبال الريف الى الأمير ، وعرضت عليه أن تبايعه سلطانا عليها ، فرفض وقال لها بأنه دخل الى المغرب مستجيرا ، وطالبا العون والمساعدة للجهاد ، وليس للتمرد على السلطان .

وحاول السلطان من جهته أن يستدرجه الى فاس ليعتقله ، فتفطن للمكيدة ، واعتذر عن الذهاب ، وعاد الى داخل الجزائر للمقاومة ، وتقدم حتى وصل الى بلعباس ، وتسارع الناس للدخول في طاعته بعد أن خذلوه ، وعلى رأسهم بنو عامر الذين التحقوا بدائرته في وادي ملوية وراء جبال بني سناسن . وواصل نشاطه الحربي طوال فصلي الشتاء والربيع حتى وصل الى تاكدمت وتيارت . وجدد سلطان المغرب طلبه الى الأمير بمغادرة بلاد المغرب عندما عاد اليها (4) .

وبعد أن عاد بيجو الى الجزائر بقوات ضخمة في اكتوبر 1845 ، عاد الأمير مرة أخرى من الصحراء الى الشمال ، والتحق بفليتة ، وجبال الونشريس ، والظهرة ، واصطدم بالقوات الفرنسية واعوانها عدة مرات في وادي رهيو ، بحوض الشلف ، وفي فليتة. وكاد أن يقع في يده الجنرال المرتد والمتعصب يوسف العنابي.

وفي مطلع عام 1846 التحق بجبال جرجرة ، وجند له خليفته أحمد الطيب بن سالم ، وقادة المقاومة هناك ، خمسة آلاف محارب اكتسح بهم قرى متيجة ، والتيطري . ثم عاد الى جرجرة مرة أخرى ونزل بفيلسة قرب دللس، وخاض معركة وادي يسّر المشهورة ، ثم التحق بجبال عمور ، وأولاد نايل خلال شهر مارس . واصطدم بقوات الجنرال يوسف ، وبعد ذلك انسحب الى أولاد

---

(4) الأمير محمد : نفس المصدر ، ص 286–293 .

سيدي الشيخ بالبيض ، فـأكرموا مثواه ، وطلبوا منه أن يغادرهم حتى لا تقسو السلطات الفرنسية ضدهم (5) . فرثى لحالهم وانسحب من عندهم والتحق بدائرته في واد أسلف بحوض ملوية يوم 18 جويلية 1846 .

وهنـاك علم بأمر الاسرى الفرنسيين الذين أودعهم لدى صهره وخليفته الحاج مصطفى بن التهامي ، فتألم كثيرا لذلك . وكان يأمل أن يبادل بهم بعض الاسرى الجزائريين الذين سيقوا الى جزر سان مارقوريت ، جنوب فرنسا ، وبعضهم من قرابته هو .

ونظرا الى ورود ذكر هؤلاء الاسرى في وثائق الملف ، فاننـا نورد نبذة صغيرة عن قصتهم . ففي يوم 21 سبتمبر 1845 انطلق الأمير من وادي تافنة في اتجاه ميناء الغزوات واصطدم يوم 23 من نفس الشهر بقوات فرنسية كان يقودهـا الضابط الفرنسي مونتانياك(Montagnac)قرب الميناء وقتل له معظم جنوده وأسر من بقي منهم معتصما في ضريح مجاور يدعى ضريح سيدي ابراهيم . ثم توجه بعد ذلك الى بني عامر وصادف يوم 27 من نفس الشهر كتيبة فرنسية قرب عين تيموشنت ، تحمل المؤن والذخائر الحربية وهي في طريقها الى تلمسان . وكان يقودها الضابط مارين (Marin) فاستسلمت له دون قتال لـكون افرادهـا على ما يظهر علموا بمصير اخوانهم في معركـة سيدي ابراهيم قبل ذلك بخمسة أيـام ، ورأوا أن يتجنبوا المقاومـة . وتم ذلك في مكان يدعى سيدي موسى ، وعددهم حسب رواية الأمير محمد حوالي 600 شخص . وتسبب هذا الحادث ، والذي قبله ، في عزل الجنرال فالي ، وتعويضه بالجنرال بيجو الذي عاد الى الجزائر .

---

(5) شارل لنري تشرشل : حيـاة الأمير عبد القادر . ترجمة وتعليق د. أبو القـاسم سعد الله . (تونس – ماي 1974) ص 234 . الامير محمد : نفس المصدر ، ص 297–301 .

أودع الأمير هؤلاء الاسرى لدى خليفته البوحميدى المكلف بحماية الدائرة داخل التراب المغربي ، ثم لما عزم الأمير على الاتجاه الى الصحراء وبلاد القبائل بجرجرة ، كلف صهره الحاج مصطفى ابن التهامي بأمورهم وأمر الدائرة ، وأمره ان يطلب من البوحميدى ان يلحق به الى جرجرة ، فاعتقد البوحميدى ان ذلك من عدم الثقة به ، فأخذ يثير المشاكل والمصاعب للحاج مصطفى ، وأوعز الى بني عامر الموجودين في دائرة الأمير بأن يعودوا الى أوطانهم أو يلتحقوا بسلطان المغرب الاقصى في فاس ، فهرب في ليلة واحدة حوالي مائتين حسب رواية الأمير محمد . فغضب الحاج مصطفى من ذلك ، وطلب من كل شخص يريد مغادرة الدائرة أن يسلم فرسه لغيره ، وهم شديدو الحرص بخيولهم ، فزادهم ذلك نفورا ، ودفعهم الى الهروب من الدائرة .

وظن الحاج مصطفى أن قتل الاسرى الفرنسيين قد يمنع الناس من الفرار من الدائرة الى السلطان ، خاصة بعد أن علم أن السلطان أرسل قوة لتحريرهم وانتزاعهم منه بالقوة ، فاقدم على قتل 287 شخصا منهم ليلة 24 أبريل 1846 وابقى فقط على حياة أحد عشر ضابطا ، وهذه رواية أزان ، أما الأمير محمد فذكر أن عدد الذين قتلوا 187 وليس 287 شخصا .

وكان البوحميدى قبل ذلك راسل الحكومة الفرنسية ، بأمر من الأمير ، في شأنهم وعرض تبادلهم بالاسرى المسلمين الذين نفوا الى جزر سان مارقوريت ، فلم تجبه ولم تعبأ به . وكتب الأمير نفسه رسائل الى الملك الفرنسي والحكومة الفرنسية فلم يتلق أي جواب .

وعندما عاد الأمير من جرجرة ، والتيطري ، وسمع بخبر قتلهم تألم كثيرا وكتب رسالة الى الملك الفرنسي لويس فيليب شرح

له فيها الظروف التي أحاطت بقتلهم ، واتهم ضباط الجيش الفرنسي بأنهم هم الذين تسببوا في ذلك المصير المؤلم ، وعرض من جديد فكرة تحقيق تبادلهم بالاسرى المسلمين ، فلم يتلق أي جواب كذلك . وعندئذ أسرع في اطلاق سراح الضباط الاحد عشر الباقين ، وأرسل معهم قادة بن هاشمي أوصلهم الى مدينة مليلة الاسبانية . فسفروا من هناك الى الغزوات ثم الى وهران . ومن هناك كتبوا شهادات عن حسن معاملة الأمير لهم ولغيرهم بتاريخ 6 أكتوبر 1846 ، وذلك لدحض ما تنشره الصحافة والدوائر الاستعمارية ضده . وذكر أزان أن قادة بن هاشمي سافر معهم الى وهران فاعتقله بيجو ليترجم له رسائل الأمير التي حملها اليه .

وكان من المفروض أن تراعي فرنسا هذا الموقف الانساني من الامير ، وتستغله لمحاولة تحقيق سلم مشرفة ، ولكنها أعرضت عنه تماما وتجاهلته ، وعملت على حث سلطان المغرب الاقصى ضده ، فجدد طلبه له بالخروج طوعا من بلاده ، أو تسليم نفسه اليه ، والا فانه سيستعمل القوة ضده ، فراسله الأمير وبصره بمغبة الأمر . فلم يرتدع ولم يلن جانبه ، بل تمادى في غيه ، وعندئذ قرر الأمير ورفاقه أن يبقوا حيث هم في أماكنهم من بلاد الريف ، ويدافعوا عن حوزتهم وشرفهم بأي ثمن ، وأجاز له علماء الأزهر ، وعلى رأسهم الشيخ عليش ، أن يقاتله ويحاربه ، لانه مرق عن الدين ، كما أشرنا الى ذلك سابقا .

وفي مطلع عام 1847 بدأت الصعوبات تشتد ، وتتكاثر ، وتتعاظم على الأمير ورفاقه في دائرتهم ، وبات واضحا أن مقاومتهم تتعرض للتقلص والاختناق ، بعد أن حوصروا من كل جانب . فخليفة الأمير على ولاية برج حمزة بجرجرة ، استسلم للفرنسيين في سور الغزلان خلال شهر فيفري ، ورحلو الى المشرق كما رغب . والجنرال بيجو رحل عن الجزائر في شهر ماي ، وعوض بالدوق

دومال ابن الملك الفرنسي ، الذي عين الضابط لاموريسيير حاكما على منطقة وهران وجهز له قوات كبيرة لمحاربة الأمير . وسلطان المغرب الاقصى ركب رأسه وحرض ضده زعيم الاحلاف الشيخ بوزيان ، وزعماء بني سناسن ، وأنقاد . وجهز لقائده باللاحمر جيشا كبيرا ، وكلفه بمهاجمة دائرته الكائنة بحوض ملوية بين بني توزين ، والمطالسة ، وقد حاول الأمير أن يبصره ويحذره ، وكاتبه مرتين ، وأوضح له بأنه هو ورفاقه من المجاهدين يتعذر عليهم في الظروف الحالية أن يغادروا مكانهم وينسحبوا الى الصحراء . ولكن باللاحمر أصر على استعمال القوة ، فواجهه الأمير بنفس الاسلوب ، وهزمه شر هزيمة وقتله ، واستولى على كل ما معه من الامتعة والذخائر ، وأسر عائلته وأرسلها معززة الى فاس (7) .

لقد كانت ظروف الأمير عام 1847 معقدة الى أبعد حد ، وتسير من سيّىء الى أسوأ . وكان موقف سلطان المغرب الأقصى المعادي هو أخطر ما تعرض له في هذه المرحلة من حياته . فقد اتفق هذا السلطان مع الضباط الفرنسيين على محاصرته والتضييق عليه حتى يستسلم أو يتم القضاء عليه . فحشد الضابط لاموريسيير حوالي خمسة آلاف رجل عسكرى وركزهم على طول الحدود الجزائرية المغربية . وتكلف حاكم وجدة المغربي على تركيز قوات كبيرة من القوم في الجنوب لتمنعه من الانسحاب الى الصحراء ، وجهزت قوات مغربية أخرى من الغرب قادها ابنا الملك محمد وأحمد في نهاية العام ، وحصر الأمير ودائرته في الوسط ، وأخذ الجميع يتقدمون نحوه وهو يتراجع الى أن أوصلوه الى شاطىء مليلة الاسبانية ، ومصب نهر ملوية . ولم يتورع

Azan : Ibid. pp. 221-225. (7)

السلطان عن ارتكاب مجزرة رهيبة ضد بني عامر حول فاس عندما عزموا على العودة الى الأمير بعد أن انفصلوا عنه في العام الماضي، على اثر مشاكل الاسرى (8) . ولم يتورع القلايعة عن مهاجمة كراع دائرة الأمير وسلبها ونهبها عندما كان غائبا عنها في ممر تازة قرب مكناس ينتظر وصول بني عامر الذين نكب بهم السلطان قبل ان يتمكنوا من الالتحاق به ، ولكن الأمير أعطى لهم درسا قاسيا ، فباغتهم وقتل الكثير منهم وأسر الباقي حتى أعادوا له ما سلبوه ، وكان ذلك درسا لبقية القبائل لتلازم جانب الاحترام له ولدائرته (9) .

اتصالات الأمير باسبانيا

في هذه الظروف الصعبة التي تنقل فيها الأمير بدائرته من عدة أماكن بحثا عن الأمن والاطمئنان والسلامة لها . واستقر بها في زايو قرب قصبة سلوان بعد أن سحبها من كرط قرب جبل القلايعة ، في هذه الظروف حاول الأمير أن يجرى اتصالات مع الحكومة الاسبانية بواسطة حكامها العسكريين بمليلة ، ليفك عنه الحصار ، ويجد مخرجا لحاله وحالها .

وقد أشار فرانسيسكو زافالا الى اتصالات الأمير هذه مع الدولة الاسبانية بواسطة حكامها بمليلة ، وارساله عدة رسائل الى ملكة اسبانيا ، وذكر أنه قدمت له عدة نصائح في اطار الاجابة بأن يسلم نفسه للفرنسيين على أن تتوسط اسبانيا له في ذلك وأكد زفالا بأنه رغم أن اسبانيا حاولت طوال الحرب مع الأمير عبد القادر ، أن تكون صديقة لفرنسا ، وان يكون موقفها نبيلا تجاهها وتجاه المغرب الاقصى ، الا أنها لم تكن تجهل فوائد

---

(8) Azan : pp. 226-228.

(9) Philippe de Cossé Brissac :*Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie*, 1830-1837. (Larose, 1931), pp. 203-212

دعمها للامير عبد القادر الذى اقترح أن يلتجىء اليها ، وهو الاتجاه الذي أعطى له الامل فى أيام سعيدة مستقبلا (10) .

ولكن الوثائق التي بين أيدينا في هذه الدراسة ليس فيها أي شيء مما ذكره . وحاولت ياسين تاسعديت أن تدرس أفكار زافالا في مقالها الذي نشرته أخيرا (11) .

وأشار فيلار الى صلات الأمير بالحكومة الاسبانية ، ولكنه لم يكن على ما يبدو ، على علم بهذه المراسلات ، ولو أنه على اطلاع واسع بكفاح الأمير ومقاومته في هذه الفترة (12).

وتساءل بول أزان عن سبب اقتراب الأمير عبد القادر من مدينة مليلة الاسبانية ، بحوالي ألفي رجل ، واتصاله بحاكمها الاسباني وعقده اجتماعا معه خارج الابواب . واستصعب الاجابة عن الحقيقة ، وافترض أنه لربما لمحاولة السيطرة على المدينة بضربة واحدة ، ولربما ليتخذها صلة الوصل بينه وبين الانجليز في جبل طارق ، ولربما لطلب تأييد اسبانيا له ، ودعمه خاصة وأنه ارسل رسالة الى الملكة ايزابيل الثانية البوربونية (13) .

---

(10) Francisco Zavala : *La bandera espanola en Argelia.* Anales Wstori-cos de la dominacion espanola en Areglia desd 1500 - hasta 1791. (Alger 1885-1886), volmue 11, p. 106.

(11) Yacine Tassadit : *Un journaliste espagnol en Algérie à la fin du XIXe siécle, défenseur de sa communauté.* Revue d'Wistoire Maghrébine, (Tunis, 1980), nt 17t19, pp. 127-131.

(12) **J.B.** Vilar : *Emigracion espagnol à Argelia* (1830-1900), (Madrid, 1975), pages 134-146.

(13) Azan : pp. 228-229 .

أما فيليب دو كوسى بريساك فقد ذكر أن اتصالاته بالحكام الاسبان في مليلة نتج عنها حصوله في المعدل على بعض الخدمات ، مثل الأغذية ، وعدة قناطر من ورق الخرطوش ، من طرف حاكم مليلة العسكري . كما أن عدة بواخر أنجليزية قدمت عدة مرات الى ساحل كبدانة الصحراوي وأنزلت به لصالحه خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر 1847 شحنات من المدافع والبنادق والبطريات ، وبعض قطع مدافع رمي الميدان ، الامر الذى مكنه من مجابهة قوات سلطان المغرب في شهر ديسمبر ، ولعب سان ليجير قرنفل Saint-Léger Grenfell وجون دروموند هاي John Drummond Hay الكاتب الخاص للقنصل البريطاني دورا في هذه المساعدة (14) .

وقد أوضح الملف الذي بين أيدينا أغراض الأمير المختلفة وأهدافه من اتصالاته باسبانيا وحكامها العسكرين بمليلة . وقبل أن ندخل في صلب حوادث هذا الملف ، نستعرض باختصار شديد ما آل اليه أمر الأمير حتى اضطر أن يستسلم لاعدائه ؛ وذلك بسبب الموقف المتعجرف والمتخاذل والخائن ، لسلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن بن هشام .

فبعد حوادث القائد المغربي باللاحمر في شهر جويلية 1847 ، ومجزرة بني عامر بعد ذلك حول فاس نقل دائرته من كرط بالقلايعة ، الى زايو قرب قصبة سلوان ، واقترح عليه زعيم قبائل الاحلاف محمد بن عبد الرحمن أن يبعث معه أحد قادته الى فاس لاستعطاف السلطان ، فقبل الامير على أمل أن يجد الفرصة لينسحب الى الصحراء عبر الاراضي المغربية . فأرسل معه خليفته

Brissac : pp. 212-213. (14)

البوحميدي فلم يلتفت السلطان اليه ، ورفض استقباله ، بل رماه في السجن وأرغمه على شرب السم فمات هناك (15) .

ومع نهاية شهر نوفمبر ، ومطلع ديسمبر كانت الامور قد ساءت الى أقصى حد بين الامير وسلطان المغرب الذي جهز جيشا من حوالي خمسين الفا أسند قيادته الى ابنيه : محمد وأحمد ، وكلفهما بملاحقة الأمير ومهاجمته ، وأمر حاكم وجدة المغربي أن يفرض الحصار من الجنوب حتى يحول دون انسحابه الى الصحراء . واتفق مع الضابط الفرنسي لاموريسيير على أن يتولى محاصرة مضيق قربوش الذي يمكن للامير أن ينسحب منه الى الجنوب كذلك فنفذ الأمر ، وزود قائد وجدة بالذخائر الحربية .

وانطلق جيش السلطان يوم 10 ديسمبر في اتجاه قصبة سلوان وصدرت الاوامر الى كل زعماء القبائل والاعراش ليشاركوا في هذه المطاردة المخزية لبطل المقاومة الجزائرية الذي التجأ اليهم محتميا ومستجيرا ، فكان كما قيل كالمستجير من الرمضاء بالنار .

لقد استعمل الأمير الحيلة لدفع الخطر عنه فطلى جملا بالقطران وحمله بالعلف اليابس ، وأشعل فيه النار فانطلق الى معسكر جيش السلطان وأحدث فوضى كبيرة ، وتشتتت الجنود والمحاربون ، وكاد رجال الأمير أن يظفروا بابني السلطان في خيمتهما . ثم رحل الأمير من زايو بدائرته وتتبع نهر ماوية الى قرب مصبه على البحر ، ثم عبره الى الضفة الشرقية وخاض هو ورفاقه معارك مهولة طوال اليوم مع فلول المغاربة وكثر القتل والطعن ، وفقد الأمير عددا كبيرا من رفاقه وقادته المخلصين ومنهم القائد محمد بن يحيى (16) .

---

(15) الأمير محمد : ص 316–326 .

(16) Azan : pp. 229-246.

ومن وادي عجرود انتقل الأمير الى جبل بني خالد في بني سناسن ، وادرك استحالة مواصلة المقاومة ، وراسل الضابط لاموريسيير وعرض عليه الاستسلام على ان يرحل هو ومن اراد من رفاقه الى الاسكندرية أو عكة، فقبل واتجه الى سيدي ابراهيم وميناء الغزوات ووجد في استقباله الدوق دومال ابن الملك ، والضابطين كافينياك ، ولاموريسيير ، فحيوه وركب البارجة التي أقلته الى طولون بدلا من المشرق (17) .

أوضاع إسبانيا في هذه الفترة

كانت أوضاع اسبانيا في هذه الفترة مضطربة وغير مستقرة من الناحية السياسية ، بسبب الحرب الاهلية الاسرية حول وراثة العرش ، التي كانت تعم كل شبه الجزيرة الايبيرية تقريبا ، بين صف من يدعون « الكريستيانو » وهم أنصار الملكة الطفلة ايزابيل الثانية ، وأمها ماريا كريستانو صاحبة السلطة الفعلية في مدريد ، وبين صف من يدعون « الكارليستاس » وهم انصار عمها كارموس الثائر تقريبا في كل الجهات وخاصة شمال اسبانيا .

وفي جو الحرب الاهلية الاسرية هذه ، أخذت الحكومة الاسبانية تسعى للحصول على الاعتراف بالملكة الطفلة ايزابيل الثانية ، من طرف البلدان الأوروبية . وكانت فرنسا هي الوحيدة التي اعترفت بها باعتبارها من عائلة البوربون الفرنسية . ولكون فرنسا كانت شديدة الحرص على تزويج هذه الملكة الطفلة واختها من أميرين فرنسيين ، وسيتحقق فيما بعد تزويج ايزابيل الثانية من أمير فرنسي .

Brissac : pp. 214-215. (17)

وفي هذه الظروف الصعبة والقاسية باسبانيا استنجد الأمير عبد القادر بها ، وكانت ترغب في أن تتابع سياستها التقليدية الاستعمارية في الشمال الافريقي ، وتدخل في صراع وتنافس استعماري مع فرنسا في اقليم الريف المغربي ، والمنطقة الوهرانية الجزائرية . ولكن هذه الرغبة كانت بمثابة احلام وتمنيات عذرية افلاطونية ؛ لان اسبانيا في هذه الفترة لم تكن تملك القوات العسكرية الكافية ، ولا الارادة السياسية لذلك ؛ بسبب المشاكل التي أشرنا اليها ، وخاصة الحرب الاهلية .

وعلى هذا الاساس اتخذت موقف التردد ، والتلكؤ ، والتماطل ، تجاه الأمير عبد القادر ، ومطالبه وعروضه المغرية . واتبعت أسلوب التسويف ، والتمويه والتهرب ، وتضييع الوقت عليه ، كما سنوضح ذلك عند استعراضنا للوثائق .

ملف الرسائل والوثائق ومحتواه

يشتمل الملف الذي بين ايدينا على ثلاث وعشرين رسالة منها :

12 رسالة للامير عبد القادر .

4 رسائل لوزير الحرب الاسباني الجنرال مانويل دومازاريدو .

3 رسائل لوزير الخارجية الاسباني جواكين فرانسيسكو باشيكو.

1 رسالة واحدة لحاكم مليلة الاسباني ديميتريو ماريا دو بينيطو .

1 رسالة واحدة لقبطان غرناطة العام البارون ديل صولار دو اسبينوزا .

1 رسالة واحدة لانطونيو قابالينو الموظف بوزارة الحرب الاسبانية .

1 جريدة الحوادث اليومية التي حصلت بمنطقة مليلة . فيما بين 14 و 18 جويلية 1847م .

أما رسائل الأمير عبد القادر ، فسبعة منها موجهة الى ملكة اسبانيا ايزابيل الثانية ، وخمسة موجهة الى حاكم مليلة الاسباني دو بينيطو .

– وأما رسائل وزير الحرب الاسباني الاربعة ، فموجهة الى وزير الخارجية باشيكو .

– واما رسائل وزير الخارجية الاسباني الثلاثة ، فواحدة منها موجهة الى سفير اسبانيا في باريس : رامون ماريا دو نارفاييز ، والثانية الى الأمير عبد القادر ، والثالثة الى وزير الحرب الاسباني ، الجنرال مانويل دو مازاريدو .

– وأما رسالة حاكم مليلة فموجهة الى الأمير عبد القادر .

– وأما رسالة قبطان غرناطة العام دو اسبنوزا فموجهة الى وزير الحرب .

– وأما رسالة انطونيو قابالينو فموجهة الى وزير الشؤون الخارجية باشيكو .

– أما الوثيقة الاخيرة فهي جريدة الحوادث اليومية التي حصلت بمنطقة مليلة في الفترة الممتدة من 14 الى 18 جويلية 1847 .

وتواريخ هذه الرسائل تمتد ما بين شهر ابريل وسبتمبر 1847 ، ما عدا ثلاث رسائل لا تاريخ لها ، ولكن محتواها يدل على أنها كتبت في هذه الفترة ، وارقامها هي 9 ، 14 ، 19 .

ومحتوى هذه الرسائل جميعا ، هو رغبة الأمير في توسط اسبانيا بينه وبين فرنسا ، والحصول على مساعدة عسكرية وسياسية ، وموقف الساسة الاسبان من ذلك خاصة وزير الحرب ، والوزير الاول ووزير الخارجية والملكة ، وحاكم مليلة ، وحاكم غرناطة العام .

ويمكن تحديد محتواها على الشكل التالي :

أولا : تحدثت الوثائق عن رغبة الأمير في وساطة اسبانيا بينه وبين فرنسا ، حتى يتمكن من العودة الى الجزائر ، ورغبته في السماح لمبعوثيه بالدخول الى مليلة ليسلموا لحاكمها الاسباني رسائله ويتفاوضوا معه . وفي مقابل ذلك عرض الأمير خدماته على اسبانيا اذا حققت عودته الى بلاده .

وقد الح الأمير كثيرا على هذه الوساطة ، ويظهر أنه كان يعلق عليها آمالا كبيرة . وورد ذلك في الوثائق التالية رقم : 1 و2 و3 و8 و9 و14 و15 و16 و20 و 21 و22 . وعرض حتى تقديم من ينوبه في هذه المفاوضات .

ثانيا : تحدثت عن سعي الأمير للحصول على بعض الاسلحة وقطع الغيار لبعض المدافع ، وخيوط الفتيل ، والقضبان الحديدية ، والسجلات (دفاتر) والفسفور (كبريت) . وورد ذلك في وثائق أرقام : 4 و5 و6 .

ثالثا : تحدثت عن سعي الأمير للحصول على القمح والشعير والخرطال من حاكم مليلة بالتبادل بالتمور ، والاصواف والسمن ، والعسل ، والاغنام ، وغيرها من البضائع التي يحصل عليها من الصحراء . وقد حرص الأمير على الحصول على الحبوب بعد أن اشتد حصار المغاربة له على ما يظهر واقترح على حاكم

مليلة اقامة سوق خاصة لعملية التبادل هذه تحت حراسته وورد ذلك في وثيقتين رقم 4 ورقم 5 .

رابعا : تحدثت عن عداء القبائل المغربية ، وخاصة القلايعة ، للاسبان في مليلة . وورد ذلك في وثيقتين رقم 4 ورقم 12 .

خامسا : تحدثت عن السعي لقضاء مصالح خاصة لحاكم مليلة ومنها قيام الأمير بشراء حصان له . وتمت المراجعة حول هذا الحصان في وثيقتين رقم 9 ورقم 19 .

سادسا : تحدثت عن مواقف الساسة الاسبان من علاقات الأمير عبد القادر ومراسلاته معهم . فحبذها البعض كثيرا والح على ضرورة استغلالها الى ابعد حد لصالح أسبانيا طبعا ، وعلى رأس هؤلاء فرانسيسكو باشيكو الوزير الاول ووزير الخارجية ، وتحذر البعض منها ورأوا ملازمة الحذر حتى لا تستثار فرنسا الصديقة والحليفة ، بل ان البعض منهم طلبوا بطمس هذه القضية ودفنها بصفة نهائية حفاظا على صداقة فرنسا . وعلى رأس هؤلاء ، الجنرال مانويل دو مازاريدو وزير الحرب . وورد ذلك في الوثائق أرقام : 1 و11 و20 و21 و22 .

سابعا : تحدثت عن المصاريف التي انفقت في هذه القضية ، والمراجعات التي تمت في شأنها ، واصدار الملكة أمرا باستقطاعها من ميزانية الجوسسة والاسرار الحكومية . وورد ذلك في وثيقتين رقم 17 و18 .

ثامنا : تحدثت عن محاولة التعرف على ما يجرى بين المغرب وفرنسا من مفاوضات في شأن الأمير . وطلب كل من الأمير وحاكم مليلة أن يزودا بعضهما بآخر الاخبار عنها . وتبودلت بينهما رسائل ومنها وثيقتان رقم 4 و5 .

تاسعا : تحدثت عن سيطرة الأمير على القبائل المغربية المحيطة بمليلة واخضاعها له ، وأهمية ذلك بالنسبة للاسبان . وورد ذلك في الوثائق رقم : 5 و 6 و 12 .

عاشرا : تحدثت عن اقتراب الأمير من مليلة ، ووصفت بدقة اللقاء الذي تم بينه وبين حاكمها ديميتريو دو بينيطو . وورد ذلك في الوثيقة رقم 12 .

* * *

وقد مكنني من هذا الملف الصديق المحترم الاستاذ الدكتور ميكيل دو ايبالزا الاسباني ، بالتعاون مع الاستاذ الدكتور ماريانو أريباس بالو ، المؤرخ الاسباني للمغرب . فأرسل الي النسخ الفوتوغرافية للرسائل المكتوبة بالعربية والفرنسية ، وعددها ستة تحمل الأرقام : 2 و 9 و 13 و 14 و 15 و 16 . وترجم لي باقي الرسائل من الاسبانية الى الفرنسية ، وقمت أنا بترجمتها جميعا الى العربية بالتعاون مع الاستاذ الفاضل الاخ سي الطيب ، وأعدت ترتيبها حسب تواريخها وأحداثها . وأعددت دراسة تمهيدية لها ولحياة الأمير في سنواته الاخيرة وبيبليوغرافية مناسبة له .

ولابد من القول بأن هذا الملف يحمل في طياته أشياء جديدة عن كفاح الأمير ، ستضاف الى مكتبتنا التاريخية ، والى جهود الأمير في سبيل القضية الوطنية الكبرى التي ما انفك أبناؤه وأحفاده وأبناء أحفاده يعملون ويضحون في سبيلها حتى حققوها في ثورة أول نوفمبر الكبرى 1954 — 1962 م .

المدخل الى هذه الوثائق

— **الرسالة الأولى** : موجهة من الأمير عبد القادر الى ملكة اسبانيا ايزابيل الثانية البوربونية ، أوضح فيها أن صاحبة الجلالة على علم بتفاصيل مقاتلته ومقاومته للفرنسيين وأبدى رغبته في : « أن تتدخل حكومة صاحبة الجلالة بنفوذها القوي » بينه وبين

الفرنسيين « من أجل اقامة علاقات السلم » ، وأكد لها بأنها اذا نجحت في اعادته الى مملكته سوف لا ينكر جميلها . ويمكن لها أن تستفيد منه فيما تريد . وطلب في الاخير منها ان تأمر حاكمها بمليلة أن يسمح لمبعوثيه بالدخول اليها لتسليم الرسائل أو للمفاوضات على بعض الامور (1) .

— **الرسالة الثانية** : موجهة من الأمير عبد القادر الى ملكة اسبانيا كذلك . وهي نسخة أصلية من الأمير ، ولا يختلف محتواها عن الرسالة السابقة . ولكن الخلاف في التاريخ فالاولى المترجمة من الاسبانية مؤرخة بيوم 12 جمادى الاولى . والثانية وهي الاصل بالعربية مؤرخة بيوم 16 جمادى الاولى . وقد يكون المترجم الى الاسبانية هو الذي اخطأ في كتابة التاريخ . فتكون حينئذ الرسالة الأولى مترجمة من الثانية (2) .

— **الرسالة الثالثة** : موجهة من الأمير عبد القادر الى ملكة اسبانيا ، ألح فيها عليها بالسعي في الوساطة بينه وبين فرنسا ، وأكد لها تعلقه بها ، هو وكل رفاقه وخلفائه (3) . وقد كتبت بلغة فرنسية ركيكة وضعيفة .

— **الرسالة الرابعة** : موجهة من الجنرال مانويل دو مازاريد ، وزير الحرب الاسباني الى زميله جواكين فرانسيسكو باشيكو ، الوزير الاول ووزير الخارجية الاسباني ، حكى له

---

(1) Archive Historico National. Section de l'Estado (Affaires Etrangères) à Madrid. Le Oajo (dossier) n° 5802, document n° 3, en date de 12 djoumada 1 1263 (28-4-1847).

(2) نفس المصدر ، وثيقة رقم 13 بتاريخ 16 جمادى الأولى 1263 (2 ماي 1847) .

(3) نفس المصدر ، وثيقة رقم 2 ، بدون تاريخ ، وأغلب الظن في جمادى الأولى 1263هـ .

فيهـا ما أمر به المكلف بالقبطانية العامة لغرناطة نقلا عن رسالة حاكم مليلة العسكري ، وهو أنه اتصل يوم 27 أبريل 1847 باشعار من الأمير عبد القادر بواسطـة مغربي ، اقترح عليه فيهـا أن يرسل أحدا من ثقاته الى المكان الذي تم فيه تحرير الاسرى الفرنسيين ، ليتقـابل مع أحـد آغوات عبد القادر المدعو حاج سنيم (4) للتفاوض في موضوع الوساطة بينه وبين الفرنسيين . ولـكن الحاكم العسكري رفض بحزم السمـاح لاي أجنبي في الدخول الى مليلة ومنه هذا المبعوث ، ما لم يكن لديه إذن صريح بذلك من حكومة صاحبـة الجلالـة ، غير أنه قبل أن يتسلم منه برقيـة أو رسالة لتحويلهـا الى الحـكومـة الاسبانية .

وقد أكـد حاكم مليلة ، أنـه بسلوكـه هذا ، تصرف في اطـار أدائـه لواجبه وتطبيقـه لمـا هو مسموح له به في موضوع دخول الاجانب الى مليلة ، وفي اطـار خدمته لفرنسا حليفة اسبانيا . وفي الاخير طلب الحاكم من الوزير أن يخبره بما يراه ضروريـا لتسيير أموره في هذه القضية ، على أمل ان يعود الهدوء الى الجزائر ، والى الأمير الذي أصبح مجمدا ومشلولا لا يقدر أن يقوم بأي عمل ضد المستعمرات الفرنسيـة .

وقد أوضح وزير الحرب في النهاية رغبته في انهـاء الصراع الدامي الذي نسبـه الى روح التعصب والجهل ؛ لصالح دعم التحضر في هذه المنطقـة . ووافق الحاكم العسكري على تصرفه ، وحذره من تقديم أي تعهـد للامير في هذه القضيـة ، وطلب من وزير الخـارجيـة أن يتخذ الترتيبـات اللازمـة في حدود مسؤولياته (5) .

---

(4) هذا الشخص اسمه الحقيقي : قـادة بن هاشمي كما أورده بول أزان في كتابه السابق الذكر ، ص 225 . وسنكتفي بالاشارة اليه هكذا في كل ما يلي .

(5) نفس المصدر ، وثيقة رقم 21 ، وتحمل رقم 14 كذلك بتاريخ 7 ماي 1847 .

ـ **الرسالة الخامسة** : موجهة كذلك من وزير الحرب مازاريدو ، الى وزير الخارجية باشيكو ، ذكر له فيها على لسان حاكم قبطانية غرناطة ، نقلا عن رسالة حاكم مليلة ، بانه رفض يوم 29 أبريل ، استقبال آغا كتائب عبد القادر قادة بن هاشمي داخل مليلية عندما حضر في مهمة ترغيب حكومة صاحبة الجلالة في التوسط لدى فرنسا لصالح الأمير عبد القادر ، وقبل فقط تسلم الرسائل والبرقيات لإبلاغها الى اسبانيا . وذكر له أيضا بأنه حضر اليه اليوم عربي برسالتين في غلاف مكتوب بالفرنسية ، وبورقة صغيرة بالعربية ، وذلك في موضوع طلب الدعم الملكي للامير ، والعمل على ارجاعه الى بلاده بعد عودة السلم . وهو يحول له هذه الرسائل ليتخذ ما يراه ضروريا (6) .

ـ **الرسالة السادسة** : موجهة من باشيكو وزير الخارجية الاسباني الى الامير عبد القادر ، أوضح له فيها بأنه اتصل برسالتيه اللتين وجههما الى الملكة الاسبانية في موضوع الوساطة بتاريخ 12 جمادى الأولى (1263هـ) . وأن الملكة كلفته بابلاغه رغبتها في انهاء الصراع الدامي ، واعطاءها الاوامر الى سفيرها بباريس ليقوم بما يلزم لدى الحكومة الفرنسية ، حتى تهتم بالموضوع . كما طلبت منه ألا يضع هو عراقيل في طريق السلم ، بعد أن أشادت بخصاله وانتصاراته . وأكد له أن صاحبة الجلالة أعطت أوامرها الى حاكم مليلة ليستقبل مبعوثيه ويسمع منهم و يتسلم برقياته ورسائله منهم (7) .

ـ **الرسالة السابعة** : موجهة من فرانسيسكو باشيكو وزير الخارجية ، الى السفير الاسباني في باريس رامون ماريا دونارفايير

---

(6) نفس المصدر ، وثيقة رقم 20 وتحمل رقم 14 كذلك بتاريخ 18 ماي 1847 .

(7) نفس المصدر ، وثيقة رقم 23 ، لا تاريخ لها وأغلب الظن أنهما كتبت في جمادى الأولى 1263 .

ذكر له فيها أنه لا جديد في الشؤون الجارية لهذا البلد . ولكن هناك حدث بمثابة قصة أو رواية يعتقد انه مهم ، ويثير اهتمام السفير نفسه ، وهو أنه تسلم اشعارا من حاكم مليلة العسكري أخبره فيها بأن مبعوثين للامير عبد القادر حضروا الى مليلة بهدف التماس حماية الملكة الاسبانية ، وتوسطها لصالحه . وطلب منه رأيه في ذلك ، وفي كيفية التصرف ، فاجابه الوزير بأن الأمر جد مهم ولا ينبغي اهماله أو رفضه . ثم ان الوزير بعد نصف شهر من ذلك توصل برسالتين مختومتين في غلاف بالفرنسية (8) وعندما فتحهما وجد احداهما بالعربية ، والأخرى بالفرنسية . فترجم الاولى ، وأرسل نسختين منهما الى باريس ، وأكد له أهمية الرسالتين ، وتمنى أن يشاركه في ذلك الرأي . وبرر تلك الاهمية بطموحات اسبانيا ، والفوائد التي ستحصل عليها من الاقاليم الافريقية ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، وكل سواحل البحر المتوسط وتمنى ان تطول حياته وتنتهي المشكلة البرتغالية بما يسر اسبانيا ويشرفها ، ليهتم بوضع أساس متين للسياسة الاسبانية في افريقيا وألح وزير الخارجية على أهمية الاستجابة لرغبة الأمير عبد القادر الذي بامكانه الاحاطة بالجزائر ، وابتلاع المغرب الاقصى ، ومحاولة استمالته وعدم تركه للانجليز وحدهم .

وقد أخبر الوزير سفيره في باريس بأنه كتب للامير رسالة معتبرة ، وطلب منه القدوم الى مليلة ، وأعطى للحاكم الاسباني تعليمات محددة . وألح الوزير على السفير أن يلعب دورا مهما يتسم بالفطنة والمهارة تجاه الحكومة الفرنسية حتى لا يتسرب اليها الشك في تصرفات اسبانيا التي لا يمكن أن تبقى على الحياد . وطلب منه أن يبلغ وزير الخارجية الفرنسي قيزو ، بأن من مصلحة

(8) انظر وثيقة رقم 20 من مشاريدو الى باشيكو .

اسبانيا وضع حد لهذه الحرب من الناحية الانسانية . واذا اتصل بهـا السلطان العربي فستعمـل في هذا الاتجاه ، كمـا طلب منه ان يكاتبه اذا تعرض لأية صعوبـة في مهمته . وختم رسالته بقوله : « اننا في مفاوضات موسعة وستأتي بفوائد جمـة اذا قدناهـا جيدا » (9) .

— **الرسالة الثامنـة** : موجهـة من وزير الخارجيـة باشيكو ، الى وزير الحربية مازاريدو ، يعلمه فيهـا بأنه أرسل له رسالة الملـكة الاسبانية الى الأمير عبد القادر ، وطلب منه تحويلهـا اليه بواسطـة حاكم مليلة باذن منهـا ، والاستمرار في الاتصال بالأمير ، واستقبال مبعوثيه ، وتسلم رسائله ، في الحدود التي لا تعرض مليلة للخطر ، ولا تضر بمصالح فرنسا الجارة والحليفة . وقد بين له فائدة اسبانيا من صداقـة القبائل العربيـة الخاضعـة للامير في المنطقـة . وألح وزير الخـارجيـة على حاكم مليلة أن يتسم بالفطنـة واللباقة في تصرفاته (10) .

— **الرسالة التاسعة** : موجهة من الأمير عبد القادر الى ملـكة اسبانيا وهي رسالة أصلية بنصهـا العربي ، أعلمهـا فيها بأنه اتصل برسالتهـا المكتوبة باللغتين : الفرنسية والاسبانية في ورقة واحدة ، وفهمهـا ، وعلم منها بأنهـا كلفت سفيرهـا بباريس بالاتصال بالحـكومـة الفرنسية للتوسط لفائدته . وأكد لها بأن الناس جميعا ، العرب والنصارى ، يعرفون هذه الصلات بيننـا واذا تم السلم على يدهـا فسيكون جميلها على رؤوسنـا ، « وأن الأمر اليك وبيدك ، وأنت الوكيلـة والجميلة في الامور القليلة والجليلة ، الا ما لا يجوز في شرعنـا فلا نرضوا (كذا) به في أمر ديننـا » ، وذلك مما أخر

---

(9) نفس المصدر ، وثيقة رقم 1 ، بتاريخ 6 جوان 1847 .
(10) نفس المصدر ، وثيقة رقم 22 ، بتاريخ 7 جوان 1847 .

الصلح بينه وبين الفرنسيين ، وقد قال لها بأنهـا اذا رأت من الفائدة أن يرسل مندوبـا من طرفـه ليشترك في المفاوضات فهو على استعداد لذلك شريطـة أن يكون في حمايتهـا ، واذا اكتفت بمندوبيها هي فهو قابل لذلك ولـكل أمر تبرمه ، وذكر بأنه لو وجدت أمة من الأمم ترعى حقه لطلب الاحتكـام اليها لترفع عنه الغبن والقهر ، لان سلطـان المغرب وسلطان فرنسـا تعاونـا معا على محاربته هو ورفاقه . وهو أمر غير شرعي وغير قانوني . والواجب على كل النـاس رفع هذا الغبن والبؤس (11) .

— **الرسالة العاشرة** : موجهـة من الأمير عبد القادر الى ملـكة اسبانيا . وفحواهـا هو نفس فحوى الرسالة السابقة ، ولا تختلف عنها الا في التاريخ فالاولى بتاريخ 2 رجب ، وهذه بتـاريخ 16 رجب 1263 (12) ويبدو أنهـا ترجمت الى الاسبانية من النص العربي للرسالة السابقـة .. أو ان احدا حررهـا للامير بالاسبانية .

— **الرسالـة الحادية عشرة** : موجهـة من الأمير عبد القادر الى حاكم مليلة دو بينيطو يخبره فيها بأنه اتصل برسالته ، ورسالة الملـكة ، ورضي بالاهتمـام الذي توليه له الملـكة ، ويأمل أن تكون قد كلفت سفيرهـا بباريس بالتوسط بينه وبين الحـكومـة الفرنسية ، وألا تكون قد تغافلت أو تهاونت . وذكر له بأن الأخبار التي طلبهـا منه حول سلطان المغرب لا يعرفهـا ، ولـكنـه سمع بأن فارسين مغربيين يوجدان في المعسكر الفرنسي لطلب مساعدتهم لطرده من بلادهم بالقوة . وأجاب عن تساؤل الحاكم حول

---

(11) نفس المصدر ، وثيقة رقم 16 . وهي رسالة الأمير الاصلية بنصهـا العربي . بتـاريخ 2 رجب 1263 (16 جوان 1847) .

(12) نفس المصدر ، وثيقة رقم 8 بتاريخ 16 رجب 1263 (30 جوان 1847)

موقف الفرنسيين فقال : « تيقنوا بأن الفرنسيين يمدون لهم العون والمساعدة » . وطلب الأمير من حاكم مليلة أن يزوده بقطعة غيار لسلاح سماه : كواترو Cuatro بأي سعر كان ، وسجلين كبيرين من حجم بوصة ونصف الى بوصتين ، وقضيب حديدي ذي طول 14 الى 15 قدما ، ونصف طزينة من خيط الفتيل .

وعرض عليه مقابل ذلك أن يزوده بالاغنام السمينة ، والصوف والتمور والزبدة ، والعسل ، على أن يتم ذلك بالتبادل بالقمح والشعير . ويتولى هو بنفسه نقلها الى الميناء الذى أبحر منه الاسرى الفرنسيون . ويضمن له المكان والحراسة الكافية لانشاء سوق لتبادل مثل هذه المنتجات . وعليه فقط أن يخبره باليوم الذى يريده لذلك ، دون أن يساوره أي خوف من جانبه . ووعده بأن يرسل له أحد خلفائه ليتفاوض معه في هذه الأمور وتسويتها . ورجاه بحرارة أن يزوده بما يقدر عليه من الاخبار من أية جهة كانت ، وذكره بأنه الحامي له من الحكومة الفرنسية ، ولن يخسر شيئا من ذلك (13) .

— **الرسالة الثانية عشرة** : عبارة عن رد حاكم مليلة على رسالة الأمير عبد القادر السابقة ، أعلمه فيها بأنه اتصل برده على الرسالة التي أرسلها له مع رسالة الملكة . ولكنه لم يتصل بالرسالة التي وجهها الى الملكة . وأكد له استعداده للقيام بما يرضيه في حدود امكانياته. وأخبره بأنه ليس لديه أي جديد فيما حصل بين الفرنسيين والمغاربة . ولا يمكن له أن يعلمه عن المفاوضات بينهما من أجل طرده بالقوة . ولفت نظره الى ان هذه الامور السياسية مغلقة بستار قوي خاصة بالنسبة لمن هم مثله بعداء

(13) نفس المصدر ، وثيقة رقم 4 وتحمل رقم 1 كذلك بتاريخ 9 أو 10 جويلية 1847 .

عن مكانها . ولكنه قال له بأنه سيعمل جهده ليكون على ما يرام تجاه الحكومتين الاسبانية والفرنسية .

وقد اظهر حاكم مليلة سروره من سيطرة الأمير على المغاربة المجاورين لمليلة مما سيجعلهم يتعقلون ويتصرفون بشكل يخالف سلوكهم السابق ؛ وذكر له بأنه بدون هذا لا يمكن انشاء السوق المتحدث عنها في الرسالة السابقة ، لان ناس القلايعة ليسوا أصحاب ثقة ، ولا بد من أن يقدموا له رهائن ، وهو أعرف بهم منه (الأمير) . وتهدئة منطقتهم تسمح بالتفكير والاشتغال بتأسيس السوق ، غير أنه قبل ذلك يجب معرفة من يستفيد من هذه السوق حتى يحصل الضمان على تنظيم بنود اتفاق المشاركة ؛ ويجب ابعاد نصف طزينة عن هذا البلد ممن سماهم : « الانذال ، والقتالين ، أعضاء قبيلة مارم » الذين حدد أسماءهم في ملاحظة مرفوقة بالرسالة لم نتعرف عليها ، « لانهم اللؤماء ، وقطاع الطرق ، وخبث وعيار حثالة المسلمين » .

طلب حاكم مليلة من الأمير ، فيما اذا رأى أن يرسل أحدا من قادته ، أن يختار له الآغا خالد بن حارسيمور (14) الذي يحترمه كثيرا منذ أن تعرف اليه . كما طلب منه الا يرسل معه الا اثنين أو ثلاثة من الاشخاص ، على أن يكون من ضمنهم المدعو حسينو (14) . لكي يقوم بعمل الترجمة لمعرفته اللغة الفرنسية .

أما قطعة غيار الكواترو فقد أخبره بأنه لا توجد لديه إلا قطعة غيار كبيرة . ولكن لارضائه سوف يطلبها من اسبانيا ؛

(14) اسم هذا الشخص والذي بعده لم نستطع التعرف عليهما . ولكن يظهر ان الأول هو قادة بلهاشمي مفاوض الأمير لدى حاكم مليلية الاسباني .

ويستجلب له من مالقا السجلين الكبيرين ، لان مليلة لا توجد بهـا مطبعة . واما القطعة الحديدية والفتايل فلن يرسلها له الا مع شخص ثقة أو مع من يرسله هو خصيصا لذلك .

وقد اعتذر حاكم مليلة عن تحقيق تبادل منتجات الأمير التي اقترحها بالقمح والخرطال ، لان مليلة لا تتوفر الا على ما يكفي للاستهلاك المحلي . واقترح عليه أن يبيعها بالنقود ، ويشترى بالاخيرة ما يريده في الريف . وفي الاخير طمأنه بأنه سيزوده بالاخبار التي سيحصل عليها ، وبكل ما يراه لازما ، وساراً له ، كبرهان على صداقته واخلاصه في اطار الحماية والمساعدة (15) .

— **الرسالة الثالثة عشرة** : موجهة من الأمير عبد القادر الى حاكم مليلة ، أخبره فيها بأنه اتصل برسالته . وأنه حضر الى هذه الجهة من أجل اقامة السلم بين القبائل المتحاربة ، وطلب منه ألا يندهش وأن يأذن له بالمرور قرب مليلة لاجراء لقاء معه دون خوف . وأعلمه بأن الفرسان الذين اقتربوا من مدينته وأمدوا بعض الناس بالبارود والمدافع ليقذفوها ، فعلوا ذلك دون علمه واذنه ، لان المدفع الذي قذفوا به كان في حوزة بعض القبائل فسلمته اليهم ، واعتذر له عن فعلهم ، وطلب منه المسامحة كما طلب الجواب منه حالما يتصل بجواب من ملكة اسبانيا عن رسالته .

أخبره كذلك بأنه قدم الى هذه الناحية بالصوف ، والتمور ، والأغنام . ويأمل أن يبيعها في المكان الذي أبحر منه الاسرى الفرنسيون ، كما يأمل أن يذهب الى ذلك المكان للمحافظة على النظام . ورجاه أن يسلم الى قادة ابن هاشمي قطعة الغيار

(15) نفس المصدر ، وثيقة رقم 5 . وتحمل رقم 2 كذلك بتاريخ 12 جويلية 1847 .

المشار اليهما ، وبعض خيوط الفتيل ، والفسفور (كبريت) ، وثلاثة أو أربعة من قضبان الحديد . وفي آخر الرسالة وجدت ملاحظة من شخص يدعى أولى ، تمنى فيها أن يكون الحاكم وعائلته في صحة جيدة (16) .

— **الرسالة الرابعة عشرة** : من الأمير عبد القادر الى حاكم مليلة أخبره فيها بأنه توصل برسالته التي ادخلت عليه السرور ، ورجاه أن يقدم لوقت قصير الى قادة بن هاشمي ، وسيعمل جهده ليعود فيما بعد (17) . والحقيقة أن هذه الرسالة رغم قصرها فان غرضها غير مفهوم .

— **الرسالة الخامسة عشرة** : من البارون ديل صولار دو اسبينوزا ، الى مازاريدو وزير الحرب أخبره فيها بأن حاكم مليلة أعلمه يوم 8 من هذا الشهر بأنه اتصل ببرقية صاحبة الجلالة الى الأمير عبد القادر . وأرسل مغربيا ثقة ليبلغها له وينتظر الجواب منه يومين أو ثلاثة . وأعلمه كذلك بأنه وعد المبعوث بعد عودته بمبلغ 640 ريو . وطلب منه أن يخبره هل يعتبر هذا المبلغ مع مبلغ 617 ريو الذي صرف سابقا في نفس القضية ، نفقات من باب الجوسسة والاسرار ؟ وأوضح له أنه في مثل هذه الحالة ينبغي رد المبالغ الى حاكم مليلة تطبيقا للامر الملكي الصادر يوم 21 نوفمبر 1846 (18) .

---

(16) نفس المصدر ، وثيقة رقم 6 . وتحمل رقم 3 كذلك ، لا تاريخ لها ولكن كتبت في جويلية 1847 .

(17) نفس المصدر ، وثيقة رقم 7 . وتحمل رقم 4 كذلك . لا تاريخ لها ولكن كتبت في جويلية 1847 .

(18) نفس المصدر ، وثيقة رقم 18 بتاريخ 13 جويلية 1847 .

— **الرسالة السادسة عشرة** : موجهة من أنطونيو قاباليو ، باسم وزير الحرب ، الى باشيكو وزير الخارجية الاسباني ، أخبره فيها بأن وزير الحرب قال للقبطان العام لغرناطة ، بأن الملكة أخبرت برسالة يوم 13 جويلية ، ويعني بها الرسالة السابقة التي أرسلتموها الى الوزارة . وأخبرتم فيها أنكم سلمتم الى الأمير رسالة الحكومة الاسبانية . أما ما يخص مبلغ 1338 ريو من المصاريف السابقة ، فأكد له أنه يجب اعتبارها مدفوعة من أموال الجوسسة والاسرار ، لان الملكة قررت وبتت ان تتسلموا من أموال الجوسسة كل المصاريف التي تنفقونها في شؤون علاقات حاكم مليلة بالمغاربة . ويجب ان يسجل ذلك بوزارة الشؤون الخارجية في سجل خاص ، لتبلغ بعد ذلك الى الملكة . وفي الاخير ذكر له بأنه ارسل له امرا ملكيا ليؤخذ في الاعتبار ، وأرسل له نسخة من مراسلة القبطان العام لغرناطة (19) .

— **الرسالة السابعة عشرة** : عبارة عن سجل وجريدة للحوادث اليومية التي حصلت بمدينة مليلة وأحوازها ما بين 14 و 18 جويلية 1847 .

— ففي ليلة 14 جويلية حصل هرج في مركز سان جورج بين الحراس ، جرح خلاله أحد الحراس . وهاجم المغاربة مليلة بمدفع مصنوع من شجر التين (20). ثم أرغموا على الفرار تاركين المدفع مكسرا ، وحضر الى مليلية عربيان من طرف الأمير عبد القادر لشراء السكر ، والورق ، والقلل ، والاباريق ، وغيرها ، فاذن لهما ، ورافقهما أحد الحراس حتى انجزوا ما رغبوا .

---

(19) نفس المصدر ، وثيقة رقم 17 وتحمل رقم 25 كذلك . بتاريخ 16 جويلية 1847 .

(20) هذا المدفع هو الذي تحدث عنه الأمير في رسالة الى حاكم مليلية ، واعتذر عن فعل ذلك دون علمه واذنه . وتحمل الرسالة رقم 6 . وهي الوثيقة الثالثة عشرة حسب ترتيبنا .

— وفي يوم 15 عاد العربيان الى مليلة ببغلة ، وحملوا ما اشتروه أمس ، وعادا الى معسكرهما مسرورين بما اشترياه بعد ان استقبلا بحفاوة في منزل الحاكم . وفي الليل هاجمت حراسة المعسكر الخط الخارجي ، وقتل حارس صومعة سان لويس .

— وفي يوم 16 ، خرجت حراسة المعسكر لفتح قناة لمياه وادي الذهب الراكدة المتعفنة الى البحر ، وحاول المغاربة منعهم ، ولكنهم ووجهوا بنيران البنادق الاسبانية فانسحبوا .

— وفي يوم 17 حضر الى مليلة آغا كتائب عبد القادر قادة بن هاشمي حاملا رسالة من الأمير عبد القادر ، الى حاكم المدينة يرجو فيها الاذن له بالاقتراب من المدينة حتى الى معسكر سانتياغو ليتصل بالقبائل وليحقق لقاء مع حاكم المدينة الاسباني . استقبل بن هاشمي بحفاوة في دار الحكومة ، وأخذت كل الاحتياطات في المدينة ، وبعد الظهر أخذ الناس يقتربون من الشاطىء . واستعدت قوات المدينة للطوارىء ، ونزل الحاكم ومن معه من المعاونين الى مخبا الطوارىء .

وعندما وصل الأمير الى معسكر سانتياغو ، كلف أتباعه بابعاد كل المغاربة المتوافدين على المنطقة ، وبعد ذلك أرسل مبعوثا عنه الى المدينة ليخبر المسؤولين بأنه سيقترب بعد غد من مصب الوادي ليلتقي بالحاكم ويتحدث اليه . وتم تبادل الرسائل والاجوبة بواسطة قادة بن هاشمي ، وحصل الاتفاق على اللقاء .

— وفي يوم 18 ، صباحا عاد قادة بن هاشمي الى مليلة ، وسمح له بالدخول ، وتم الاتفاق على الساعة التاسعة صباحا ، كزمن للقاء ، على أن يكون الأمير مصحوبا بستة أو ثمانية أشخاص ، والحاكم الاسباني بنفس العدد كذلك وعندما اقترب الموعد اصطف الجميع ، واحتشدوا على أسطح المنازل ، وفي الشرفات ، والساحات العامة ، والشوارع ، ولما لاحظ

الحاكم كثرة عدد أتباع الأمير الذين يقتربون من المدينة نزل مع معاونيه الى مخبا الطوارىء ، وأرسل الى الأمير يطلب منه إبعاد هذا الحشد ، والا سيتراجع عن رأيه في اللقاء ؛ ويستعمل القوة ، فأسرع الأمير لابعاد تلك الحشود ، وخطب بنفسه فيهم ، وأقنعهم بالهدوء .

وعلى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم 18 جويلية 1847 ، وصل الأمير الى مكان اللقاء صحبة ثمانية فرسان ، وراجلين اثنين . وترجل في الحين ، وتقدم الى الحاكم الاسباني الذى كان في انتظاره بنفس العدد ، قرب مصب الوادي ، وتصافحا ، وتبادلا التحايا ، والاحترام ، وتولى أحد المسلمين من أصل فرنسي الترجمة بينهما خلال ربع ساعة تقريبا .

فأبدى الأمير سعادته بهذا اللقاء ؛ وتمنى أن يساعد على عودته الى وطنه فأجابه الحاكم الاسباني بنفس الاسلوب . وأوضح له سعادته بالتحادث مع بطل عصره . وعندما اقترب موعد افتراقهما طلبت السلطات الاسبانية ابقاء قادة بن هاشمي لديها بضعة أيام حتى تتأكد من عدم عداء سكان الريف لها . فرضي في الحال بذلك .

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، أخذ اتباع عبد القادر طريقهم الى قبيلة بويقوفار ، وانصرف المغاربة كذلك ، ما عدا الحراس من قبيلة بيسيكار الذين بقوا وشرعوا في مهاجمة القلعة والمراكز الاخرى بالبنادق بمجرد ان رأوا الأمير عبد القادر ينسحب ويبتعد ؛ غير أن رماة مليلة ردوا عليهم وأسكتوهم . وفي الليل عادوا الى قذف المدينة والمراكز الأخرى بالبنادق ، والأحجار .

وجاء في آخر الجريدة هذه بأن باخرة ميورقة سان قابريال قدمت من المونيكار بقيادة سباستيان ميليس ، وهي محملة بالمرطبات والفواكـه (22) .

ـ **الرسالـة الثامنة عشرة** : من مازاريدو وزير الحرب الى باشيكو وزير الخارجية ، أخبره فيها بأن قبطـان غرناطة أحاطه علمـا يوم 9 من الشهر الحالي (أوت) بأنه سيرسل اليه رسالة من الأمير عبد القـادر ، الى ملـكة اسبانيا ردا على رسالة سابقـة لها اليه ، وهي مرفقـة بالرسـالة الاصلية للامير الى حاكم مليلية ، وبأربع نسخ لرسالـة أخرى . وقسمـا من جريدة الحوادث لمليلية مع مغاربـة الحدود بين 14 و 19 جويلية الأخير (23) .

ـ **الرسـالة التاسعة عشرة** : من مازاريدو وزير الحرب الى باشيكو وزير الخارجيـة أخبره فيهـا بأن قبطـان غرناطة قال له يوم 11 من هذا الشهر (أوت) بأنه توصل في الحال من قائم مقـام حاكم مليلة يوم 22 من نفس الشهر بخبر يفيد أن المدعو عليًّا كاتب السر حضر الى مايلة في الليلـة السابقـة بصحبة أحد ضباط عبد القـادر ، ليستفسر عن المراسلـة التي ينتظرونهـا من الملـكة الاسبانية حول موضوع المفاوضات مع فرنسـا التي تسمح له بالعودة الى بلاده . ولـكن الحاكم المذكور يتمنى أن يطمس هذا الأمر بأسرع ما يمكن حتى يبتعد الأمير من حول المدينـة باعتباره خطرا عليهـا ، لانه يوجد على بعـد خمس مراحل منهـا مع حوالي خمسـة آلاف رجل مسلح ، زيادة على القبائل والعشائر ، والمدينة لا يوجد بهـا سوى 300 رجل مسلـح ، لا يمكنهم سوى القيـام

(22) نفس المصدر . وثيقة رقم 12 بتاريخ 14 ـ 18 جويلية 1847 .

(23) نفس المصدر . وثيقة رقم 10 وتحمل رقم 14 كذلك ، وهي تشير الى جريدة الحوادث اليومية السابقة لها مباشرة بتاريخ 14 أوت 1847 .

بالخدمات الضرورية للمدينة ، والامراض تهدد بإنقاص عددهم كذلك . ولهذا طلب مني الحاكم أن ادعهما بـ300 رجل آخرين من المسلحين لتعويض ضحايا الاشخاص .

وذكر كذلك بأن الأمير ألح على طلب الحصول على البارود ، وأدوات الحرب الاخرى . ولكن تسليمها له ليس من السياسة في شيء ، ما دامت الحكومة الاسبانية على علاقة حسنة مع فرنسا والمغرب معا ، غير أنه أوضح أهمية وجود علاقات حسنة مع الأمير كذلك .

ولذلك أعطى قبطان غرناطة تعليمات لحاكم مليلية بألا يعطي جوابا سلبيا للامير ، ولا يقدم في نفس الوقت شيئا ، وانما يلهيه بالوعود والتمنيات ، ويماطله الى أن تصله الاوامر والتعليمات المحددة من وزير الحرب . وقد أخبره بأن الملكة على علم بذلك ، وهي التي كلفته بابلاغه هذه الامور ليتصرف بكيفية تؤدي الى طمس هذه القضية تماما (24) .

— **الرسالة العشرون** : موجهة من الأمير عبد القادر الى ملكة اسبانيا . وهي رسالة أصلية أخبرها فيها بأنه اتصل برسالتها التي احاطته علما بتكليف سفيرها بباريس بالاتصال مع الملك الفرنسي للشروع في المفاوضات . وذكر أنه عندما تأخر جوابها عن الموضوع ، كتب لها هذه الرسالة كذلك ليذكرها . وفي نفس الوقت رغب أن يتزود بالبارود والرصاص الاوروبيين اللذين يصلحان له أكثر من البارود والرصاص المصنوعين محليا . وطلب لذلك ان تأمر حاكم مليلية بأن يبيع له ما يحتاجه من ذلك .

---

(24) نفس المصدر . وثيقة رقم 11 وتحمل رقم 14 كذلك ، بتاريخ 14 أوت ، 1847 .

وهو مقابل ذلك على استعداد لتلبية طلب كل ما تريده منه لانه هو ورفاقه كما قال : « فان لنا الوفاء بالعقود . والوقوف عند المواثيق والعهود » (25) .

— **الرسالة الواحدة والعشرون** : من الأمير عبد القادر الى ملكة اسبانيا وهي عين الرسالة السابقة لها مباشرة ، وترجمت فقط الى الاسبانية ، والح فيها على تزويده بالبارود والرصاص الاوروبيين ، وأمر حاكم مليلة بأن يبيعها له (26) .

— **الرسالة الثانية والعشرون** : من الأمير عبد القادر الى حاكم مليلة الاسباني دو بينيطو ، أخبره فيها بأنه سيستقدم له حصانا ، واعتذر بأنه لا يوجد غيره الآن تحت سلطته وتصرفه . ورجاه أن يجتهد في تحقيق فكرة تبادل التمور ، والاصواف ، وغيرها ، بالقمح . وهو ينتظر وصولها من الصحراء ، كما رجاه أن يرسل له الفتايل ، والقطع الحديدية ، وبعض قطع المدافع وغيرها (27) .

— **الرسالة الثالثة والعشرون** : من الأمير الى حاكم مليلة بينيطو كذلك ، أخبره فيها بأنه توصل بمبلغ 40 دورو ، ولكن الحصان الذي كان قد طلبه منه يوجد في مكان يدعى قلعة ليقة ، وهو بعيد عنه ، كان يعسكر فيه خلال فصل الربيع ، ولا يقدر حاليا الذهاب اليه . وفي نفس الوقت فان صاحبه الذي يملكه ، والذي يدعى الحاج سيني يطلب دراهم كثيرة (28) .

---

(25) نفس المصدر . وثيقة رقم 15 وهي بنصها العربي كما هي ، بتاريخ 12 شوال 1263 .

(26) نفس المصدر . وثيقة رقم 14 مكتوبة بلغة فرنسية رديئة وتعتبر ملحقة لرسالة رقم 15 المكتوبة بالعربية ، لا تاريخ لها .

(27) نفس المصدر ، وثيقة رقم 9 ، مكتوبة بنص فرنسي ركيك ، في ورقة واحدة ، لاتاريخ لها .

(28) نفس المصدر . وثيقة رقم 19 بنص فرنسي ركيك كذلك ، لاتاريخ لها .



جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية

لقد كانت ظروف الشرق الجزائري ، بعد حملة الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة عام 1830 ، تختلف عن ظروف الناحية الغربية للبلاد ، بسبب التطورات التي حصلت في كل منهما كنتيجة لتلك الحملة وما انجر عنها من مشاكل وأحداث .

فباي الغرب الجزائري ، أو بايليك وهران ، لم يشارك في مقاومة حملة الاحتلال ، بل انه استسلم للفرنسيين ، وسلم لهم مدينة وهران ، فنفوه الى خارج البلاد ، وانفسح المجال للامير عبد القادر ليبرز كبطل للثورة والمقاومة في هذه المنطقة ، مدعما بالتأييد الشعبي النابع من الاختيار والشورى (1) .

أما باي قسنطينة ، أو بايليك الشرق ، الحاج أحمد باي ، فقد شارك في مقاومة الحملة الفرنسية على رأس حوالي أربعمائة فارس (2) ، وبعد سقوط العاصمة في يد القوات الفرنسية انسحب الى قسنطينة ، واعتصم بها ، وشرع في مقاومة الغزو والتوسع

---

(1) للمزيد من التفاصيل عن مقاومة الأمير عبد القادر . راجع كتابنا : الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري . ط2 (دار الكتاب الجزائري — 1964) ، 196 ص

(2) مذكرات أحمد باي : ترجمة محمد العربي الزبيري ، (الجزائر — 1973 . ص 11 . وقد ذكر أحمد بوضربة في مذكراته بأن عدد الذين شاركوا مع الحاج أحمد باي في مقاومة الحملة الفرنسية ، ألفي رجل ، انظر : نفس المصدر ص 119 .

الاستعماري الفرنسي ، استنادا الى الشرعية التي كانت له خلال العهد التركي . ومن هنا نشأ الصراع والتنافس بينه وبين أمير الغرب الجزائري ، وكان ذلك من أسباب خسارتهما معا .

وكان الأمير عبد القادر أكثر حظا حيث استطاع أن يمد سيطرته ونفوذه على معظم الناحية الغربية من البلاد ، وعلى اجزاء من الوسط جنوب سهل متيجة . وعندما حاول أن يمد سيطرته الى شرق البلاد اصطدم بمقاومة الحاج أحمد باي وانصاره ، واستعمل مختلف الوسائل لمواجهته ، ومنها تحريض الناس ضده كما أورد ذلك الحاج أحمد باي في مذكراته على لسان الأمير قائلا : « واذا لم تفعلوا ذلك فاني أثير عليكم الفرنسيين وفي وقت وجيز ستسحقكم قواتي وقواتهم » (3) .

وكلما سيطر الأمير على منطقة الا وعين عليها واليا من قبله بلقب (الخليفة) . ومن بين ولاياته بشرق البلاد : ولاية مجانة بجبال البيبان غرب سطيف ، وهي الولاية الخامسة ، وولاية الزيبان والصحراء الشرقية ، وعاصمتها بسكرة ، وهي الولاية السادسة التي أدت سيطرته عليها الى حصول الصدام المسلح مع الحاج احمد باي ، واتباعه ، الذين اعتصموا بالواحات الصحراوية ، وجبال الاوراس ، بعد أن فقدوا مدينة قسنطينة عاصمة البايليك عام 1837 .

وكان من الطبيعي أن يحصل هذا الصدام ، لان الحاج أحمد باي ، زيادة عن محاولاته خلافة حكومة الداي حسين الراحلة بدعوى أنه كان نائبا للداي بصورة شرعية ، كان يعتبر بايليك

(3) نفس المصدر ، ص 80 .

الشرق منطقة نفوذه الشرعي التي لا ينبغي لأحد أن يمد يده اليها بأي حال من الاحوال .

ومن بين ولاة الأمير عبد القادر على ولاية الزيبان والصحراء الشرقية : الحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن (4) ومن الذين تعاونوا مع خلفاء الأمير في هذه المنطقة الشرقية : محمد الحسناوي بن بلقاسم شيخ الحنانشة ، وعلي بن سالم الورقلي ، وابراهيم بن عون قائد الناحية الشرقية ، وهم الذين اتخذنا رسائلهم موضوع هذا الفصل ، الى جانب رسائل الأمير ، وذلك للتدليل على مدى اهتمام الأمير بهذه المنطقة وما وراءها ، رغم بعدها عن مركز حكمه ونفوذه ، ورغم الصعوبات الكبيرة التي كان الفرنسيون يضعونها أمامه باعتبارهم يتمركزون في الوسط بينها وبينه .

أ ـ الحسن بن عزوز :

ينتمي الحسن بن عزوز الى اسرة ابن عزوز الدينية ذات الشهرة والمكانة في اقليم الزيبان ، وقدمت من الناحية الغربية ، واستقرت في واحة البرج قرب واحة بسكرة منذ حوالي خمسة أجيال .

وقد نشأ الحسن بن عزوز في واحة طولقة . وعمل خوجة (كاتبا) لدى فرحات بن سعيد بن بوعكاز ، خصم الحاج أحمد باي ، لعدة سنوات . وفي شهر فيفري 1832 كلف هو والخوجة السعيد بن دحمان . بحمل رسالة من فرحات بن سعيد الى الجنرال

(4) الأمير محمد : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر . (الاسكندرية — 1903) ، ص 195 .

روفيقو بالجزائر العاصمة ، يعلمه فيها باستعداده لمساعدته في القضاء على الحاج أحمد باي ، واحتلال عاصمته مدينة قسنطينة . وعندما عادا من مهمتهما في شهر مارس اعترضهما سكان قرية العوفية قرب الحراش ، وسلبوا منهما امتعتهما ، وقتلوا لهما بعض اتباعهما (5) .

بقي الحسن بن عزوز يعمل لدى فرحات بن سعيد عدة سنوات الى أن تم امضاء معاهدة تافنة بين الأمير عبد القادر ، والفرنسيين في نهاية ماي 1837 ، ثم بدأ يغير موقفه واتجاهه ، وعزم على استغلال الظروف لصالحه ، وصادف في هذه الفترة أن الأمير عبد القادر راسل زعماء الاسر الجزائرية الكبيرة في بايليك قسنطينة ، وطلب منهم تأييده والانضواء تحت سلطته وامارته الفتية ، أمثال ابن يلس ، وابن عبد السلام المقراني ، وأحمد الشريف وابن قندوز ، وبوعكاز بن عاشور . فرأى الحسن بن عزوز الفرصة مواتية له ، وتقرب من الخليفة البركاني عامل الأمير ، فعينه شيخا على واحة الزعاطشة بالزيبان قرب بسكرة .

ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد ، فأرسل الى الأمير عبد القادر رسولا سريا يدعى سي السنوسي ، حمله رسالة اليه شرح له فيها ضعف مركز الحاج أحمد ، وطلب منه أن يعينه خليفة له على اقليم الزيبان كله ، على أن يضمن له تقديم مبالغ مالية كبيرة . فقبل الأمير عرضه وسماه خليفة على اقليم الزاب بعد أن عزل منه فرحات بن سعيد وسجنه في تاكدمت . وكلفه

---

(5) Charles Feraud : Le Sahara de Constantine (Alger 1887) p. 264-272 et 295.

وقد أورد فيرو نص رسالة فرحات بن سعيد بالعربية ، وترجمة لها بالفرنسية .

بمحاربة الفرنسيين واعوانهم بالمنطقة خاصة بو عزيز بن قانة ، الذي خلع عليه الفرنسيون منصب شيخ العرب ، وكلفوه بمقاومة الحاج أحمد باي واتباعه رغم أنه كان صهرا له .

كلف الأمير عبد القادر ، عامله البركاني في بوسعادة ، بتنصيب الحسن بن عزوز في منصبه بمدينة المسيلة خلال عام 1838 ، فحمل اليه مدفعين ، ومجموعة من الاسلحة والذخائر ، وزوده بمائة جندي منظم ليساعدوه في تنظيم الدفاع والمقاومة (6) .

وخلال استقراره بالمسيلة ، عمل على تنظيم عمليات حربية على منطقة البيبان ، ومجانة الخاضعة لعائلة المقراني ، ولكنه لم يصب نجاحا . واشتد ضغط ابن قانة واتباعه ضده ، فاستنجد بأحمد بن عمر خليفة الأمير في الحضنة الذي أنجده على رأس حوالي 800 رجل ، وخاضوا جميعا معركة كبيرة في (قلتة حمامة) قرب الحوش في وادي سالون ضد الغرابة الصحراويين اتباع ابن قانة يوم 24 مارس 1840 ، وهزموا فانسحبوا الى المسيلة واجتمعوا هناك بالحاج مصطفى صهر الأمير عبد القادر ، وخليفة مجانة الخروبي .

وقد ذكر فيرو بأن الأمير عبد القادر أفرج على فرحات ابن سعيد في تاكدمت ، وطلب منه أن يذهب ليحل في مكان الحسن بن عزوز على ولاية الزيبان ، ويعمل على التخلص منه ، واعادة سلطته (الأمير) على تلك المناطق ، واستبقى عنده في تاكدمت عائلته حتى يضمن تنفيذ الأمر وتطبيقه ، ويتأكد من اخلاصه في نفس الوقت (7) .

---

(6) نفس المصدر ، ص 295—300 .

(7) نفس المصدر ، ص 305—312 و 323—324 .

وعندما التحق فرحات بن سعيد بالمنطقة ، اتصل بالحاج مصطفى الذي كان يقوم بعمليات عسكرية في أحواز سطيف ، واشترك معهما الحسن بن عزوز ، الذي كان لا يعلم على ما يظهر بواطن الامور ، في دراسة الاوضاع على ضوء هزيمة ربيع عام 1840 وبرز في هذه الفترة كذلك أحمد بالحاج شيخ سيدي عقبة الذي بدأ نجمه يظهر ويلمع في المنطقة ، واتضحت اطماعه في الوصول الى منصب الخليفة على اقليم الزيبان كذلك ، كنتيجة لهزائم الحسن بن عزوز وفرحات بن سعيد . وكانت القضية التي حاولوا التعاون في مواجهتها هي هجمات العزابة الصحراويين ضدهم وضد اتباعهم وسلطتهم .

ونظرا لعدم نجاح الحسن بن عزوز ، في مهمته ، وفشل فرحات بن سعيد في انقاذ الموقف ، فقد أمر الأمير عبد القادر بعزل الحسن بن عزوز من منصبه ، وعوضه بأحمد بلحاج ، الذي يعرف كذلك بمحمد الصغير بن عبد الرحمن . وذلك في ربيع عام 1841 (8) .

وقد تعرض الحسن بن عزوز بعد عزله الى هزيمة أمام قوات الجنرال نيقري Négrier في المسيلة ، فاعتصم بالمناطق الجبلية حولها ، وألحق الفرنسيون مدينة المسيلة بسلطة الخليفة أحمد المقراني بمجانة ، وحاول ابن عزوز عدة مرات أن يستعيد سلطته عليها ، وادعى للناس بأن الأمير عبد القادر قد عفا عنه ، وأنه عن قريب سيعيده الى منصبه . ولكن السكان قبضوا عليه في شهر جويلية 1841 ، وسلموه الى الخليفة المقراني الذي سلمه بدوره الى السلطات الفرنسية التي قادته الى قسنطينة ، واعتقلته هناك بعض

(8) نفس المصدر ، ص 324–327 ،

الوقت ، ثم نفته الى جزيرة سان مارقوريت بفرنسا ، وبقي هناك حتى مطلع عام 1844 ، ثم أطلق سراحه وأعيد الى الجزائر ، وفرضت عليه اقامة جبرية بمدينة عنابة حتى توفي بها عام 1847 (9) .

ان سيرة هذا الرجل ، ونشاطه السياسي والعسكري خلال ولايته القصيرة على المسيلة وأحوازها ، تحت سلطة الأمير ، يشوبها الغموض ، كما أن مواقفه وعلاقاته بالناس ، والأمير ، غير واضحة ، وتحتاج الى بحث . غير ان نشاطه السياسي بعد أسره يكشف عن طموحه الواسع ، والمتزايد للسلطة ، بقطع النظر عن الوسائل والسبل .

فبمجرد أن استقر به المقام في جزيرة سان ماقوريت ، شرع في كتابة الرسائل ، منذ شهر سبتمبر 1841 الى الشخصيات الكبيرة ، الفرنسية والجزائرية ، الرسمية ، والمرموقة ، أمثال : الملك الفرنسي لويس فيليب وزوجته ، ورجال حاشيته ، وأمراء العائلة المالكة ، والماريشال سولت ، والجنرال بوايي في طولون ، والجنرال سباسياني في مرسيليا ، ومدير الشؤون الأفريقية في وزارة الحرب ، والأمير عبد القادر ومصطفى بن اسماعيل ، وسي العربي (10) .

ومن هذه الرسائل : واحدة يوم 4 جانفي 1842 ، وسبع يوم 27 جانفي 1842 ، وخمس يوم 19 ديسمبر 1842 ، وست يوم 31 ديسمبر 1842 ، وتسع يوم 15 مارس 1843 ، وواحدة

---

(9) نفس المصدر ، ص 327–335 .

(10) X. Yacono : « Les premiers prisoniers algériens de l'île Saint Marguerite ». Rue d'Histoire Maghrébine (Tunis - Janvier 1974) nº 1 pp. 40-41 et 57.

يوم 12 جوان 1843 ، وخمس يوم 16 جوان 1843 . وهذا زيادة على الرسائل الكثيرة التي وجهها الى أصدقائه وأفراد عائلته ، وأهملت ولم يجر الاهتمام بها . وبسبب هذه الرسائل المكثفة اعتبره الجنرال نيقري خطيرا ، وتوجد هذه الرسائل والتقارير في ارشيف باريس الوطني (A.N.P.) (11) .

ولسنا ندري كيف سمح الفرنسيون له بهذه المراسلات الواسعة ، ولكن محتوى هذه الرسائل يدل على أنهم كانوا يهدفون الى استغلاله ضد المقاومة الجزائرية ورجالها ، خاصة الحاج أحمد باي ، والأمير عبد القادر . ولربما كان هذا هو السبب في اسراعهم لاطلاق سراحه من الاسر بمنفاه عام 1844 .

ففي ديسمبر 1841 راسل الأمير عبد القادر ، وحثه على مراسلة الملك الفرنسي لويس فيليب لتحقيق الصلح ، وشجعه على قبول مبدأ دفع الجزية للفرنسيين ، غير أن الأمير سكت عنه ، واهمل الجواب عليه ، لانه في غنى عن نصائحه ، اذا لم يعتبر ذلك تطاولا منه عليه .

وفي يوم 27 جانفي 1842 كتب رسالة الى الملك الفرنسي عاتبه فيها على تعيين عدد من الجزائريين في وظائف جديدة مثل : يوسف التركي باي عنابة ، ومحمد بن الشيخ باي قسنطينة ، وأحمد ابن مزراق باي تيطري ، وبوشناق باي مستغانم . وعرض عليه أن يقترح له الوسائل الكفيلة للقضاء على الأمير عبد القادر ، والحاج أحمد باي ، على أن تعطى له منطقة قلعة بني عباس ليتخذها مركزا له يسيطر منها على كل بلاد العرب .

---

(11) A.N.P. Carton F 80-568, 571, 574.

ان محاولـة افتكـاك مدينـة المسيلـة من أحمـد المقراني عـام 1841 قبل اعتقـاله ، واقتراحه هنا في هذه الرسالـة بأن تعطى له قلعـة بني عباس ، يوضحـان عداءه وخصومته لعائلـة المقراني رغم أن بعض أفرادهـا كانوا في خدمـة الأمير عبد القادر الى ما بعد عبور الفرنسيين لمضيق البيبـان في أكتوبر 1839 ، ونعني به محمد بن عبد السلام المقراني .

وفي رسالة 12 فيفري 1842 ، اقترح على الملك الفرنسي أن يعينه خليفة على الجزائريين ، على أن يدفع للسلطات الفرنسية مبالغ مالية سنويـة هائلـة حددهـا كما يلي : 40 ألف رأس غنم ، و 4 آلاف بغل ، وألف حصان ، و 40 ألف قنطار صوف ، و 40 ألف حبة بيض الدجاج ، و 40 ألف قنطـار ملح ، و 4 آلاف صاع قمح ، و 40 ألف قنطـار خشب (12) .

وفي يوم 12 جوان 1843 كتب تقريرا كبيرا ضمنه مشروعـا من سبع وعشرين مـادة ، وأرسلـه الى الملك الفرنسي اقترح فيه استعداده للقضـاء على ثورة الأمير عبد القـادر ، والحاج أحمد باي ، وكل العنـاصر التركيـة الباقيـة في الجزائر ، كمـا اقترح علية أشيـاء أخرى في ميدان الاقتصاد ، والحيـاة الاجتماعيـة (13) .

نموذجـان من رسائله خلال ولايته على المسيلة :

لقد قام الحسن بن عزوز بنشـاط سياسي واسع ، وهام ، خلال ولايتـه القصيرة كخليفة للامير على ولاية الزيبان . وبذل

(12) Yacono : pp. 57-59.

(13) نفس المصدر .

جهده ليربط الصلة ويوثقها بين الأمير عبد القادر ، وباي تونس حمودة باشا ، ووجه الى الأخير رسالتين في الموضوع يؤكد فحواهما على مدى فهمه للاحداث والتوقعات .

ففي الرسالة الاولى أخبره : « أنه لما ملك عدو الله الارض ، بل قسنطينة واختلفت كلمة الاسلام ، وفشلوا وضعفوا على الدب (كذا) ودرء العدو ، وأراد أن يملك الارض امتثلنا قول الله تعالى : **(ياأيها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)** وسرنا الى مولانا السيد الحاج عبد القادر لما نعلم فيه من النجدة والقوة ، ونصرة الاسلام ، ودفع كل مفسدة ، وبذل نفسه في اصلاح الامة وطلبنا منه أن يجوس خلال قطرنا ويشد عضدنا .. ووافانا على هذه الناحية وأمدنا بمحلة عظيمة فأخرجنا من كان فيها من المفسدين » . ثم خلص الى غرضه الذي يرمي اليه وقال له : « فان ظهر لك أن نكون صلة بينك وبينه في المعرفة لتزول الامور المختلفة ، وتجتمع الكلمة الشريفة ، وتدخل في قوله تعالى : **(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)** وفي قوله تعالى : **(وتعاونوا على البر والتقوى)** ... فنحن بذلك بعلاء وباثباتها حفلاء » . وفي الاخير حذره من مغبة تقرب الفرنسيين منه قائلا : « نعم وأنت كن فطنا ، لبيبا ، عاقلا ، وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ، ولا تظن ودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة وما شغلهم عنكم الا نحن ، ولو لا نحن لرجعوا اليكم ، وها نحن مشغولون الا بهم وأنت منا والينا ، والحب بيننا سابق ولاحق لا ينفك أبدا » . وختم رسالته بقوله : « بأمر السيد الحسن بن عزوز ، خليفة أمير المؤمنين » (14) .

---

(14) أ.ح.ت. صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 33 ، بدون تاريخ ، وفي اعلاها ختم صاحبها . والأقواس حول الآيات القرانية من وضعنا .

أمـا الرسالة الثانية فقد كرر فيهـا نفس الافكـار التي ذكرهـا في الاولى ، غير أنه أضاف فيها قوله : « وها نحن كتبنا الى السيد أحمد باشا أجوبة فتناظر أنت وايـاه في ذلك ، وأمـا حب النصارى لـكم ومرادهـم فهي مكر وخـديعـة ، ومـا قصدهم الا بعد امساكهم عمالة الجزائر يرجعون لـكم » (15) .

وفيمـا يلي نصا الرسالتين ، واصلاهمـا ينشران هنا لاول مرة وعثرنـا عليهمـا في أرشيف الحكومة التونسية (أ.ح.ت.) .

الوثيقـة الأولى :

رسالة الحسن بن عزوز خليفة الأمير عبد القـادر الى حمودة بـاشـا بتـونس حول ربط الصلات بينه وبين الأمير عبد القـادر

الحمد لله وحده (16) وصلى الله على سيدنـا ومولانـا محمد وآله وصحبـه وسلـم . حفظ الله تعـالى بمنـه وكرمـه وعم بجميل ستره وخيره مقام ذات المعظم الارفع الهمام الانفع السيد حمده (كذا) باش (كذا) باي أكرمه الله ورعاه وكان له وتولاه آمين وسلام عليك ورحمـة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ما تعاقب الفلك وحركاته ثم ليكن في شرف علمك خيرا أنه لمـا ملك عدو الله الارض بل قسنطينة واختلفت كلمة الاسلام وفشلوا وضعفوا عن الدب (كذا) ودرء

(15) نفس المصدر ، وثيقة رقم 34 بدون تاريخ وفي أعلاهـا خاتم صاحبهـا . أمـا الرسائل التي ذكر أنه أرسلهـا أحمد باشا فلم نعثر عليها في الصندوق .

(16) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 ، وثيقة 33 ، لاتحمل تاريخـا ، وفي أعلاهـا طابع صاحبهـا .

العدو وأراد أن يملك الارض امتثلنا قوله تعالى : «**يا أيها الذين ءامنو قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة** » وسرنا الى مولانا السيد حاج عبد القادر لما نعلم فيه من النجدة والقوة ونصرة الاسلام ودفع كل مفسدة وبذل نفسه في اصلاح الامة وطلبنا منه أن يجوس خلال قطرنا ويشد عضدنا فما لبث غير ساعة حتى تلى (كذا) قوله تعالى : « **وكان حقا علينا نصر المؤمنين**» . ووفانا على هذه الناحية وأمدنا بمحلة عظيمة فاخرجنا من كان فيها من المفسدين وها نحن باصلاح الخلق معتنين ولهذا عرفنا أمير المؤمنين لا لدنيا نصيبها ولا لرفعة نكسبها ولما شاهدناه منه من نصرة الاسلام والدب (كذا) عن أمة محمد عليه السلام وقمع العتات (كذا) من البغات (كذا) والكفرة اللئام ولانه جمع الطرفين واقتعد منصة الشرفين فان ظهر لك أن نكون وصلة بينك وبينه في المعرفة لتزول الامور المختلفة وتجتمع الكلمة الشريفة وندخل في قوله تعالى : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » وفي قوله : « **وتعاونوا على البر والتقوى**» وقال صلى اللهعليه وسلم «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » ، فنحن بذلك بعلاء وباثباتها حفلاء اذ معرفة أولاد الرسول لا تأتي الا بخير وهي في الدنيا والاخرة جنة لدفع كل شر وضير اذ هم بضعته (كذا) صلى الله عليه وسلم لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق لا سيما من جمع منهم الشرف الظاهر والباطن وكان في منازل المكارم والمحاسن نازلا وقاطن (كذا) ومعرفة أولاد الرسول لا تزيدك عند الله وعند عباده الا رفعا وتكسبك دفعا ونفعا والمعرفة ببيت لان من تكون سرا أو علانية وما علمناك بهذا الا لكونك منا والينا وعلمنا بصدقك والظن الجميل بك ونعرفك تحب الإيمان وترغب نصرة الدين والسلام وبأمر السيد الحسن بن عزوز خليفة أمير المؤمنين نصره الله آمين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

نعم وانت كن فطينا لبيبا عاقلا وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ولا تظن ودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم الا نحن ولولا نحن لرجعوا اليكم وها نحن مشغولون الا بهم وانت منا والينا والحب بيننا سابق ولاحق لا ينفك أبدا والسلام معاد عليكم .

الوثيقة الثانية :

رسالة الحسن بن عزوز الى حمودة باشا حول ربط العلاقات مع الأمير عبد القادر

الحمد لله (7) وصلى الله على سيدنا محمد .

حفظ الله تعالى بمنه وكرمه وعم بجوده واحسانه حضرة الاجل الوجيه الاقيل الزاكي الاشمل المرعي برعاية الله عز وجل محبنا وصديقنا ونصيحنا (كذا) السيد حمده (كذا) باي سلام الله عليك ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه ولا زايد عن حمد الله جلت قدرته وتقدست أسماؤه سوى الخير والعافية ونعمه الوافية المتوالية التي نطلب من الله دوامها وبقاءها علينا وعليكم وعلى جميع المسلمين آمين وبعد إن سألت عنا فترانا نحمد الله ونشكره ونحن في هناء وعافية وعز وضفر (كذا) ونصر وسلامة ولم يخصنا من الخير شيء ولتعلم أيها الصديق وأننا لما رد الايمان وقوى الكفر واضطربت أمواجه من كل ناحية وعفت صولته

---

(17) أ.ح.ت. صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 34 ، لا تحمل تاريخا وعليها طابع صاحبها في أعلاها .

وشوقت المسلمون (كذا) الى الكفار فخشينا الردة بجميع المسلمين وأن يعم الكفر الوطن فالجأنا الى أمير المؤمنين مولانا السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين كما ركب نوح في السفينة لا خشي غرقه من الطوفان لأنه صاحب قوة في الظاهر من قومان (كذا) وعصاكر (كذا) وصاحب ولاية في الباطن وما هو الا رجل عدل تقي طاهر يصوم النهار ويقوم الليل منصف للحد ولو على نفسه لا تأخذه في الله لومة لائم ونحن على سيرته ومتبعون لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما قصدنا الا اصلاح الدين وجمع كلمة المسلمين وازالة العناد ودرء المناكر والفساد فنسل (كذا) الله سبحانه ان يوفقنا لما يحبه ويرضاه ومحبتنا فيكم أن يشتموا (كذا) ان تكون ظاهرة أو باطنة لا بأس في ذلك وها نحن كتبنا الى السيد أحمد بالحاج اجوبة فتناظر أنت واياه في ذلك وأما حب النصارى لكم ومرادهم فهي مكر وخديعة وما قصدهم الا بعد امساكهم عمالة الجزائر يرجعون لكم . والسلام من المكتوب عن اذنه الواثق بالله ورسوله السيد الحسن خليفة مولانا نصره الله آمين آمين .

ومن جملة ما ذكرنا للسيد أحمد باشي (كذا) على ان يشتموا أن تكونوا انتم والسلطان السيد الحاج عبد القادر على رأي واحد ليقر الدين وتجتمع كلمة المسلمين .

ب ـ أحمد بلحاج (محمد الصغير بن عبد الرحمن) :

يعتبر محمد الصغير بن عبد الرحمن ، الخليفة الثاني للامير عبد القادر في ولاية الزيبان والصحراء الشرقية . وكثيرا ما يدعى باسم أحمد بلحاج ، كما في مذكرات الحاج أحمد باي . عينه الأمير عبد القادر خليفة له في مكان الحسن بن عزوز المعزول

عام 1841 . ويبدو من الحوادث والرسائل التي عثرنا عليها ، أنه كان له نشاط وصلات مع الثوار والأمير عبد القادر قبل هذا التـاريخ كـذلك .

وهو من واحة سيدي عقبة . وفي ربيع عام 1844 نظم هجوما ناجحـا على مدينة بسكرة ، وحقق انتصارا ساحقا على الفرنسيين وأعوانهم ، وبقي يكافح تحت لواء الأمير الى أن استسلم هذا الأخير عـام 1847 ؛ فانتقل هو الى نفطة التونسية بالجريد واستقر بها . وعندمـا نشبت أحداث واحة الزعاطشـة أواخر عام 1849 ، قدم لنجدة الشيخ بوزيـان وسكان الواحة . ثم عاد الى تونس ، وعندمـا ظهر الشريف محمد بن عبد الله بحركته في مطلع الخمسينات اشترك معه في الهجوم على تقرت والاستيلاء عليهما عام 1852 ، وعـاد بعد ذلك الى توزر وتوفي بها عام 1856 ، حسب رواية فيرو (18) ، أمـا المرزوقي فذكر أنه هاجر الى المدينة المنورة وتوفي بهـا (19) في حين بقي ابنه مصطفى يتردد على الأمير عبد القادر بدمشق مدة من الزمن كما اشار الى ذلك الأمير في بعض رسائله (20) .

وخلال ولايته كخليفة للامير على ولاية الزيبان والصحراء الشرقية ، قام بنشاط واسع حربي ، وسياسي. فمن الناحيـة العسكرية حارب القوات الفرنسية وأعوانها . والحاج أحمد باي واتباعه ،

---

(18) Feraud : pp. 367-374 et 424.

(19) محمد المرزوقي : صراع مع الحماية ، (تونس 1973) ص 244-245 و 255-260 .

(20) أشـار الى ذلك في رسالته الى خير الدين الوزير التونسي بتاريخ 1 ربيع الثاني 1289 ، ورسالته الى مصطفى خزندار بتاريخ 25 ربيع الثاني 1289 . انظر : أ. ج.ت. نفس المصدر . وثيقة رقم 64 ووثيقة رقم 65 .

كما أورد ذلك الحاج أحمد في مذكراته (21) . ومن الناحية السياسية اهتم بتدعيم سلطة الأمير عبد القادر في الناحية الشرقية ، وراسل الباي والرسميين التونسيين ، وبعض الشخصيات الجزائرية ، وتحمس لربط الصلات والعلاقات الحسنة بين الأمير وبايات تونس .

وقد عثرنا على أربع رسائل في أرشيف الحكومة التونسية تبرر هذا النشاط وتؤكده :

الأولى : وجهها الى مصطفى صاحب الطابع بمدينة سوسة ذكر له فيها « أنه وجهنا السيد عبد القادر بن محيي الدين أنا عبد الله ورفيق معي من قربه الى سيدنا أحمد باشه وقدمنا الى سيدى محمد باى وقدمنا بعشرة من الخيل ذكور وبأيدينا زوج بشاطل وطقان ذهب أما من زوج من الخيل المذكورين الى سيادتك العالية ، وزوج كذلك الى سيدى محمد باي وستة الى السلطان أيده الله ونصره سيدنا أحمد باشا والبشاطيل والطيقان مع الستة من الخيل » . وبما أن صاحب الطابع كان آنذاك بسوسة ، وهو بمدينة القيروان ، فقد طلب منه أن يشير عليه الى من يسلم الهدية ، وختم رسالته بقوله : « وباقي الكلام يحدثك عنه حامل البرية (الرسالة » (22) .

---

(21) مذكرات أحمد باي ، ص 91-96 .

(22) أ.ح.ت. نفس المصدر ، وثيقة رقم 35 بدون تاريخ . ولكن صاحب التحفة أشار الى هذا في أحداث عام 1834 بعد ابرام معاهدة دى ميشيل وقال : « ان الأمير وجه خليفته على بسكرة والصحراء السيد محمد الصغير بن عبد الرحمن ومعه السيد محمد ابن كانون الى احمد باشا باي تونس وأصحابهما بسيف مرصع بالجواهر وخيول بسروج مذهبة والة شاي من الذهب وغيرها » . وهذا التاريخ محل نظر لان محمد الصغير لم يصبح خليفة الا عام 1841 . انظر : تحفة الزائر ، ج1 ص 139 .

الثـانية : وجهها الى أحمد باشا نفسه بأمر من الأمير عبد القادر على ما يظهر ، لانه قال فيها له : « فاننا كلفنا السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين أن أقدم الى حضرتك السعيدة الحميدة بحول الله وقوته ويريد حبك وقربك وأنت سلطان تونس يحتاج اليك القوي والضعيف وتكون بينك وبينه محبة ومودة . ووجه لك معنا حصان من جيـاد الخيل زيادة لك » . ويظهر أن هذه الرسالة كتبهـا له في الطريق قبل أن يصل الى تونس حيث ذكر له فيهـا قائلا : « نريد من كريم فضلك وجزيل احسانك أن ترسل لنا خدامك يلاقونـا بناحية الجريد أو قفصة لان الطريق لم تكن لنا فيها معرفـة وأهلهـا كذلك لم يعرفنا » (23) .

الثـالثة : وجهها الى المسمى ابراهيم بن عون قائد الناحية الشرقية أخبره فيهـا بانتصاره الكبير على القوات الفرنسية ببسكرة واستيلائه على كل ما عندهـا من مؤن ، وذخـائر ، وأسلحـة ، وأسره لعدد من افرادهـا ، وختم رسالته بقوله : « وقد أخبرناكم بهذا لتأخذوا حظكم معنا بالفرح والسرور » . وأردف في الاخير خبرا عن انتصار أولاد سلطان على الجيش الفرنسي الذي كان يقوده الدوق دومال ، والذي عبر عنه ونعته : « بولد الربي » ، وذلك خلال الغارات والهجمـات الثلاثة ، « وانصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به » (24) .

ومعلوم أن محمـد الصغير بن عبد الرحمن دبر مؤامرة ضد القوات الفرنسية في بسكرة ، وشن عليها غارة ناجحة ليلتي

(23) أ.ح.ت. نفس المصدر ، وثيقة رقم 36 بدون تاريخ . وذكرهـا صاحب التحفة في أحداث عام 1834 ، وهو خطأ كما ذكرنـا ، انظر ج1 ، ص 139 .

(24) نفس المصدر ، صندوق 212 ، ملف 239 ، وثيقة رقم 19 بتاريخ 25 ربيع الثاني 1260 (20 أبريل 1844) .

13 و 14 مارس 1844 ، أسر خلالهـا عشرة من الفرنسيين بينهم الطبيب أرسلان Arcelin ، والضابط تروشارد sous-lieutenant Trochard والطباخة Marie التي تـزوجهـا وأنجبت له ولدين، ذكر فيرو أنهما بقيا يعيشان مع أمهما بعد وفاته، في مدينة القيروان (25) .

الرابعـة : وجههـا الى شيخ الحنانشة محمد الحسناوي ، أحاطـه علمـا فيهـا باحتمـاء بوعزيز بن قانة ، وعدد من سكان الصحراء ، بالقوات الفرنسية الغازيـة ، وبقيامـه هو بمحاربتهم ومقاتلتهم لمدة أربعـة شهور ، الى أن نال منهم وأجلاهم « من وطن السحرة » (كذا) فـ: « ذهبوا الى الرومي شاكين باكين مستنصرين به لا متعهم الله ولا بلغ لهم أملا لان من استنصر بغير الله لا أعانه الله » . واستطرد بعد ذلك عن أخبار الأمير عبد القادر وقال : « وأما مولانـا السيد الحاج عبد القادر نصره الله لا زال مقابلا لاعداء الله على سبعة مواضيع (كذا) ومشتغلا بقتالهم ليلا ونهارا وقد أرسل اليك كتابا من ذو (كذا) زمـان وهو عندي لانه حيث وصلنا وجدنـا في أشد الاشتغـال بقتال المتنصرة دمرهـم الله وها هو يصلك في حفظ الله وأمنه » . ولم ينس أن يخبره بأن الأمير على علم بأخبـاره وجهوده في قتـال النصارى ، وأنـه عازم على التوجه الى هذه الناحيـة الشرقيـة ليتم اللقـاء والتعارف ، ووضع الخطط المشتركـة لمحـاربـة العدو المشترك (26) .

---

(25) Feraud : pp. 367-374 et 423.
M.E. Vayssette : Histoire de constantine sous la domination Turque Troisième et dernière Periode de 1792 à 1837, S.A.D.C. (Alger - 1869. pp. 559-560.

(26) أ.ح.ت. صندوق 212 ، ملف 239 ، وثيقة رقم 37 بتاريخ 8 ربيع النبوي عام 1259 ، ويوافق ذلك أبريل أو ماي 1843 لأن صاحب الرسالة لم يحدد هل هو ربيع الأول أو الثاني ، وان كانت كلمة النبوي ترجح الأول .

وفيما يلي نصوص الرسائل وأصولها تنشر هنا لاول مرة :

الوثيقة الثالثة :

رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن خليفة الأمير عبد القادر الى مصطفى صاحب الطابع بتونس حول هدية من الأمير عبد القادر الى كبار رجال الدولة التونسية

الحمد لله (27) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

الى حضرة الفاضل الاكمل والسيد الامجد الاجل الوجيه الطالع الاسعد المرعي برعاية الله عز وجل الامير الاوفى سيدى مصطفى صاحب الطابع أيدك الله وأصلح حالك آمين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه ولا زايد بعد حمد الله سوى الخير والعافية عن الجميع آمين وبعد نعم السيد نخبرك ان شاء الله وأنه وجهنا السيد عبد القادر بن محيي الدين أنا عبد الله ورفيق معي من قربه الى سيدنا أحمد باشه (كذا) وقدمنا الى سيادتك بجواب من عنده وجواب الى سيدى محمد باي وقدمنا بعشرة من الخيل ذكور وبأيدينا زوج بشاطل وطقان ذهب أما من زوج من الخيل المذكورين الى سيادتك العالية وزوج كذلك الى سيدى محمد باي ، وستة الى السلطان أيده الله ونصره سيدنا

(27) نفس المصدر ، صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 35 بدون تاريخ ، وذكر صاحب التحفة خبرا عنها في أحداث عام 1834 ، ولكن ذلك محل نظر كما مر .

الشكل رقم 1 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى مصطفى صاحب الطابع حول هدية الامير عبد القادر اليه .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 35

أحمد باشا والبشاطيل والطقان مع الستة من الخيل ونحن سيدنا فارحين الى لقايك كثيرا لما سمعنا عنك من ثناء الحي والصلاح وأنت بصيرة وطن فريقية واليوم سمعنا بيك (كذا) في سوسة وكادنا الحال نقدموا الى سوسة الى حضرة العالية بلى (كذا) شورتك فهانا مقيمين (كذا) بمدينة القروان وأخبرناك سيدنا بأحوالنا وأنت تخبرنا بما عندك في قسمة الخيل والا أين نقصدوا والا باش نتكلموا وأنت سيدنا بصيرتنا وبما تأمرنا نفعل وكما قال صلى الله عليه وسلم : لا خاب من استجار ولا ندم من استشر (كذا) وباقى الكلام يحدثك به حامل البرية والسلام من أسير ذنبه وأفقر خلق الى مولاه غلام أولياء الله عبده محمد الصغير ابن عبد الرحمن حاكم بلدة سيدنا عقبة نفعنا الله واياك ببركاته آمين آمين .

الوثيقة الرابعة :

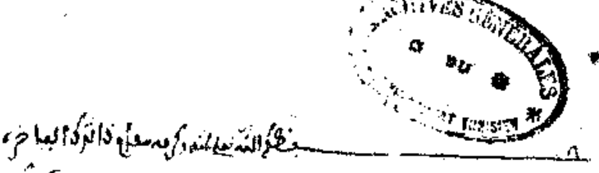
رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمان
الى أحمد باشا حول رسالة وهدية من الأمير

الحمد لله (28) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم .

حفظكم الله تعالى بمنه وكرمه مقام ذاتك الفاخرة وجعل عز الدين متصلا بك ودوام الاخرة . ودام لك المعالى والانتفاع

(28) نفس المصدر ، وثيقة رقم 36 بدون تاريخ . والتاريخ الذي أورده صاحب تحفة الزائر لفحوى أحداثها محل نظر كما سبق .

وأشرف بك الاماكن والبقاع وأعلى مرتبتك غاية السموات والارتفاع ؛ أعني بذلك السلطان الاعظم والخاقان الافخم سيدنا أحمد باشا نجل المرحوم برحمة الحي القيوم سيدي مصطفى رحمه الله وبرك (كذا) ضريحه وأسكنه فسيح جنانه آمين ، السلام عليكم سلام ما حركت أغصان شميم وما هب ريح في النسيم تهب عليكم نفحاته وتصبحكم رحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ورضوانه الشامل العام عليكم ما دام الفلك وحركاته يحاكي شمايلك اللطيفة ورتبتك العالية ما ضاءت الاكوان وتعاقبت الملوان يليه نعم سيدنا فاننا كلفنا السيد الحاج عبد القادر ابن محيي الدين أن أقدم الى حضرتك السعيدة الحميدة بحول الله وقوته ويريد حبك وقربك وأنت سلطان تونس يحتاج اليك القوي والضعيف وتكون بينك وبينه محبة ومودة ووجه لك معنا حصان من جياد الخيل زيارة لك ان شاء الله نعم سيدي نريد من كريم فضلك وجزيل احسانك أن ترسل لنا خدامك يلاقونا بناحية الجريد أو قفصة لان الطريق لم تكن لنا فيها معرفة وأهلها كذلك لم يعرفنا وكيف يكونوا خدامك معنا يكن لنا عند الناس حظا (كذا) بحرمتك واحترامك . ونحن هذا الذي ظهر لنا وأنت نظرك أعلا (كذا) أوسع وكما تأمرنا نفعل والله تعالى يجمعنا وأياكم في يوم مبارك سعيد حميد مجيد بحول الله وقوته ان شاء الله أمين ودمتم في أمان الله والسلام من الواثق بالله وبرسوله خديمك محمد الصغير بن عبد الرحمن حاكم بلدة سيدي عقبة ابن نافع نفعنا الله وإياكم ببركاته آمين آمين كان الله لك ولنا ناصرا ومعينا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين آمين .



الشكل رقم 2 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى أحمد باشا حول رسالة وهدية الامير عبد القادر اليه .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 36

الوثيقة الخامسة :

رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى ابراهيم ابن عون حول احداث بسكرة والحاج أحمد باي

الحمد لله وحده (29) صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الفاضل الأود الكامل الارشد ذو الشيم الزكية والاخلاق المرضية السيد ابراهيم بن عون قايد النواحي الشرقية وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد اعلامكم خيرا ان شاء الله وأننا هجمنا على عسكر عدو الله الذي تركه بقصبة بسكرة ومكننا الله منهم وظفرنا بجميع الخزنة من مدافع وسلاح وكور وبارود وأما الاطعمة من بر وشعير وروز وأنواع الخبز لا تحمله ذوات الاربع ولا يحصى عدده الا الله ومسكنا علجة (كذا) ونحو الستون (كذا) فرصا وقتلنا القباطين وأما بقية عسكر كله بقي لنا والحمد لله ذلك من فضل الله علينا والله ينصر دين الاسلام وقد أخبرناكم بهذا لتأخذوا حظكم معنا بالفرح والسرور والسلام من الفقير لربه عبده محمد الصغير بن عبد الرحمن الخليفة نصره الله آمين في 25 ربيع الثاني سنة 1260هـ . (30)

الحاق خيرا وعافية وكذلك ولد الربي (31) لعنه الله قصد الى جبل أولاد سلطان فقاتلوه قتالا عظيما فهزموه وأخذوا بعض

---

(29) أ.ح.ت. صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 19 .

(30) الموافق حولى 20 ابريل 1844 . وحوادث بسكرة حصلت ليلتي 13 و 14 مارس 1844 . كما أشار الى ذلك فيرو حسبما مر .

(31) يعني بولد الربي الدوق دومال ابن الملك الفرنسي لويس فيليب الذي كان في هذه الفترة حاكما عسكريا على اقليم قسنطينة .



الشكل رقم 3 ـ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى ابراهيم بن عون حول احداث بسكرة والحاج أحمد باي .

أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 19

محلته ثم رجع لهم ثانيا وثالثا فهزموه أيضا وانصرف مذموما مخذولا ولم ينل ما هم به والسلام .

الوثيقة السادسة :

رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى محمد الحسناوي شيخ الحنانشة حول رسالة موجهة اليه من الأمير عبد القادر

الحمد لله وحده (32) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم .

حفظكم الله حفظ الاحباب وأنالكم من فضله جميع الآراب وسقى أرض قلوبكم من مياه عين الرحمة الازلية شراب تنشق منه أرواحكم الزكية ، حضرة الاجل الاجمل الكامل الافضل ذي الشيم الزكية والاخلاقية المرضية غاية ودنا وأحضى (كذا) آمالنا السيد محمد الحسناوي شيخ الحنانشة لا زالت مفاخره تزيد وأسبابه بالله لا تنقطع ولا تبيد السلام الكريم الطيب العميم كلما أهدى الروض شداه مع رسول النسيم ورحمة الله تعالى وبركاته عليكم هذا وإنا نسئل (كذا) عن كلية أحوالكم فان كنتم بخير فقر به.وبعد اعلامكم خيرا إن شاء الله وأن عدو الله بوعزيز (33) انحدر من التل واجتمع معه أتباعه وهم السلمي ودحمان وأولاد بزيد وأولاد زيد وأولاد ملات وكذلك السحاري وأهل بن علي وعمر والشرفة

---

(32) أ.ج.ت. صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 37 .

(33) يعني به ، بو عزيز بن قانة الذي عينه الفرنسيون في منصب شيخ العرب بهذه المنطقة منذ أواخر الثلاثينات حوالي عام 1838 .

وأولاد بوحديجة والاخضر وكذلك رعية بن جلاب أهل تقرت وأولاد جلال ، كل هؤلاء احتوت على عدو الله وباقين متوجهون (كذا) معه حيث توجه ولم يفارقوه لانهم كلهم مايلين (كذا) لاهل حزب الكافر ويخشون أن من افترق منهم نأخذوه فبقوا على حالهم كما ذكرنا فكان مدة أربعة أشهر والقتال بيننا بل الغارات والغزوات فغزونا عليهم نحو المرتين أو الثلاث فمكننا الله من فرقة من السحارى فأخذناهم وسبيناهم ووقع بيننا وبينهم معركتان عظيمتان فهزمهم الله ونصرنا عليهم وجلوناهم من وطن السحره بحيث لم تبقى (كذا) منهم بيت واحدة وقد ذهبوا الى الرومي شاكيين باكين مستنصرين به لا متعهم الله ولا بلغ لهم أملا لان من استنصر بغير الله لا أعانه الله وأما مولانا السيد الحاج عبد القادر نصره الله لا زال مقابلا لاعداء الله على سبعة مواضع ومشتغلا بقتالهم ليلا ونهارا وقد أرسل اليك كتابا من ذو (كذا) زمان وهو عندنا لانه حيث وصلنا وجدنا في أشد الاشتغال بقتال المتنصرة دمرهم الله وها هو يصلك في حفظ الله وأمنه ونحن قد أخبرنا مولانا نصره الله بخصالك ونصحك في الدين وحبك فيه فصرت عنده بالمنزلة الرفيعة كأنك من خواصه ودعينا الله لك بالنصر والتمكين ، وقد أخبرنا نصره الله بتوجه المحلة الى نواحينا ، وحيث تبلغنا ان شاء الله نخبرك أنت لتكون على هبة (كذا) ونحن هانا راغبين في قدوم السلطان بنفسه كي نجتمعوا جميعا وتكون الملاقات (كذا) بينك وبينه لانه وعدنا بذلك بعد تفرغه من الشواغل نصره الله آمين والسلام من فقير ربه محمد الصغير أيده الله آمين . وتم السلام التام والتحية والاكرام على أولاد دايرتك وجميع من حوته حضرتكم الزكية ممن ذكر أعلاه وفقه الله لما يحبه ويرضاه آمين . في 8 ربيع النبوي سنة 1359هـ (34)

---

(34) الموافق حوالي أبريل أو ماي 1843 لان صاحب الرسالة لم يحدد هل هو ربيع الأول أو الثاني ، ولكن كلمة النبوي ترجح الأول .

الشكل رقم 4 _ رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى محمد الحسناوي حول رسالة موجهة اليه من الامير عبد القادر .

أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 37

ج ـ الشيخ محمد الحسناوي بن بلقاسم الحنـاشي :

كان الشيخ محمد الحسناوي في صدر الاحتلال الفرنسي ، يعمل مع السلطات الفرنسية كواسطة بينها وبين السكان في منطقة جبال الاوراس ، والنمامشة ، التي تمتد الى جبال تبسة ، والظهر التونسي ، غير أنه سرعان ما انقلب عن هذه السلطات ، وانضم الى صفوف الثوار والمعارضين للاحتلال الفرنسي كما سيتضح ذلك في رسالة الحاكم العسكري الفرنسي لعمالة قسنطينة ، الى كاهية الكاف بتونس .

وقد أورد الحاج أحمد باي في مذكراته بعض الاخبار عن عائلة الحسناوي تشعر بعمل هذا الرجل ، أو بعض أقاربه معه . وحكى ذلك في معرض حديثه عن المتاعب والمؤامرات التي كان يحيكها ضده صهره بوعزيز بن قانة ، وقال : « أما بوعزيز ... لقد كان يريد الاجهاز علي ليأخذ ما كنت أملك ... ثم اني كنت رفضت في ذلك الوقت أن أنزل عند طلباته والسبب في ذلك هو ما يلي : كان عم الحسناوي في القديم هو شيخ قبيلة الحنانشة التي كنت مقيما عندها ، ولانه حاك مؤامرات ضدي حكم عليه بالاعدام واستبدل برزقي الذي ابدى لي كثيرا من الاخلاص . ولارضاء أسرة الحسناوي عينت هذا الأخير كاتبا للشيخ ولكن حقده اضطره الى التنازل عن منصبه فلجأ الى تونس أولا ثم ذهب الى يوسف في عنابة دون أن يقطع اطلاقا الرباط بيني وبينه ، وذات يوم طلب من بوعزيز أن يعينه شيخا على الحنانشة في مكان رزقي . ولهذا الغرض قدم لي مبلغا كبيرا من المال وعلى الفور استجاب بوعزيز الى الطلب وجاء يرجوني أن أقوم بهذا التبديل . ولكنني قلت له كيف أثق في عدوي ، وكيف تريدني أن أخلع رزقي وكان دائما مخلصا لي ، ان ما تشير به علي

ليس من العدل في شيء ، وقاومت طويلا غير أني كنت في ذلك الوقت تقريبا تحت رحمة بوعزيز فاضطررت الى القبول ، فعين الحسناوي وابتعد رزقي عني : لكنه عند ما علم بسبب عزله قصد ابن قانة بدوره ووعده بالمال ان هو أرجعه الى منصبه ، وخوفا من أن أشك في تصرفاته قال له ، اذهب الى الباي أحمد واقترح عليه ان يتخلص من الحسناوي ويأمر بقتله ثم يعين صهرك محمد بن علي شيخا على الحنانشة وسأكون كاتبا له ومستشارا . لم يتردد بوعزيز أمام هذا الاقتراح وجاء يطلب مني تحقيق المشروع . انني استنكرت عليه ذلك بشدة وقلت له كيف تشفع في عدوي وتعمل على تنصيبه ثم تأتيني اليوم تطلب قتله وأنت تعلم أنه نزل ضيفا علينا واستقبلته في خيمتي . واذا كنت قد عاقبت من خانني فانني لم أخن أحدا ، واغتاظ بوعزيز لهذه الاجابة وأشار على القوم بأن يغزوا زاوية عبد الكريم ليعزلني عن سلطان تونس . ولما انتبه غادرني ورجع الى الصحراء أما أنا فقصدت الحراكته ؛ ومنذ ذلك الوقت استسلم بوعزيو للفرنسيين (35) .

وقد عثرنا في أرشيف تونس على ثلاث رسائل :

الأولى : للحاكم العسكري الفرنسي بقسنطينة ، وجهها الى كاهية الكاف بتونس الصالح بن محمد ، ذكره فيها بأمر الرسالة التي وجهها اليه سابقا بتاريخ 7 جوان 1843 ، ثم قال

---

(35) مذكرات أحمد باي ، ص 84—86 و 119 . وقد ذكر فايسيت بأن الحاج احمد باي اعتقل الشيخ الحسناوي مدة في قسنطينة ثم فر والتحق بجبال الاوراس مدة ثم دخل الى مدينة الكاف التونسية وأقام بها مدة : قبل أن يلتحق بعنابة ، والنمامشة ويدخل في صراع مع الشيخ رزقي ، وفي عام 1897 عين قائدا على قبيلة أولاد يحيى . أنظر : M.E. VAYSELLE : Histoire de constantine sous la domination Turque. Troisième et dernière période de 1792 à 1837. S.A.D.C. (ALGER-1869) pp. 559-560.

له : « ان الشيخ محمد الحسناوي بعد ما خدم الدولة الفرنصاوية كجملة المشايخ وكبار الوطن فانه من عدم وقلت (كذا) الرأي نافق وخرج عن الطاعة ولزمنا بالخروج اليه لنعاقبه » . وبما أن الحسناوي بعد لجوئه الى تونس طلب على ما يظهر العفو والامان والاذن بالعودة الى الجزائر ، فان الحاكم الفرنسي كلف الكاهية أن يبلغه شروطه التي تتلخص في تقديم نفسه عاجلا الى المحلة العسكرية الفرنسية ، وتقديم الرهائن الذين يضمنون ولاء مستقبلا للسلطات الفرنسية ، والا « فما له الا أن يبقى بوطن تونس » ، وحذر الحاكم الفرنسي ، الكاهية فيما اذا عاد الحسناوي خفية الى الجزائر ، وجدد النشاط الثوري ، بقيام القوات الفرنسية بغزو بلاد تونس : « فحينئذ راك (كذا) تلزمنا نتبعوه حتى لوطن السعادة المذكور . واذا بعد ذلك الفتنة طلبت الدولة الفرنصاوية الفتن مع سعادة السيد أحمد باي عمالة التونسية فراك (كذا) تعلم عواقب ذلك لسيدك ولك » . واستدرك في الاخير قائلا : « ثم رانا (كذا) أخبرنا بذلك سعادته بواسطة حضرة قونصول (كذا) دولتنا ببلد تونس » (36) .

الثانية : للشيخ محمد الحسناوي نفسه أرسلها الى أحمد باشا باي تونس أخبره فيها بلجوئه الى تونس « وطن الاسلام » بعد « دخول الفرنصيص الى بلادنا » والآن « باقية النجوع كافة في أوراس الى حدنا » . وأوضح له قائلا : « ونحن ولو صبنا (كذا) ربع آلة حرب والله لا صاب بلادنا ... فان كان اعتمادنا على الله ثم على السيادة لازلنا نضربوا ونحاربوا ولا نرجعوا (كذا)

(36) أ.ح.ت. صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 20 بتاريخ 14 يونيو 1259 (1843) وقد اخطأ الكاتب فوضع السنة الهجرية بدلا من المسيحية التي وضعناها نحن بين قوسين استنادا الى الأحداث التي حصلت خلال هذه الفترة .

على طرد الرومي حتى نردوا على دبايب السيوف » . وفي الاخير وسطه راجيا بقوله : « اجعل لنا باب مع الفرانصيص على نظرك » (37) .

الثالثة : للحسناوي كذلك وجهها الى كاهية الكاف صالح ابن محمد ، حدثه فيها على معارك الحاج أحمد باي ، والأمير عبد القادر ، ضد الاعداء . وبدأ فيها شغوفا بالاطلاع على أخبارهما لدرجة أنه كلف رسلا باستقصائها وقال : « فان التراسة (كذا) الذين بعثناهم الى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومي دمره الله ونحن في ذلك الحال واذا به قدم حاج حسين صاحب الحاج باي الذي كان سابقا يسير فيه الى بر الترك فحكى لنا سورة (كذا) الواقع كما انزل . حكى لنا عن المحلت (كذا) الذى أخذها الحاج أحمد باي وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم » . وأخذ بعد ذلك يشرح له كيف انهزمت القوات الفرنسية ثلاث مرات أمام الحاج أحمد وأولاد سلطان وعدد له ما غنمه الثوار منها ؛ وفي الأخير استدرك خبرا عن الأمير عبد القادر يفيد بأنه عاد الى الجزائر واسترجع مليانة من الفرنسيس(38) .

وقد أشار الحاج أحمد باي في مذكراته الى احداث أولاد سلطان (39) ، كما أشار لها بلقاسم بن عبد الكريم القسنطيني في رسالة خاصة وطويلة وجهها الى كاهية الكاف بتونس (40) .

---

(37) نفس المصدر . وثيقة رقم 8 بدون تاريخ ولكن الأحداث التي وردت فيها حصلت خلال عامي 1843 و 1844 . وهو التاريخ الذي ذكره الحاكم الفرنسي في رسالته الى كاهية الكاف .

(38) نفس المصدر ، وثيقة رقم 24 بدون تاريخ ، ولكن حوادثها حصلت في ربيع عام 1844 (مارس وأبريل) .

(39) مذكرات أحمد باي ، ص 92—94 .

(40) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 45 بدون تاريخ ، ولكن حوادثها حصلت في ربيع عام 1844 (مارس وأبريل) .

وفيمـا يلي نصوص وأصول هذه الرسائل تنشر لاول مرة :

الوثيقـة السـابعـة :

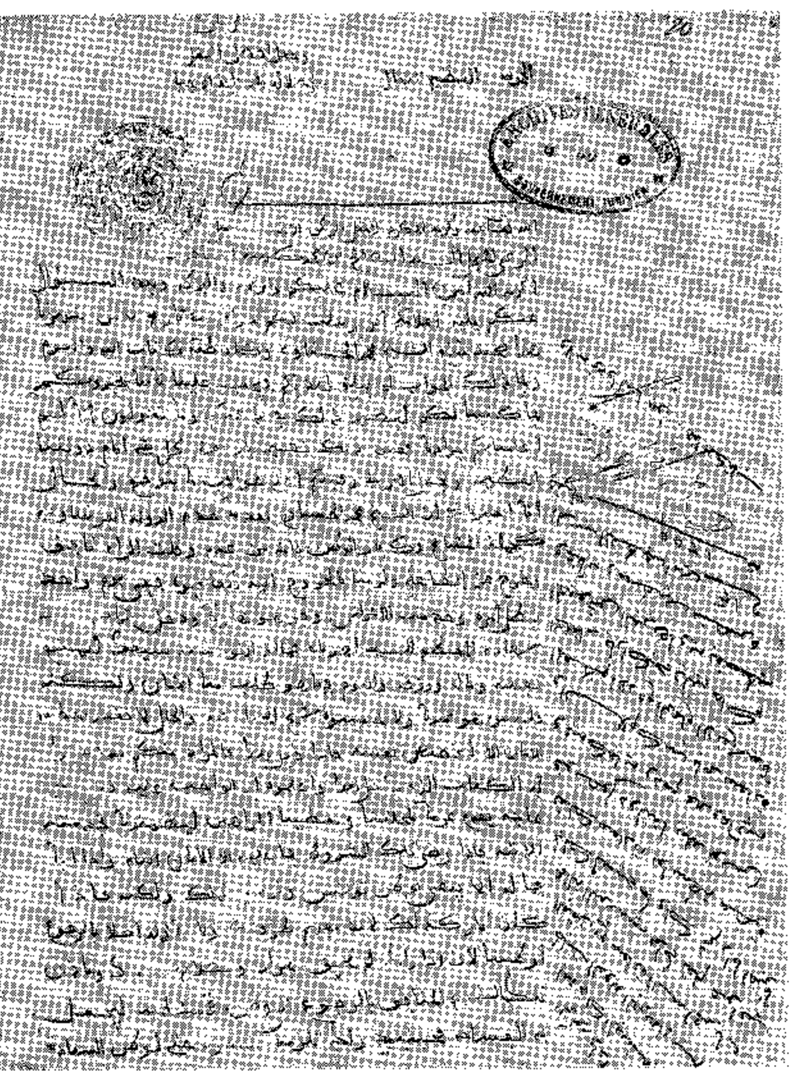
رسالة الحاكم العسكري الفرنسي بقسنطينة الى كاهية الكاف حول الشيخ محمد الحسناوي

الحمد لله العظيم المتعـال (41) جل جلاله في كافة الاجيال وجعل أفضل العقل في رؤوس الرجـال .

حفظ الله تعالى بمنه وكرمه المكرم الامثل الزكي الاشمل المرعي المبجل السيد الصالح (كذا) محمد كهية الكاف أكرمه الله آمين السلام عليكم والرحمـة والبركـة . وبعد السؤال عنكم يليه اعلامكم أني رسلت لـكم جواب في تاريخ 7 من شهرنـا هذا صحبة خدام الشيخ محمد الحسناوى وكان طيه كتاب اليه واليوم ربما ذلك الجواب لم يبلغ ليديكم فيجب علينـا ثانيا نخبركم بما كتبنا ذلك في ذهنكم وما تقولون أنا لم أعلمناكم بمرادنـا فحند ذلك نصير بارى من كل شيء أمـام دولتنا العظيمـة ونجعل الأمر في رقبتكم أعني عواقب ما يتوقع والحال أنـا أخبرناكم ان الشيخ محمد الحسناوى بعد ما خدم الدولة الفرنصاوية كجملـة المشايخ وكبـار الوطن فانه من عدم وقلت (كذا) الرأي نافق وخرج عن الطاعة ولزمنا بالخروج اليه لنعاقبوه ففي يوم واحد بطل أمره وخدمت الاعراش وفر هو هاربـا ودخل تراب سعـادة المعظم السيد أحمد باي عمالة التونسية سيدك ليمنع نفسه وماله ورزقه

---

(41) أ.ح.ت. صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 20 .



الشكل رقم 5 ـ رسالة الحاكم العسكري الفرنسي بقسنطينة الى كاهية الكاف حول الشيخ الحسناوي .

أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 20

واليوم فها هو يطلب منا الامان ولكنه فليس هو عندنا ولا نحسبوه شيخ الحنانشة والحال لا نقدر نعطيه الامان الا لتخصيص نفسه فاذا قبل هذا فالمراد منكم تدفعوا له الكتاب الذي داخل هذا وأعلموه أن الواجب عليه قبل كل حاجة يقدم عزما لمحلتنا ويعطينا المراهين ليظمنونا بخدمته الاتيه فاذا رضي تلك الشروط فما عليه الا الأمان التام واذا أبا (كذا) فما له الا أن يبقى بوطن تونس ونرضى ذلك ولكنه فاذا كان الامر كذلك لابد تفهم طرقتك ولا تأذنه أصلا بالرجوع لوطننا لان اذا راك لم تحق بمراد وبصلاح سيدك وتأذن ذلك الشيخ المنافق بالرجوع الى وطن قسنطينة ليجعل به الفساد فحينئذ راك تلزمنا نتبعوه حتى لوطن السعادة المذكور واذا بعد ذلك الفتنة طلبت الدولة الفرنصاوية الفتن مع سعادة السيد أحمد باى عمالة التونسية فراك تعلم عواقب ذلك لسيدك ولك ثم رانا أخبرنا بذلك سعادته بواسطة حضرة قونصول دولتنا ببلد تونس وفيه كفاية ودمتم بخير وعافية والسلام كتب بأمر سعادة المعظم الارفع الهمام الانفع سيدنا الجلنار باراكيد يليه حاكم الجيوش الفرنصاوية بقسنطينة وعنابة وسطيف نصره الرب اللطيف آمين في 14 ينيه سنة 1259 (42) .

ولا بد تردو لنا جواب هذا الكتاب .

الوثيقة الثامنة :

رسالة محمد الحسناوي بن بلقاسم الى أحمد باشا باي تونس حول لجوئه الى تونس هو ورفاقه

الحمد لله (43) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(42) 14 يونيو 1843م يوافق 17 جمادى الأولى عام 1259هـ . وقد اخطأ صاحب الرسالة على ما يظهر عندما أردف تاريخ الشهر المسيحي بالسنة الهجرية .
(43) أ.ح.ت . صندوق 212 ملف 239 وثيقة رقم 8 بدون تاريخ . وفيها كثير من الألفاظ والكلمات العامية ولكنها مفهومة .

حفظكم الله تعالى ذات المعظم الارفع الطود الهمام الانفع الكهف الحصين الامنع مولانا ومن على الله ثم عليه اعتمادنا سيدنا أحمد باشه (كذا) باي نصره الله آمين السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ما دام الفلك وحركاته يليه وبعد سيدنا فلتعلم فيما قضى الله في حكمه الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه في دخول الفرنصيص الى وطننا وأخذنا على حين غفلة وفرينا (كذا) بديننا وهاجرنا الى وطن الاسلام كما قال تعالى في كلامه العزيز : « انما المؤمنون اخوان » (كذا) . والآن باقية النجوع كافة في أوراس الى حدنا لا قدم له أجلا ولا خدم له والعرب كما لا يخفى سيادتك العلية حالها طردها بالمدفع ونحن ولو صبنا ربع آلة حرب والله لا صاب بلادنا والله غالب علينا وبيتنا منسوب على الدار السعيدة (كذا) في زمان الترك هلكونا وقتلونا عن الدار السعيدة وبرحوا بنا في الزقة هاذا خير وانا بريء من يخون الوجاق ويخدم فريقية وكذا الآن باقون مبغضين على الحضرة العلية والناس ناسبين خدام الدار السعيدة والمنسوب محسوب ويحبنا الى الله ثم جناب السيادة فان كان اعتمادنا على الله ثم على السيادة لازلنا نضربوا ونحاربوا ولا نرجعوا على طرد الرومي حتى تردوا على دبايب السيوف وان علمنا الشيء يوسخ السيادة مع الغير نحن ما واقفوا الفرانصيص يخاطب فينا الى الخدمة ولا أبينا له كونه نحن حابسين أنفسنا ريشة من مناحكم ولا تقدر نفعل شيء بلا نظرك حتى ان لم تحسبونا لكم نحن ناسبين والناس ناسبين لكم ويعدونا أقرب كل قريب اجعل لنا باب مع الفرنصيص على نظرك واذا حطيت علينا العين

(44) نفس المصدر ، وثيقة رقم 24 بدون تاريخ ولكن الحوادث التي تحدثت عنها الرسالة حصلت خلال شهر مارس أو أبريل 1844م وهي مكتوبة كما يلاحظ بلهجة عامية .

الشكل رقم 6 ــ رسالة محمد الحسناوي الى أحمد باشا باي تونس حول لجوئه الى هناك .

أ. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 8

ودعنا أمرنا للذي لم تخفا (كذا) وداثعه قوله تعالى : يعبادي ان أرضي واسعة » وهاذا حدنا مع محبة الله ولا عندنا منه على الله ولكي نبين ما رميتم فذلك منتهى المقصود والحمد لله على السراء والضراء ولا حول ولا قوة الا بالله ورضي الله عنك وأرضاك ودمت ودمنا في أمان الله وحفظه والسلام من عبد ربه محمد الحسناوي بن بلقاسم وفقه الله بمنه وكرمه آمين .

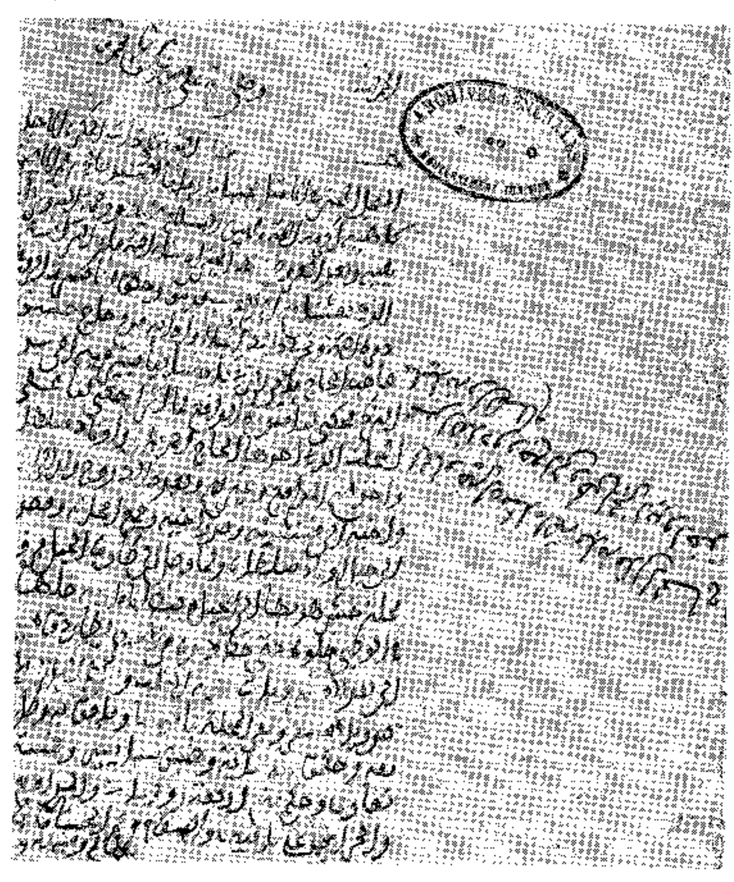
الوثيقة التاسعة :

رسالة محمد الحسناوي بن بلقاسم الى صالح بن محمد الأمين كاهية تونس حول أحداث الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر

الحمد لله ((45) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم .

حفظ الله تعالى ذات المكرم الاجل المبجل المحترم الامثل محبنا بل أبانا (كذا) السيد صالح بن محمد الأمين كاهية أكرمه الله آمين السلام عليك ورحمة الله وبركاته يليه وبعد المعروض عنك الخير ان شاء الله فان التراسة (كذا) الذي بعثناهم الى الغرب قدموا وحكوا لنا كسرة الرومي دمره الله ونحن في ذالك الحال واذا به قدم خاج حسين صاحب الحاج باي الذي كان سابقا يسير فيه الى بر الترك فحكى لنا سورة (كذا) الواقع كما أنزل حكى لنا على المحلت (كذا) الذي اخذها الحاج أحمد باي وأولاد سلطان وأخذ لهم المدافع وغيرهم وبعد ذلك روح (كذا) وأخيه

(45) كلمة غير مقروءة .



الشكل رقم 7 ـ رسالة محمد الحسناوي الى صالح بن محمد الامير كاهية الكاف حول احداث الحاج أحمد باى والامير عبد القادر .

ا. ح. ت. صندوق 212 ملف 239 . وثيقة رقم 24

الى قسنطينة وحذر أخيه (كذا) وجمع امحاله و قصد الى جبل أولاد سلطان ولما وصل الى طارت (كذا) الجبل فرق محلة حشرد هو بها الى الجبل و بعض (...42) خلها (كذا) في الوطى (كذا) خلوه حتى حط وبره من العصر يطاردوا فيه الى بعد العشى (كذا) وبات عليه القلب وشطر الليل الربى حذر (كذا) بالعسكر وبقى المحلة بما فيها وفاقوا (كذا) به وطاردوا معه وحكموا منه مائة وخمسين سبايسي وخمسة نصارى وحكم منهم أربعة روميات والمدافع والجرابى على ما فيها والسلام من محمد الحسناوي ابن بلقاسم وفقه الله .

الحاق خير ان شاء الله فانه قال الحاج عبد القادر رجع الى وطن الجزائر وأخذ مليانة والسلام .

— الأمير عبد القادر :

ومن الطبيعي أن يكون نشاط هؤلاء الخلفاء والاعيان ، مستمدا من نشاط الأمير عبد القادر ، وحيويته ، وحنكته السياسية والعسكرية . ومن رغبته في توسيع أفق ثورته . فالى جانب نشاطه العسكري ، كانت له اتصالات ديبلوماسية ، وسياسية مع الخارج ، ومراسلات مكثفة مع خلفائه وأعوانه في الداخل ، ومع الحكام والرؤساء في الخارج ، مثل بايات تونس ، وسلاطين المغرب الاقصى ، وحكومة بريطانيا (46) .

وفي هذه الدراسة نورد له ثلاث رسائل عثرنا عليها في أرشيف تونس كذلك :

---

(46) للمزيد من التفاصيل على نشاط الأمير الديبلوماسي ، راجع كتابنا السابق ، ص 90—98 ، وكتاب تحفة الزائر ، ج2 ، ص 189—212 .

الأولى : وجهها الى محمد الحسناوي شيخ الحنانشة ، وهي التي أشار اليها محمد الصغير بن عبد الرحمن كما مر . وقد حثه فيها الأمير على الجهاد ، والثبات في الكفاح ، وعدد له كثيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تحث على الجهاد ، وأخبره بأنه يتتبع أخباره عن كثب ، ومتشوق للالتقاء به عندما تسمح الظروف بذلك (47) .

الثانية : وجهها الى علي بن سالم ، وأخبره فيها بأنه على صلة واطلاع باخباره عن طريق خليفته محمد الصغير بن عبد الرحمن ، وألح عليه بعد ذلك قائلا : « ثم انه لا بد منك أن تبذل جهدك في استقصاء أخبار الشرق من طرابلس اليكم ، وتعرفنا بها على ما هي وبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لا نحتاج الى سؤال غيرك ولا تقصر بارك الله فيك واحسن عاقبتك (48) .

الثالثة : وجهها الى محمد بن حسن باي تونس يهنئه فيها ، ويرجو منه ربط الصلات معه ، وأخبره بقوله : « فاننا بعثنا اليكم من يقوم مقامنا في التهنئة لكم وعقد المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم » . وأضاف بعد ذلك قوله : فاستوصوا بالحاملين خيرا ، وقفوا معهم موقف الكرام عند المعظم السيد أحمد باشا فانهم لا يعرفون أحوال تلك الناحية » (49) .

وفيما يلي نصوص هذه الرسائل وأصولها تنشر لاول مرة :

---

(47) أ . ح.ت. نفس المصدر ، وثيقة رقم 41 بتاريخ 6 ربيع الثاني 1263 23 مارس 1847) .
(48) نفس المصدر ، وثيقة رقم 40 بتاريخ 6 ربيع الثاني 1263 (23 مارس 1847)
(49) نفس المصدر ، وثيقة رقم 42 ، بتاريخ 1 جمادى الثانية 1266 . وهذا التاريخ محل نظر لانه يوافق 14 أبريل 1850 ، والأمير في هذه الفترة يوجد في المنفى بفرنسا .

الوثيقة العاشرة :

رسالة الأمير عبد القادر الى محمد الحسناوي يحثه على الثبات في الجهاد

الحمد لله وحده (50) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم . سلام يعم الاغوار والنجود ورحمة الله وبركاته ما تعاقب الحلوان بالعدم والوجود على الموصوف بالشجاعة والجود أخانا الواثق بالحق القوي الوكيل القوي السيد محمد الحسناوي أسعد الله حالنا وحاله وبلغ في الدارين آمالنا وآماله وبعد أيه الفارس المجاهد الصابر المكابد اسمع أسمعك الله خيرا ووقاك بلطفه خيرا ان الجهاد شعار الانبياء وحرفة المؤمنين الاتقياء فأحمد الله الذي أرشدك اليه وسله أن يثيبك ويعينك عليه الم تعلم أن الله يقول لصفوته وخيرته . «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به» بعد أن قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فانظر يا أخي أسعدك الله ، الى هذه المنى وقال «يقاتلون في سبيل الله» فحقق هذا المعنى واستعن بالله ، وقال « فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا » فكن ممن لا يخافون في ذلك طعنا ولا شقا ، وقال في التورية (كذا) والانجيل والقرآن وناهيك بهذا الوعد شرفا لعلو هذا الشأن ، ولقد مدح الله الجهاد والمجاهدين في أي ما آية ، وذكر ما لاهله من الفضل والعناية وقال تعالى : « **وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما** » ، فحازوا بذلك دون القاعدين شرفا وتعظيما . فدوموا على ما أنتم واسئلوا من الله العون . وقال : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون** » . حاصله

(50) أ.ح.ت. صندوق 78 ، ملف 929 وثيقة رقم 41 . وهي الرسالة التي أشار اليها محمد الصغير بن عبد الرحمن الذي كان الواسطة في ابلاغها اليه . انظر نص الوثيقة السادسة رقم 37 .



الشكل رقم 8 ـ رسالة الامير عبد القادر الى محمد الحسناوي يحثه على الثبات في الجهاد .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 ، وثيقة رقم 41

أيه المحب ان الله لا يرشد ولا يقيض للجهاد الا من أراد به خير الدنيا والدين . وقال : « **فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين** » ، وما ثبط الا من أراد به خزيا ونكالا . وقال : «**لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا**» . فافهم ودم على ما أنت ولا تسمع كلام الكشف الميل المعازيل وتدبر قوله تعالى : « **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » . واعلم أننا لا زلنا عن أحوالكم سائلين وللقائكم شائقين ولكم بالخير داعين ولاخباركم مراعين فنسئل الله ان يجمعنا بكم في أحب الأوقات اليه وأبركها لديه على أحسن حال . وقال تعالى : « **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال** » . وكتب بأمر ناصر الدين وامام المجاهدين مولانا وسيدنا الحاج عبد القادر بن محيي الدين أيده الله آمين ،6 ربيع الثاني عام 1263 (51) .

الوثيقة الحادية عشرة :

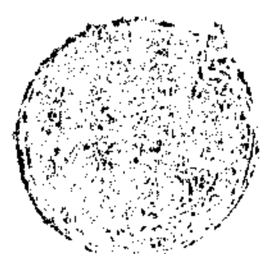
رسالة الأمير عبد القادر الى علي بن سالم
يطلب منه فيها أن يهتم بأمر الحدود الشرقية

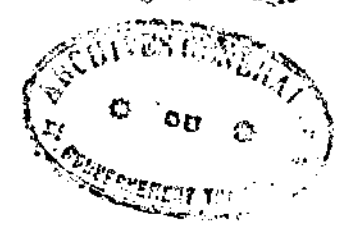
الحمد لله (52) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

محب الايمان والمؤمنين المعظم المكرم المحترم السيد علي ابن سالم سالمنا الله واياه آمين وسلام عليكم ورحمته وبركاته وبعد ايه المحب كيف أنت وكيف أحوالك نسئل الله أن يجعلها

---

(51) الموافق حوالى 23 مارس 1847 .
(52) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة 40 .





الشكل رقم 9 ـ رسالة الامير عبد القادر الى علي بن سالم يحثه على الاهتمام بالحدود الشرقية .

أ. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 40

موافقة للكتاب والسنة مع موافقة المراد لمحمد وآله صلى الله عليه وسلم ثم اعلم أنه بلغنا عنك على لسان السيد محمد الصغير ابن عبد الرحمن الخليفة ثناء جميل فشكرنا لك ذلك وأعجبنا كثيرا ودعونا لك بخير والله يتقبل آمين ، ثم أنه لابد منك أن تبذل جهدك في استقصاء أخبار الشرق من طرابلس اليكم وتعرفنا بها على ما هي وبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لا نحتاج الى سؤال غيرك ولا تقصر بارك الله فيك وأحسن عاقبتك آمين والسلام بأمر ناصر الدين سيدنا الحاج عبد القادر ابن محيي الدين أيده الله آمين وكتب ليلة 6 من ربيع الثاني عام 1263هـ (53) .

الوثيقة الثانية عشرة :

رسالة الأمير عبد القادر الى محمد بن حسن باي تونس حول توجيه رسول اليه للتهنئة وربط الصلات

الحمد لله وحده (54) والصلاة والسلام على محمد نبيه وعبده .

الجناب الذي فاحت برياح المكارم أزهاره وترنمت على أغصان الفضائل والفواضل أطياره وجرت في بيداء الكمال والجمال أنهاره وأشرقت في بساط المحاسن شموسه وأقماره . ذاك المعظم السيد محمد بن حسن باي لا زال محفوظا بسر السور والآى وسلام تام عليكم ما هب النسيم وتعطر عرفه بمنزلكم الكريم ورحمة الله وبركاته ما دام الفلك وحركاته . وبعد فانا

(53) الموافق حوالي 23 مارس 1847 .
(54) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة 42 .

قد بعثنا اليكم من يقوم مقامنا في التهنئة لكم وعقد المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم فان المؤمنين جسد واحد والمؤمن لاخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا والتعاون على البر والتقوى مطلوب شرعا فاستوصوا بالحاملين خيرا وقفوا معهم موقف الكرام عند المعظم السيد أحمد باشا فانهم لا يعرفون أحوال تلك الناحية وأنتم أدرى بذلك منهم وأهل مكة أدرى بشعابها والله يصلح بكم وعلى يدكم ويكون في عوننا وعونكم ويوفقنا جميعا لما فيه رضاه آمين والسلام . كتب أول يوم من جمادى الثانية عام 1266 (55) بأمر مولانا الخليفة الحاج عبد القادر أيده الله .

ان تاريخ الجزائر يجب ان تعاد كتابته وصياغته من جديد من واقع الوثائق الجزائرية الاصيلة التي لم تر النور بعد حتى الآن والتي تتكدس في دور المخطوطات والوثائق الاجنبية فيما وراء البحر ، وفي البلدان المجاورة للجزائر خاصة تونس والمغرب الاقصى ، وفي دور المحفوظات التركية .

---

(55) الموافق حوالي 14 أبريل 1850 وهو خطأ كما مر من الناسخ على ما يبدو .



الحمد لله وحده   والصلاة والسلام على محمد وصحبه

الشكل رقم 10 ــ رسالة الامير عبد القادر الى محمد بن حسن باى تونس حول رسول وهدية اليه .

ا. ح. ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 42

موقف بايات تونس
من ثورة الأمير عبد القادر (*)

لقد سبق لمجلة « الاصالة » أن قامت ، مشكورة ، بمبادرة طيبة في هذا الميدان ، فاصدرت عددا حافلا بالدراسات القيمة حول موقف المؤرخين الاجانب من كتابة تاريخ الجزائر ، وطريقتهم في ذلك ، وهذه الفكرة هامة وضرورية ، لان المؤرخين الاجانب ، والفرنسيين على الاخص كانوا يصوغون الحقائق التاريخية من وجهة نظر خاصة تستهدف أساسا تبرير الغزو الفرنسي للجزائر وتدعيم وجوده وبقائه بها . ويؤرخون لاحداث الجزائر بالتبعية فقط لتاريخ فرنسا التي يحلو لهم ان يعبروا عنها بالبلد الأم ، كأن الجزائر يتيمة لا أب لها ولا أم الا فرنسا ، ولا تراث لها الا تراثها .

ثم ان جهل هؤلاء المؤرخين الفرنسيين للغة العربية جعلهم لا يستطيعون استيعاب ما في الوثائق العربية من حقائق واحداث صحيحة ، ويكتفون بتلخيص بعض افكارها بصورة مشوهة لتدعيم وجة نظرهم المتحيزة .

ويمكن ان نضيف الى هذا أنهم ، بحكم الاحتقار والاستخفاف الذي يكنوه للعنصر الاهلي ، لم يكونوا يعطون الاهمية لافكار الجزائريين التي يسجلونها في رسائلهم ووثائقهم ويعتبرونها من قبيل التمائم والخرافات ، اللهم من كان في نظرهم خطيرا على

(*) نشر بمجلة الأصالة ، عدد 23 (جانفي - فيفري 1975) ص 23 - 24 .

السيطرة الفرنسية ، فتراهم يتتبعون كل حركاته وآثاره لتبرير الاحكام التي سيصدرونها ضده .

وفي اطار عملي لاستكمال المعلومات حول دراستي الجامعية التي اقوم بانجازها واعدادها منذ عدة سنوات حول : « دور عائلتي المقراني والحداد في ثورة 1871 » أتيح لي ان اطلع واكتشف المزيد من الرسائل والوثائق الجزائرية حول ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر بدور الوثائق في باريس ووزارة الحرب ، وايكس أون بروفانس وفي قسنطينة وتونس .

وبينما أنا انقب وابحث في دار الوثائق للحكومة التونسية اواخر شهر ديسمبر 1973 اكتشفت عددا كبيرا من الرسائل لعدد من زعماء ثورات الجزائر في القرن الماضي امثال : بن ناصر بن شهرة ، والشيخ محمد الكبلوتي ، والشيخ الحسناوي ، والأمير عبد القادر ، وابنه محيي الدين ، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير ابن عبد الرحمن وغيرهم ، ورسائل أخرى لشخصيات رسمية تونسية وعثمانية حول احداث ثورات هؤلاء الزعماء وغيرهم سأحاول نشرها بحول الله في مستقبل الايام .

والشيء الذي استلفت نظري في هذه الرسائل هو ان كثيرا من الاحداث التاريخية الشائعة في تاريخنا ينبغي تصحيحها من واقع هذه الوثائق الجزائرية التي لم تر النور حتى اليوم . كما أن الثغرات الكبيرة التي تتخلل كفاحنا الوطني خلال الفترة الاستعمارية لا يمكن ان تسد الا بالعودة الى هذه الوثائق نفسها .

فالذي يكتب اليوم عن ثورة أولاد سيدي الشيخ لا غنى له من البحث في دور المحفوظات المغربية ، ولا ينبغي الاطمئنان ابدا لما كتبه ونشره الفرنسيون حولها ، وكذلك الحال بالنسبة للذى

يكتب عن ثورة المقراني والحداد ، والزعاطشة ، والأمير عبد القادر ، لا بد له من العودة الى دور المحفوظات في تونس والمغرب ، واصطنبول وغيرها للغرض نفسه .

فلقد كان شائعا مثلا من الكتابات الفرنسية ان الأمير عبد القادر كان ضد ثورة المقراني والحداد عام 1871 ، وذلك استنادا الى الضجة التي أثارها ضد ابنه محيي الدين الذي التحق بالثوار في منطقة الحدود الشرقية للجزائر ، فتبرأ منه ، وكتب رسائل استنكار الى الحكومة الفرنسية ببوردو والى وزراء تونس ، وقناصل فرنسا في دمشق وطرابلس الغرب ، والى قاضي معسكر بالجزائر (1) .

ولكن اكتشفت في دار المحفوظات التونسية رسائل للامير عبد القادر وجهها للرسميين التونسيين يحثهم على تقديم المساعدات لأولاد مقران ومن معهم من اللاجئين ومما قاله في رسالته الى مصطفى خزندار : « انه بلغنا دخول الفئة المقرانية وأولاد يلس في دائرة دولتكم السامية لاثذين بحماها المنيع مستعطفين جنابها الرفيع مشهرين الفرصة في دفع ما حل بهم من عظيم الغصة ... فالمأمول من الجناب السامي تصديق ظنهم والاعتناء بشأنهم وان يلاحظهم بعين الرحمة ويساعدهم بيد النعمة» (2) . وأكد نفس الامر في رسالة أخرى الى الوزير خير الدين التونسي بعد ان اشاد بخصاله وخصال السلطات التونسية (3) .

---

(1) Louis Rinn : *Histoire de l'insurrection de* 1871 *en Algérie* (Alger 1871) pp. 105-110 .

(2) ارشيف الحكومة التونسية (أ.ح.ت.) ، صندوق 78 . ملف 929 ، وثيقة رقم 64 بتاريخ 25 ربيع الثاني 1289 (2 جويلية 1872) .

(3) نفس المصدر . وثيقة رقم 65 بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289 (8 جوان 1882) .

فلو كان الامير عبد القادر ضد ثورة أولاد مقران لما طلب من الدولة التونسية تقديم المساعدة لهم بعد التجائهم الى هناك ، وهذا يؤكد ان معارضته لابنه محيي الدين لا تعني معارضة باقي الثوار الجزائريين داخل الجزائر .

وكان شائعا أيضا ان الأمير عبد القادر لم يكن يهتم كثيرا بالمنطقة الشرقية من الجزائر لبعدها عن مركزه ، ومعارضة الحاج أحمد باي له ، ووجود الفرنسيين في الوسط عقبة في طريق مد نفوذه الى هناك . ولكني عثرت على رسائل للامير ولخلفائه بالمسيلة ، ومنطقة بسكرة ، توضح بجلاء عنايته بالمنطقة الشرقية لم تكن اقل من عنايته بمركزه في الغرب . وسأنشر هذا بحول الله في دراسة خاصة مستقبلا ، وأشير فقط هنا الى ان الأمير مثلا كتب رسالة الى السيد علي بن سالم يطلب منه فيها ان يستعلم له على المنطقة الشرقية حتى طرابلس ، وقال له : « ثم انه لا بد منك ان تبذل جهدك في استقصاء اخبار الشرق من طرابلس اليكم وتعرفنا بها على ما هي وتبين لنا صحيحها من غيره مفصلة بحيث لا نحتاج الى سؤال غيرك » (4) .

وكتب الى الشيخ الحسناوي الحناشي الثائر بالاوراس يحثه على الجهاد ويقول له : « وبعد ايها الفارس المجاهد الصابر المكابد اسمع — أسمعك الله خيرا ووقاك بلطفه خيرا — ان الجهاد شعار الانبياء وحرفة المؤمنين الاتقياء فاحمد الله الذي ارشدك اليه وسَلْه ان يثبتك ويعينك عليه » (5) .

---

(4) نفس المصدر : وثيقة رقم 40 بتاريخ 6 ربيع الثاني 1263 (مارس 1847) .
(5) نفس المصدر : وثيقة رقم 41 تحمل نفس التاريخ السابق .

وراسل باي تونس احمد باشا ، ووجه اليه هدية من عشرة خيول وبعض التحف وذلك من اجل ربط الصلة معه. ومما قاله في رسالته الى محمد بن حسن باي الوزير التونسي : « فإنا قد بعثنا اليكم من يقوم مقامنا في التهنئة وعقد المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم . فاستوصوا بالحاملين خيرا وقفوا معهم موقف الكرام عند المعظم السيد احمد باشا » (6) .

ولم يتوقف الامر عند محاولات الامير عبد القادر نفسه فقد بذل خلفاؤه ونوابه نفس الجهود مع سلطات تونس من اجل تدعيم جبهة الكفاح ، ومما قاله الحسن بن عزوز حاكم المسيلة الى حمودة باشا باي : « فان ظهر لك ان نكون وصلة بينك وبينه (أي الأمير عبد القادر) في المعرفة لتزول الأمور المختلفة وتجتمع الكلمة الشريفة وندخل في قوله تعالى : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » ، وفي قوله: « **وتعاونوا على البر والتقوى** ... » فنحن بذلك بعثاء وبإثباتها حفلاء » . ولم يكتف بهذا فحذره من مغبة صداقته للفرنسيين وقال له : « نعم وانت كن فطنا لبيبا عاقلا وانظر عاقبة الامور من جانب الكفرة ولا تظن ودهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة لا غير وما شغلهم عنكم الا نحن ولولا نحن لرجعوا اليكم وما نحن مشغولون الا بهم وانت منا والينا والحب بيننا سابق ولاحق لا ينفك ابدا . والسلام معاد عليكم » (7) .

واكد هذا في رسالة أخرى لنفس الشخص وقال : « ومن جملة ما ذكرناه للسيد أحمد باشا على ان يشتموا (كذا) ان تكونوا

---

(6) نفس المصدر : الوثائق : 35 ، 36 و 42 .
(7) نفس المصدر : وثيقة رقم 33 لا تاريخ لها .

نتم والسلطان سيد الحاج عبد القادر على رأي واحد ليقر الدين وتجتمع كلمة المسلمين » (8) .

ان كل هذه الجهود من طرف الأمير عبد القادر وخلفائه توضح الاهمية التي كان يوليها للجبهة الشرقية ، ولدور تونس فيها سلبا وايجابا وخطورة الموقف الذي ستتخذه على مستقبل كفاح الجزائر .

ولكن بايات تونس كان لهم موقف آخر معارض ومضاد فقد كانوا ضد ثورته وعارضوا نوابهم ووكلاءهم في تقديم أية مساعدة له . والرسائل الثلاث التي سنستعرضها في هذا الفصل هي موضوع هذه النقطة بالذات . وقبل استعراضها لا بد من تسجيل الملاحظتين التاليتين :

أولا : ان الأمير عبد القادر لم يكن غافلا عن المصادر التي يمكن ان يحصل بواسطتها وعن طريقها على السلاح من الخارج ومنها جبل طارق الذي يسيطر عليه الانجليز والذي يعتبر بوابة هامة لقادة المقاومة لكي يربطوا صلاتهم بعدة جهات من أوروبا التي تتوفر فيها الاسلحة الضرورية للكفاح والمقاومة ، وقد كانت صلات الأمير عبد القادر بالحكومة الانجليزية عن طريق مسؤوليها بجبل طارق ، وكشف الدكتور التميمي اخيرا عن عدد من هذه الرسائل » (9) .

ثانيا : ان معارضة بايات تونس لثورة الأمير عبد القادر من خلال معارضتهم لوكيلها طارق الذي قدم مساعدة للامير

---

(8) نفس المصدر : وثيقة رقم 34 لا تاريخ لها .

(9) الدكتور عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871 (الدار التونسية للنشر — مارس 1972) ، ص 197-229 .

عبد القادر ، يؤكد موقفهم السابق من تأييد الاحتلال الفرنسي للجزائر (10) .

المدخل الى الوثائق الثلاث :

لقد كان لبايات تونس وكيل مقيم بجبل طارق بمثابة قنصل لمملكتهم يدعى زاكي كرطوزو على غرار الوكلاء الآخرين في بلدان ومدن أخرى بالمغرب العربي وأوروبا .

وخلال تردد رسل الأمير على جبل طارق للاتصال بالسلطات الانجليزية للحصول على تأييد منها له وعلى ما يمكن من الاسلحة ، اتصل هؤلاء الرسل بوكيل تونس وأحكموا الصلة بينه وبين الأمير عبد القادر ، فاصبح يساعدهم على جمع بعض الاسلحة وأدوات الحرب وعلى تنظيم الاتصالات مع الغير .

وبما ان علاقات البايات بالامير غير حسنة وليست وثيقة ، وتوقع زاكي كرطوزو ان يقوم بعض الوشاة بابلاغ البايات بتونس أخبار مساعدته للامير فانه أراد أن يسبقهم ويبلغ الباي بخبر عمله مع تبرير ذلك فكتب اليه رسالة قال له فيها : « والمنهى لسيادتكم انه كتب لنا المجاهد سيدي الحاج عبد القادرا بن سيدي محيي الدين ان اقف مع وكيله في قضاء مآربه بجبل طارق وشراء آلة الحرب التي يحتاج اليها لما يعلم انني خديمكم ونعلم انه محب لجنابكم فاقفنا (كذا) مع وكيله خفية حتى قضى المآرب وتوجه الى تطاون فاذا بلغ سيدنا خبر عن ذلك فقد انهيناه اليه قبل ان يصل حضرتكم

---

(10) الدكتور ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال . (معهد البحوث والدراسات العربية) القاهرة 1970 ص 132–133 وما يليها .

الشريفة » . وبما انه كان يتوقع ان يكاتبه الامير عبد القادر مرة أخرى ليطلب المساعدة فقد استدرك الى الباى قائلا : « فان أذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امرك وإلا تأخرت ولا نتعدى امرك ان شاء الله » (11) .

كان هذا حوالي عام 1841 . وبعد عدة سنوات ، قام زاكي كرطوزو بتسليم جوازات سفر تونسية الى بعض المواطنين المغاربة غير التونسيين فكتب اليه الباى رسالة وبخه على ذلك ، واغتنم الفرصة وذكر له بأنه علم بكونه يقدم اعانة ومساعدة للامير عبد القادر وعنفه على ذلك مدعيا ان علاقة تونس مع فرنسا حسنة ولا يمكن ان يعين من يثور عليها ، ومما ذكره في هذا المعنى قوله : « اما بعد فانه بلغنا أنك كتبت بصبرتات (جوازات) لاناس من غير ايالتنا القائمين على حكام الدولة المفخمة دولة المعظم سلطان الفرنسيس وكذلك بلغنا ان عندك خلطة مع عبد القادر باعانته في بعض مهماته فتغيرنا من سماع ذلك لان دولتنا مع دولة فرنسا في غاية المحبة والصفا (كذا) لا تعين القائم عليها بوجه مثل غيرها من احبابنا الدول » (12) .

وقد رد عليه كرطوزو برسالة طويلة برر فيها قضية الجوازات بكون : « الذي اعطيناهم الباصابورات ناس مساكين وأغراب (كذا) وهما من دولة المغرب ولم قدروا (كذا) على خلاص الباصابور من قلة ما بايديهم » يعني من مال . وبرر صلاته بالأمير عبد القادر بقوله : « ولي عليه مقدار ستة ذا

---

(11) أرشيف الحكومة التونسية (أ.ح.ت.) ، صندوق 78 ملف 229 وثيقة رقم 4 .
(12) نفس المصدر . وثيقة رقم 5 .

ألف (كذا) ريال ترتبت لي عليه من المقضيات الذى كنا كنقضي (كذا) له » وأوضح بانه اذا قطع صلاته معه « ربما يضيعوا ذاك (كذا) الدراهم » .

وأعلن له في الاخير بانه مع ذلك هو مستعد لقطع العلاقات مع عبد القادر ، وختم رسالة باعلانه بان سلطان المغرب الاقصى يتصل به كذلك ليقضي له مآربه (13) . وذلك ليظهر له مركزه الكبير ويزيل بعض الشكوك التي اصبحت تساوره نحوه .

ان هذه الوثائق الثلاث تكشف بوضوح ضعف بايات تونس وعدم قدرتهم على مواجهة ضغط الفرنسيين مما جعلهم يقلبون ظهر المجن للامير عبد القادر ولكثير من زعماء ثورات الجزائر في القرن الماضي .

غير ان هذا الموقف لم يكن نابعا عن عقيدة وايمان منهم . والدليل على ذلك ان بلاد تونس كانت على الدوام ملجأ لأحرار الجزائر المكافحين الذين ترغمهم الظروف على اللجوء إليها . كما ان الشخصيات الرسمية التونسية من غير البايات كالوزراء والولاة والاغاوات في العاصمة والاقاليم كانت لهم مواقف مشرفة تكشف عنها الرسائل التي يزخر بها ارشيف تونس الوطني . وهذا الموقف المشرف بقي حتى ثورة 1954 حيث كانت تونس قاعدة هامة لثورة التحرير الكبرى ، وعانى الشعب التونسي بنفس القدر الذي عاناه الشعب الجزائري من المحن وهو ما يؤكد وحدة الشعبين عبر التاريخ .

---

(13) نفس المصدر . وثيقة رقم 6

نص الوثائق الثلاث

الوثيقة الأولى :

الحمد لله وحده (14) ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى .

مولانا الأمير المجاهد ابو العباس سيدي أحمد ابن المنعم المقدس المطهر سيدي مصطفى باشا باي محروسة تونس وسلطان افريقية نصره الله واعطاه ما يحب ويشاء والسلام على على (كذا) مقام مولانا ورحمت (كذا) الله وبركاته نسأل الله رضاكم موجبه والمنهى لسيادتكم انه كتب لنا المجاهد سيدي الحاج عبد القادر ابن سيدي محيي الدين ان اقف مع وكيله في قضاء مآربه بجبل طارق وشراء آلة الحرب الذي يحتاج لما يعلم انني خديمكم ونعلم انه محب لجنابكم فاقفنا (كذا) مع وكيله خفية حتى قضى المآرب وتوجه على تطاون (كذا) فاذا بلغ سيدنا خبر عن ذلك فقد انهيناه اليه قبل ان يصل حضرتكم الشريفة وليامرنا بأمره المطاع ربما يعود الكتب (كذا) الينا المجاهد في قضاء ما يحتاج من أمور الحرب فان اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج امتثلنا امرك والا تأخرت ولا نتعدى امرك ان شاء الله : والواصل اليكم على يد خديمكم سيدي محمود كاهية عسكر كدان (كذا) واما قلة المكاتبة لمولينا (كذا) هي رعيا للادب (كذا) فان كان لسيدنا غرض شرفنا بقضائه وما نحن الا خدام سيدنا والسلام في 5 محرم الحرام عام فاتح 1257 (15) كتب عن اذن خديمكم زاكي كرطوزو وكيلكم بجبل طارق .

---

(14) أ.ح.ح. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 4 . في نهاية الرسالة طابع صاحبها الدائري وكتب داخله : عبده 1257 زاكي كرطوزو وكيل وجق تونس بجبل طارق

(15) الموافق 27 فيفري 1841 .

حضرة مولانا الامير المجاهد ابو العباس سيدي احمد ابن المنعم المقدس المكرم سيدي مصطفى باشا باي محروسة تونس وسلطانها
اعز الله نصره واعطاه ما يجب ويليق والسلام على مقام مولانا ورحمة الله وبركاته نسأل الله دوام وجودكم
والمنهي لسيادتكم انه كتب لنا المجاهد سيدي الحاج عبد القادر بن سيدي محي الدين ان اخانا مع وكيله في قضاء مسائل من
جبل طارق وشراء الذخائر التي يحتاج لها انني خديمكم ونعلم انه يحب لجنابكم ما فعلنا مع وكيله حتى يقضي الشارع
ويرجع على تطاون فاذا بلغ سيدنا خبر ذلك فنرجو ان ينال اليه مثل ما بحضرتكم من الحظ وليأمرنا باي الكلام ...
يرجع الكتب الينا العام في قضاء الحاج من امور الحرب فانا اذن لنا سيدنا بقضاء ما يحتاج اشتغلنا به والا ...
لا نستعمل امرا ان شاء الله . والواصل اليكم من بين يديكم سيدي محمود لا يعز عسكر كران وانما قلنا الكاتبة له ...
على رعيا ... فان كان الشرع لنا غرض ... وما فيه الاحترام سيدنا والسلام في 5 محرم الحرام عام 1257

كتب عن اذن خديم ... وكيلكم ...

الوثيقـة الثـانية :

الحمـد لله وحده (16) .

المحترم بخدمتنا المنسوب لدولتنا الكولير (كذا) كرطوزو وكيلنا بجبل الطارق (كذا) اما بعد فانه بلغنا انك كتبت بصبرتات (17) لانـاس من غير ايالتنا القائمين (كذا) على حكام الدولـة المفخمـة دولـة المعظـم سلطان الفرنسيس وكذلك بلغنـا ان عندك خلطـة مع عبد القـادر باعانته في بعض مهماته فتغيرنـا من سمـاع ذلك لان دولتنـا مع دولـة فرانسا في غايـة المحبـة والصفـا (كذا) لا نعين القائم عليهـا بوجه مثـل غيرهـا من احبابنـا الدول لا نعين القائم عليهم بوجه بمقتضى المحبـة وشروط الوفـاء وانت من اتبـاع دولتنـا فالواجب ان لا تفعل ذلك ولا تقرب حمـاه بحيث لا يتطرق اليك وهم في امثـال هذه النوازل التي لا نرضاها ولا نمضيهـا ولا بد ان تحرر لنـا مكتوبـا في هذه النازلـة صدر هذا من الفقير الى ربه تعلى (كذا) عبده المشير احمد باشا باي صاحب المملـكة التونسية 30 جمـادى الاولى من سنـة 1263 (18) .

الوثيقـة الثـالثـة :

الحمد لله وحده (19) ولا يدوم الا ملـكه .

أسعـد الله وجود المؤيد بالله سيدنـا احمد باشا سلطان افريقية (كذا) السلام عليك ورحمت (كذا) الله وبركاته امـا بعد قبضنا

---

(16) أ.ح.ت. . صندوق 87 ملف 929 وثيقة رقم 5 . ولا يوجد عليها طابع الباي .
(17) أي جوازات السفر من الكلمة الفرنسية : Passeport
(18) الموافق مـاي 1847 .
(19) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 6 ليس عليها طابع صاحبها .

اوردنه وحرره

المحترم بدرجتنا المنسوب لدولتنا الكريم بالحضور وكيلنا بمحل الرضا ر

اما بعد فانه بلغنا انك كتبت بصيغة ... الناس حيرا امانتنا الفلانيين

مع حكام الدولة المحمية دولة المعظم سلطان الفرنسيس وكرلك بلهسنا

ان عندك خلطة مع عمالها ورعاياته في بعض معاملاته بتغيير ما

من سماع خلطات دولتنا مع دولته وانسلاخ عن غاية المحبة والصحبة

ما نعين القايم عليها بوجه مثل غيرهم كما من احبابنا الدول نعين

القايم عليهم بوجه بمقتضى المحبة ... الوفا وان من اتباع

دولتنا بالواجب ان لا تفعل ذلك ... شكره

وهو في امثال كثرة السوارل الله ... عمر المستقيم

مكتوب بلج كثرة النازلة صدر ... في جمادى الاولى

احمد باشا باي صاحب المملكة التونسية

سنة [illegible]

الاعز كتابك تاريخه جمادى الاولى عام 1263 وقرأناه وفهمنا مضمنه (كذا) وخطابه وسفدنا (كذا) منه صحتكم وعافيتكم لله الحمد أبقاكم الله حرزا منيعا وما ذكرت لنا سيدنا على سبة(كذا) البصابورات (كذا) الذي اعطينا للناس الذى لم هما (كذا) من دولة سيادتك تعلم سيدى ان الذى اعيطنا لهم البصابورات ناس مساكين وأغراب (كذا) وهما (كذا) من دولة المغرب واستحرموا بجانبنا وشفقنا من حالهم واعطيناه لهم لله خالصا واعناهم بما اطلق الله به على ايدينا وهذا عندك فيه الحض (كذا) الجزيل من الثواب ومن الآن ان شاء الله لما قبضنا الوردى (كذا) من سيادتك لم باقى (كذا) نعطيه اكثر للذي لم هو من دولتنا وما ذكرت لنا سيدنا على اننا كنعينوا (كذا) (20) سيدى الحاج عبد القادر محيى الدين تعلم سيدى ان ذلك صحيح تراه صاحبنا من القديم مدة من سنين ونحن كنكاتبوا مع بعظنا (كذا) وكل ما كيكتب لنا عليه كنقضيه له ولي عليه مقدار ستة ذا ألف (كذا) ريال ترتبت لي عليه من المقضيات الذى كنا كنقضي له ونحتاج لما يكتب لي نجاوبه لانه في مكاتبه كيذكر لي يبعث لي الدراهم واذ (كذا) انقطع عليه الجواب ربما يضيعوا ذاك الدراهم (كذا) والآن لما اشتكوا لك بنا وانت طلبتنا في ترك اعانته وكتابته ودخلوا في صار (كذا) سيادتك فأنت طلبتنا في ذلك نترك كتابته على الرأس والعين وتحقيق لما نفعل ذلك يضيع لنا المال الضيع المذكور ولكن على وجهك من بعدها يكون اكثر من ذلك لم يضرنا من فضل الله وسيادتكم وسيدى ج (كذا) عبد القادر المذكور تعرفوا بالتحقيق انه لم عنده

(20) يلاحظ على صاحب الرسالة انه يكتب بالعامية المغربية بحيث يدخل حرف الكاف على الأفعال .

(كذا) هنا في جبـل الطريق (كذا) ولا في بلدان الروم من يثيق (كذا) به يفش له سره ما عدا نحن لاجل هذا لما نقطعوا عليه يضيع (كذا) لنـا ما ذكر اعلاه وكذلك الشريف العلوى المنصور بالله مولانـا عبد الرحمـن سلطان المغرب حتى هو كيكتب لنا على سره ومصالح خبر (كذا) كنجاوبه وكيعنـا (كذا) بأمر فلله الحمـد واذا خصكم ما يقضا (كذا) نحن على الخدمة والطاعة والمولى يحفظكم ويرعاكم بمنه آمين والسلام في 17 جمادى الثانيـة 1263 (21) خديمكم زاكي كرطوزو .

(21) الموافق جوان 1847 .

[illegible]

وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 (*)

أ ـ موقف الأمير عبد القادر :

في خلال عام 1871 ، الذي عمت فيه الثورة المسلحة وسط الجزائر ، وشرقها ، بزعامة الباشاغا محمد المقراني ، والشيخ امزيان بن علي الحداد ، صدرت من الأمير عبد القادر الذي كان يعيش في منفاه بدمشق الشام ، تصرفات خاصة اعتبرها الفرنسيون استنكاراً منه لهذه الثورة ، ومعارضة لزعمائها المقرانيين بصورة خاصة . وهذه التصرفات تتلخص في معارضة الأمير الشديدة لحركة ابنه محيي الذي قدم خفية الى منطقة حدود الجزائر الشرقية ، وحاول ان يقوم بحركة مسلحة ضد الفرنسيين الى جانب ثوار اولاد خليفة ، وصبايحية زمالات الحدود بمنطقة سوق اهراس ، في الطارف ، وعين قطار ، وبوحجار ، مع محمد الكبلوتي ، وافراد عائلة رزقي الخنانشية .

وقد برر الفرنسيون ذلك بزعم ان المقرانيين في صدر عهد الاحتلال الفرنسي ، وقفوا الى جانب الجيس الفرنسي ، وعارضوا ثورة الأمير عبد القادر . وهم الذين ساعدوا الفرنسيين على عبور

(*) نشر بمجلة الثقافة . عدد 39 (الجزائر – يونيو - يوليو 1977) ص 11–24 .

مضيق جبـال البيبان الصعب عام 1849 الذي يعتبره الأمير آنذاك من مناطق نفوذه وأدى هذا العمل الى نقض وفسخ معاهدة تافنة وتجدد حالة الحرب بينه وبين الفرنسيين .

غير ان سيـاق الأحداث ، و الوثائق الجديدة التي كشفنـا الستـار عنهـا أخيرا ، تخالف هذا الرأي وتناقضه . فلقد كان المقرانيون في صدر الاحتلال الفرنسي ينقسمون الى فرعين كبيرين : فرع اولاد الحاج ، وفرع اولاد عبد السلام . وبعد ابرام معاهدة تافنة مع الامير عبد القادر عام 1837 ، وسقوط مدينـة قسنطينة في يد الاستعمـار الفرنسي ، دخل محمد عبد السلام العايب ، زعيم فرع أولاد عبد السلام ، في خدمـة الأمير عبد القادر ، فعينـه خليفـة على ولايتـه الخامسة مجانة (1) في حين دخل أحمد المقراني زعيم فرع أولاد الحاج في خدمة الفرنسيين ، فعينوه قائدا على بني عامر في احواز سطيف ، ثم عينوه خليفة على مجانة بعد ذلك (2) ليضربوا به الامير عبـد القـادر وخليفتـه معـا على ما يظهر .

وهذا الوضع الجديد في صفوف المقرانيين له ما يبرره ، ذلك أن الخصومـة بين أحمد المقراني ، وابن عمه محمد عبد السلام العائب ، قديمـة ترجع الى سنوات طويلـة قبل هذا التاريخ ، وتتصل بالتنافس الشخصي والعائلي حول السلطة والنفوذ . فبعـد حملـة الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمـة عام 1830 قرب الحاج أحمـد باي زعيم بايلك قسنطينـة اليـه أحمد المقراني ، وأبعـد

---

(1) M. AMERIT : *Les mémoires d'Ahmed bey, dernier bey de constantine* Revue Africaine, n° 418-419, Alger 1949, p. 105.

(2) E. MERCIER : *Le Bachagha Mokrani et les causes de l'insurrection de* 1871. Paris 1900, pp. 15-16.

عنه محمد عبد السلام العائب رغم كونـه كان صهرا له ، متزوجا بنته عيشوش المقراني ، وهو أمر غريب حقـا ؛ ولا نعرف الاسباب الحقيقية لذلك .

وكان من الطبيعي جدا ان يميل الامير عبد القادر الى محمد عبد السلام ويعينه خليفة له على اقليم مجانة ، بدلا من أحمد المقراني الذي كان في خدمـة خصمـه ومنافسه الحاج أحمد باي (3) .

وقد نصب الفرنسيون احمد المقراني خليفة لهم على مجانة في شهر أكتوبر 1838 ، ولـكنه لم يلتحق بهـا الا في العام الموالي بعد انجـاز عملية عبور مضيق البيبان التي لعب فيها دور المخبر لصالح الفرنسيين . ولم يستطع محمد عبد السلام العايب خليفة الأمير عبد القادر أن يقف في وجهه ، ووجه جيش الاحتلال الفرنسي . واضطر ان ينسحب الى زمورة في الشمـال الشرقي بعد ان احـاط الأمير عبد القادر في تاكدمت بالامر (4) ، وكان هذا الفشل على ما يظهر هو السبب والدافع الحقيقي ، الذي حفز الأمير على عزله عن مجانة وتعويضه بأحمد بن عمر (5) ؛ وانجر عن حادث عبور مضيق البيبان ، تجدد الحرب بين الأمير عبد القـادر وجيش الاحتلال الفرنسي بصورة مباشرة في نوفمبر 1839 (6) .

---

(3) الأمير محمد : تحفة الزائر في مـآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر . (الاسكندرية 1903) ج1 ، ص 199ـ200 .

(4) Henri GARROT : *Histoire générale de l'Algérie*. (Paris 1910), pp. 824-826.

(5) Louis RINN : ***Histoire*** *de l'insurrection de* 1871 *en Algérie*. (Alger 1891), pp. 19-25.

(6) Alfred RAMBAUD : *L'insurrection algérienne de* 1871. (Paris 1891), pp. 10-12.

ان سياق هذه الاحداث ينفي ان يكون المقرانيون قد تحزبوا ضد الأمير عبد القادر ، لان البعض منهم كانوا في خدمته ، ومن أوثق المتعاونين معه . أما عمل أحمد المقراني مع الفرنسيين فهو أمر شخصي من جهة ، ووظيفته تحتم عليه ذلك من جهة أخرى . ثم ان جهود هذا الرجل مع الفرنسيين تستهدف في الحقيقة القضاء على خصمه الحقيقي ، ابن عمه محمد عبد السلام العايب ، وشاءت الظروف ان يتم ذلك في اطار محاربة الأمير عبد القادر ، ومع أسياده الفرنسيين ذوي النعمة الزائفة عليه .

اننا لم نلاحظ ، فيما عثرنا عليه من رسائل الأمير ، على ما يدل على غضبه من المقرانيين ، بل على العكس ، فانه ابدى عطفه عليهم بعد محنتهم الكبرى عام 1871 وما بعده ، عندما هاجروا بجموع غفيرة الى تونس . وهذا يعني عدم وجاهة آراء الفرنسيين تجاه موقف الأمير نحو زعماء ثورة 1871 ، خاصة المقرانيين منهم .

أما معارضة الأمير عبد القادر لابنه محيي الدين فقد تمت على الشكل التالي (7) :

فبينما كان محيي الدين يقوم بنشاطه الثوري في منطقة الحدود الشرقية ، اتصلت الحكومة الفرنسية بالقائم بأعمال قنصليتها في دمشق ، ليطلب من الأمير عبد القادر ، ان يعلن استنكاره لنشاط ابنه ، فحصل لديه رد فعل سيىء وشديد ، يثير الدهشة والاستغراب . وقد عزت اليه المصادر الفرنسية

(7) للاطلاع على المزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ، انظر دراستنا : دور محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 ، وموقف أبيه والسلطات التونسية منه ، مجلة الأصالة ، عدد 38 ، (الجزائر - أكتوبر 1976) ص 25-62 .

تحرير عدد من الرسائل الى جهات كثيرة ومختلفة ، قبح فيها عمل ابنه ، ووصمه « بالجنون » ، واعتبره « عاصيا » . ومن هذه الرسائل :

— واحدة الى حكومة تور الفرنسية ببوردو ، استنكر فيها استغلال اسمه لإثارة سكان الصحراء (8) .

— والثانية الى القنصل الفرنسي بطرابلس الغرب طلب منه العمل على اعادة ابنه ، وأحاطه علما بأنه كاتب الوزير التونسي خزندار ، والقنصل الفرنسي في شأنه فلم يردا عليه (9) .

— والثالثة الى القائم بأعمال القنصلية الفرنسي بدمشق جاء فيها قوله : « بأن عدو الله ، وعدوي ، وعدو نفسه ، المجنون ، محيي الدين ، وصل الى الحدود بين حكومة تونس ، وحكومة الجزائر » . وطلب منه الحصول على اذن لتوجيه نداء الى سكان الجزائر « « ليتحقق الناس انني برىء منه ومن فعله » (10) .

— والربعة الى ابن عمه قاضي معسكر ، الطيب بن المختار ، طلب منه ان يحذر الناس من اتباعه « فإنه محض عبث » (11) .

— والخامسة في شكل نداء وجهه لسكان الجزائر حذرهم من مغبة اتباع ابنه الذي عبر عنه « بالشقي » هو ومن انضم اليه .

---

(8) بتاريخ 20شوال 1287 (3 جانفي 1871) . انظر : المبشر . عدد 736 بتاريخ 2 فيفري 1871 .

(9) بتاريخ 18 ذو القعدة 1287 (9 فيفري 1871) . انظر : A.O.M. Carton x 2

(10) بتاريخ منتصف محرم 1288 (9 أبريل 1871) . أنظر : المبشر . عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

(11) بتاريخ 20 محرم 1288 (4 أبريل 1871) . أنظر : المبشر عدد 753 بتاريخ 1 جوان 1871 .

وأعلن انه سيتبرأ منه اذا رفض الانصياع الى اوامره ، وطلب منهم أن يطردوه من بينهم (12) .

هكذا أثار عبد القادر ضجة كبيرة بهذه الرسائل ، كانت أكثر انتشارا من عمل ابنه في منطقة الحدود . وقد يكون لهذه الضجة تأثير في اضعاف حركة ابنه ، وهي التي أدت الى اخفاقه ، وانسحابه من الميدان . كما قد يكون من أسباب هذه الضجة ، الموقف السلبي الذي وقفه المقرانيون من ثورته في بداية الاحتلال والذي أدى الى نقض معاهدة تافنة عام 1839 ، وعودة الحرب بينه وبين الفرنسيين في نفس العام ، ولكن الوثائق التي سنوردها فيما بعد تعارض هذا .

ان الاسباب الحقيقية للضجة الكبيرة التي أثارها الأمير عبد القادر ضد ابنه محيي الدين ، ترجع في نظرنا الى الأمور التالية :

أولا : ضغط الحكومة الفرنسية عليه ، وهو أسير لها حتى في منفاه بدمشق ، لأنها هي التي تنفق عليه ، وعلى أفراد عائلته ، وليس من السهل عليه أن يتخلص من نفوذها المادي والادبي عليه ، خاصة وان ظروف الشام آنذاك كانت مضطربة ، والدولة العثمانية في حالة ضعف وانهيار لا تقدر على حمايته ، واعالته ، هو وأسرته اذا ما حاول التخلص من الابوة الفرنسية عليه .

---

(12) بتاريخ أواخر المحرم 1288 (20 أبريل 1871) . أنظر : المبشر عدد 754 بتاريخ 8 جوان 1871 .

ثانيا : عاطفة وشفقة الابوة المتقدة في نفسه على ابنه ، والتي جعلته يخاف عليه من مخاطر لا يعلم نتائجها ، فأثار تلك الضجة الكبيرة ضده حتى يرغمه على التراجع بسرعة .

ثالثا : خوفه من أن يؤول ابنه الى نفس المصير الذى انتهى اليه هو نفسه خلال مقاومته الكبرى ، والطويلة ، في صدر الاحتلال الفرنسي ، وهو مصير مؤلم طبعا .

أما المقرانيون ، فالدليل على أن الأمير لم يكن ضدهم ، ولا يحقد عليهم ، هو قيامه بمراسلة السلطات التونسية ليستوصيها بهم خيرا بعد أن هاجروا الى هناك . ومما ذكره في رسالته الى الوزير التونسي رستم ، قوله : « فان ولدنا الشريف الأثيل السيد الحاج محمد بن بوزيد المقراني ورد علينا بالديار الدمشقية المحروسة ... ثم المأمول من السيادة أن تستوصوا خيرا بولدنا المذكور ووالده ، واخوته ، وان تلاحظوهم بالمساعدة فيما يعرض لهم من الأمور وأن لا تقطعوا على المهاجرين كافة ما تعودوه من احسانكم وتواصل افضالكم » (13) .

وفي رسالة أخرى الى الوزير خير الدين قال له : « وانه بلغنا وصول الفئة المقرانية وأولاد يلس الى الحاضرة ملتجئين الى سطوتك التي هي أقوى ما يشد به الملتجىء أزره ، ويعضد أمره ، وهم في هذا لا شك مصيبون في اجتهادهم ظافرون بنجاح مرادهم » ثم أضاف : « ومع هذا فلا نخلي كتابنا هذا من تقديم الرجاء الى مقامها الاسما (كذا) ، والتوصية النافعة الى جنابك الاسنى

---

(13) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 . وثيقة رقم 66 بتاريخ 4 جمادى الأولى عام 1283 الموافق 13 أكتوبر 1866 . وهو خطأ على ما يظهر لأن المقراني في هذا التاريخ لم يثر بعد . وقد يكون الكاتب والناسخ للرسالة قد أخطأ في وضع التاريخ .

بأن تشملهم بلحظـة تخلصهم من غوائل الدهر وتنقذهم من شرك الـكدر والقهر » . ولم يكتف بهذا الاقتراح والتوصيـة فطلب منه ، فيمـا اذا كانت الظروف غير مناسبـة بتونس ، قائلا : « والا فأشيروا عليهم بالتوجه الى هذه الاقطار عسى الله أن ييسر عليهم فيهـا بلوغ الاوطار » ، واستوصاه خيرا بعد ذلك بمن دعـاه : « عوض ولدنـا السيد مصطفى العقبي » (14) .

وفي رسالته الى الوزير خزندار عبر عن نفس الرغبة في الاعتناء بالفئـة المقرانية ، وأولاد يلس ، ورعاية عوض ولده مصطفى العقبي ، او توجيههم جميعـا الى الديار الدمشقية (15) .

ان هذه الرسائل دليل واضح على ان الأمير عبد القادر يعطف على المقرانيين ، وأن معارضته لابنه خلال ثورة هؤلاء لم تكن بسبب كرهه لهم ، أو مواقف بعضهم ضده خلال ثورته في صدر الاحتلال . وما أحوج تاريخ الجزائر الى ابراز كل وثائقه الوطنية ونشرهـا من أجل تصحيح مثل هذه المواقف والآراء المتحيزة ، والمغرضة ، التي ما انفك الـكتاب الفرنسيون يبدونهـا ويسجلونهـا حتى مسخوا تاريخ الجزائر مسخـا لا نظير له في تاريخ الشعوب الأخرى ، خاصة فترة الـكفاح الوطني خلال القرن التـاسع عشر .

ب ـ موقف الدولـة العثمـانية :

كانت الدولـة العثمانية في القرن التاسع عشر تمر بمرحلـة ضعف بسبب الانحلال الداخلي ، وتكـالب الدول الاوروبية على

(14) نفس المصدر . وثيقة رقم 65 بتاريخ غرة ربيع الثاني سنة 1289 الموافق 8 جوان 1872 .

(15) نفس المصدر . وثيقة رقم 64 بتـاريخ 25 ربيع الثـاني 1289 الموافق 2 جويلية 1872 .

تقسيمها ، وانتزاع أقاليمها ، في اطار ما دعي (بالمسألة الشرقية) . وبعد احتلال فرنسا للجزائر ، حاولت الدولة العثمانية ان تستردها على أساس أنها اقليم عثماني . فبذلت مساعي ديبلوماسية ، بل وحتى عسكرية ، من أجل تحقيق ذلك ، ولكن دون جدوى ، فسلمت بالامر الواقع (16) ، وحولت جهودها الى طرابلس وتونس ، لإيقاف اطماع الاوروبيين ، فضمت إليها طرابلس الغرب في ماي 1835 ، وحاولت ان تفعل مثل ذلك في تونس ، عامي 1836 و 1837 ، فلم توفق (17) . ولكنها لم تفقد الامل في ضمها اليها ، خاصة بعد ثورة ابن غذاهم عام 1864 حيث أرسلت المدعو حيدر افندي للتحقيق في مشاكل تونس على أمل ربطها بالدولة العثمانية ، أسوة بالاقاليم الاخرى . وهو الأمر الذي أدى الى اصدار فرمان 1864 (18) .

وفي عام 1870 ، اهتم الصدر الاعظم ، عالي باشا ، بانقاذ ما تبقى من نفوذ ، وهيبة الدولة العثمانية في شمال افريقيا ، ومنها تونس . وعندما ظهر محيي الدين بن الأمير عبد القادر في منطقة الحدود الغربية لتونس في خريف نفس العام ، أشاع أتباعه بأن جيشا عثمانيا من ستة آلاف جندي ، هو في طريقه الى تونس للسيطرة عليها ، وتحرير الجزائر ، ولوحظ وجود مخبرين اتراك في قابس ، وصفاقس ، وجربة ، ينشرون الدعاية لصالح السلطان العثماني . كما لوحظ وجود ثمانية ضباط أتراك

---

(16) انظر : أرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه احتلال الجزائر . ترجمة : عبد الجليل التميمي (منشورات الجامعة التونسية 1970) . ص 61-115 . حيث تحدث بشيء من التفصيل على هذا الموضوع .

(17) نفس المصدر . ص 87-107 .

(18) نفس المصدر . ص 106 .

يجيدون العربيـة ، والتحدث بهـا في الجنوب التونسي ، يستميلون الانصار اليهم ، ويوزعون بعض الاموال على بعض الناس (19) .

ويروى الدكتور عبد الجليل التميمي ، بأن السلطات الفرنسية نبهت الدولـة العثمانية الى ذلك ، وضغطت عليهـا ، حتى سحبتهم من تونس الى طرابلس في شهر ديسمبر ، ورحلت كذلك المؤن والذخائر الحربيةالتي وصلت الى تونس بعد ذلك في شهر أبريل 1871 (20).

فهل للدولة العثمانية يد في أحداث ثورة 1871 بالجزائر ؟ لقد كشف التميمي الستار عن رسالتين في أرشيف اسطنبول ، توحيـان بأن هنـاك صلـة بين بعض زعمـاء ثورة 1871 ، والدولة العثمانية ، وهؤلاء الزعمـاء ينتمون الى هيئـة دينية تدعى « الجمعية الخيريـة الاسلامية للجزائر المحمية » كتبوا هاتين الرسالتين الى محمود نديم باشا ، الصدر الاعظم ، الاولى في اواخر 1871 ، والثانيـة في أوائل العـام الموالي .

وجاء في الرسالة الاولى : « ان اصل محاربتنا وعصياننـا على اعداء ديننـا كان باختيـار ورغبة الدولـة العلية ، ولا حصل منـا التقصير في شيء مما رغبت الدولـة العلية ، وأشارت به علينـا بواسطـة المرحوم عالي باشا السابق وحضرة تورس باشا وما وعدنـا به من الاعانة السريـة والجهريـة بالاسلحـة والنقود » . وهذا يشير الى أن الدولـة العثمانية كانت على علم مسبق بالثورة ، ان لم تكن بايحـاء منهـا هي . وممـا يدعم هذا ، هو ان هذه الجمعية كان لها ممثلان لدى الدولة العثمانية لتنظيم الاتصال معها وتسلم الاعانات التي وعدت بتقديمهـا ، وهمـا : « الشيخ المفتي

(19) نفس المصدر . ص 107 .
(20) نفس المصدر . ص 107 .

سيدي بن المرحوم المنعم برحمة الله العلي الاكرم أمير عساكر بلدنا سابقا ، وحضرة الوجيه الفاضل السيد محمد أبو المكرم الاجل السيد علي أحد أعيان وجوه بلدنا القائمين بطريق النيابة عنا وعن كافة أهالي أقليمنا في التكلم وطلب الاعانة وغيرها » . ولقد تساءل اعضاء هذه الجمعية بمرارة عن « اسباب سكوت الدولة العلية عن انجاز ما وعدتنا به بعد تحريضنا (كذا) على القتال والعصيان .. مع أننا نحن نبلغ الخمسة ملايين وكلمتنا كلمته واحدة ، وايماننا لله الحمد ثابت وجسارتنا في الحروب سارت بها الركبان » (21) .

وفي رسالتهم الثانية كرروا ما ذكروه في الأولى وانتقدوا بشدة عالي باشا الذي ، على ما يظهر ، هو الذي وعدهم بالمساعدة ، واقترحوا في النهاية على السلطان واحدا من ثلاثة أمور كحل لمشكلة بلادهم وهي : توسيط بعض الدول لكي تسلم فرنسا بسيادة السلطان على الجزائر ، أو مطالبة فرنسا بالتنازل عن الجزائر مقابل مبلغ مالي التزموا بدفعه ، أو اعلان الحرب عليها اذا رفضت أحد الحلين الاولين (22) .

ان هاتين الرسالتين توحيان بأن الدولة العثمانية ، أو على الاقل بعض الدوائر فيها ، لها يد في ثورة 1871 والاحداث التي سبقتها . وقد يكون محيي الدين نفسه قدم الى تونس بإيحاء منها للقيام بحركته الى جانب الزعماء الآخرين . أفلا يكون المقراني ، والحداد

(21) الرسالة بتاريخ 10 رجب 1288 الموافق 25 سبتمبر 1871 . انظر التميمي ، ص 124–125 .

(22) الرسالة بتاريخ 18 محرم 1289 الموافق 28 مارس 1872 . انظر نفس المصدر ، ص 126–127 .

ضمن هؤلاء الزعمـاء الذين اتصلوا بالدولة العثمانية ؟ وهل الشيخ الحداد كان عضوا في الهيئة صاحبة هاتين الرسالتين ؟ لا نستطيع أن نجزم بهذا أو ننفيه . وليس بين أيدينـا ، مما عثرنـا عليه من الرسائل ، ما يلقي أضواء أكثر على الموضوع . واذا ما ارتبطنـا بتـاريخ الرسالتين فان الشيخ الحداد لا يكون عضوا في هذه الهيئـة لانه وقع اعتقـاله قبل ذلك في أوائل شهر جويلية 1871 ، زيادة عن كبر سنه الذي لا يسمح له بمثل هذا النشـاط السياسي الا في حدود منطقـة زاويته . وعلى العكس فقد يكون أفراد هذه الجمعيـة هم الذين حاولوا أن يواصلوا بعد ذلك ، المعركـة التي بدأهـا المقراني ، والحداد في مارس وأبريل 1871 ، كما توحي بذلك الرسالتان ، وأرادوا أن يستغلوا ذلك ، واستعداد النـاس لحمـل السلاح ، في كثير من مناطق البلاد .

ومع ان اصابع الدولـة العثمانية ليست بعيدة عن ثورة 1871 الا ان صلتهـا بالمقراني والحداد بعيدة وغير ثابتـة . والامر المعقول والمقبول هو محاولة المقراني واخيه بومرزاق استغلال اسم الدولة العثمانية ونشاطهـا ، في حفز النـاس الى الثورة وحمل السلاح تحت قيادتهمـا . أمـا الشيخ الحداد وابنه عزيز فلا تفصح الوثائق التي بين أيدينـا على أيـة صلـة لهمـا بالدولـة العثمانية الا اذا كان ذلك بالتبعية للمقراني وغيره .

وبعد ان هاجر هؤلاء المقرانيون الى تونس ، ذهب وفد من قبلهم الى الدولة العثمانية ليطلب العون المادى لهم من السلطان . فأجاب رغبتهم ، واتصل وزيره الصدر الاعظم بباى تونس ، وطلب منه ان يشملهم برعايته ومما ورد في رسالته الى الباي قوله : « فان السيد محمد بن عبد السلام ، والشيخ يلس ، والسيد عبد الرحمـن بن قندوز ، والشيخ السعيد بن أبي داود ، والسيد أحمد

ابن عبد الله ، والشيخ الكلبوتي (23) من أولاد مقراين (كذا) المقيمين الآن بالاستانة العلية رؤساء الخمسمائة نفر المهاجرين من الجزائر الى ولايتكم الجليلة لاجل السكنى والتوطن ، طلبوا من الدولة العلية مخاطبة دولتكم السامية بأن يكون لهم ولمن معهم المعاونة اللازمة من حكومتكم السنية لان الشعائر الاسلامية والخلق الجميلة الانسانية تقتضي امتداد المعاونة والتسهيلات في حق هؤلاء المهاجرين حيث إنهم تركوا وطنهم واختاروا الغربة » . وأضاف بعد ذلك قوله : « وقد أعطي لكل من المذكورين نسخة من هذا المكتوب المسمى بالتوصية فبادرنا بتعريف حضرتكم والارادة لسيادتكم والسلام » (24) .

المدخل الى الوثائق :

تعتمد هذه الدراسة على اربع وثائق تنشر لاول مرة في هذه الدراسة (*) . ثلاثة منها للامير عبد القادر ، والرابعة للصدر الاعظم العثماني .

الوثيقة الأولى : رسالة الأمير عبد القادر التي وجهها الى الوزير التونسي رستم ، يستوصيه خيرا بالسيد محمد بن بوزيد المقراني وأفراد عائلته . ومما ذكره له فيها قوله : « ثم المأمول من السيادة أن تستوصوا خيرا بولدنا المذكور ، ووالده ، واخوته ، وأن تلاحظوهم بالمساعدة فيما يعرض لهم من الامور ، وأن

---

(23) يعني بذلك على ما يظهر ، الكبلوتي ولكن الكاتب صحف الاسم . كما أنه عبر عن أولاد مقران باسم : مقراين .

(24) أ.ح.ت. صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 6 . بتاريخ 16 جمادى الثانية 1290 (11 أوت 1873) .

(*) نشرت بمجلة الثقافة كما أشرنا الى ذلك أول هذا الفصل .

لا تقطعوا عن المهاجرين ما تعودوه من احسانكم وتواصل افضالكم » (25) .

الوثيقة الثانية : رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير التونسي خير الدين يستوصيه خيرا بالمقرانيين المهاجرين الى تونس ، ومما قاله له فيها قوله : « وانه بلغنا خبر وصول الفئة المقرانية ، وأولاد يلس ، الى الحاضرة ملتجئين الى سطوتك التي هي أقوى ما يشد به الملتجيء أزره ويعضد أمره ». وأضاف بعد ذلك قوله : « ومع ذلك فلا نخلي كتابنا هذا من تقديم الرجاء الى مقامها الاسنا (كذا) والتوصية النافعة الى جنابك الاسنى بأن تشملهم بلحظة تخلصهم من غوائل الدهر وتنقذهم من شرك الكدر والقهر » . ولشدة حرصه على ايجاد حل لهم ، اقترح على الوزير أن يوجههم الى دمشق اذا تعذر عليه مساعدتهم هناك بتونس ، واستوصاه بعد ذلك بعوض ولده « السيد مصطفى العقبي » (26) .

الوثيقة الثالثة : رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير التونسي خزندار يستوصيه خيرا بالمقرانيين ، وهي نسخة طبق الأصل من رسالته السابقة الى خير الدين مع اختلاف في التاريخ (27) .

الوثيقة الرابعة : رسالة الصدر الاعظم العثماني الى باي تونس يستوصيه خيرا بالمقرانيين المهاجرين الى تونس ، ومما

---

(25) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة رقم 66 . بتاريخ 4 جمادى الأولى 1283 ، الموافق حوالي 13 أكتوبر 1866 ، وهو خطأ على ما يظهر لأن المقرانيين لم يثوروا بعد في هذا التاريخ .

(26) أ.ح.ت. صندوق 78 ، ملف 929 ، وثيقة رقم 65 . بتاريخ غرة ربيع الثاني 1289 ، الموافق 8 جوان 1872 .

(27) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 ، وثيقة رقم 64 . بتاريخ 25 ربيع الثاني 1289 الموافق 2 جويلية 1872 .

ذكره في آخر رسالته قوله : « هذا وقد أعطي لكل من المذكورين نسخة من هذا المكتوب المسمى بالتوصية فبادرنا بتعريف حضرتكم» (28) . وهذه الرسالة في الاصل كانت مكتوبة باللغة التركية ، وعربت الى العربية كما يوحي بذلك عنوانها في صدرها . ولم نعثر على الاصل ، وانما عثرنا على النسخة المعربة .

نصوص الوثائق

الوثيقة الأولى :

رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير التونسي رستم يستوصيه خيرا بالسيد محمد بن بوزيد المقراني .

الحمد لله وحده (29) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ان احسن وشي رقمته يد الأقلام وأبهى زهر تفتحت عنه الاكمام عاطر سلام يفوح بعبير المحبة صفحه ويشرق في سماء الطروس صبحه يهدى لحضرة الوزير المعول عليه في المهمات المستضاء بنبراس رأيه في الملمات عزة الدهر وبهجة العصر وزير العمالات التونسية المرعية المحمية محبنا في الله السيد رستم دامت معاليه وحسنت مساعيه ولا زال محفوفا باجلال مرتديا بأردية جمال وكمال أما بعد فان ولدنا الشريف الأثيل السيد

---

(28) أ.ح.ت. صندوق 212 ، ملف 240 . وثيقة رقم 6 . بتاريخ 16 جمادى الثانية سنة 1290 الموافق حوالي 11 أوت 1873 .

(29) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 ، وثيقة رقم 66 .

الحاج محمد بن بوزيد المقراني ورد علينا ونحن بالديار الدمشقية المحروسة ولا زال يحدث ويصف من حسن شمايلكم وكثرة فضايلكم ما يملا المسامع طربا ويقضي من تزايده عجبا وخصوصا فيما لكم على المهاجرين من الايادي الزاهرة وفيض غيوث مكارمكم الماطرة وأتى في ذلك ما يعجز عن شكره اللسان ويكل عن رقم حمده البنان ثم انه أخبرنا بما انطوى عليه خاطركم الشريف من المحبة في جانبنا والميل الينا فأحبكم الله الذى حبيتمونا لأجله واسبغ عليكم نعمه المستمدة من فيوضات أفضاله وطوله والهمكم سبيل العدل ووفقكم لصالح القول والفعل ءامين ثم المأمول من السيادة أن تستوصوا خيرا بولدنا المذكور ووالده واخوته وأن تلاحظوهم بالمساعدة فيما يعرض لهم من الامور وان لا تقطعوا عن المهاجرين كافة ما تعودوه من احسانكم وتواصل افضالكم .. (30) ولا شك ان لكم بذلك أجرا عظيما وثوابا جسيما ودمتم محفوظين وبعين العناية ملحوظين .

في 4 جمادى الاولى 1283 (21) .

المخلص عبد القادر

(الختم)

---

(30) كلمة غير مقروءة .

(31) الموافق حوالي 13 أكتوبر 1866 ويظهر أن هذا التاريخ خطأ لأن المقرانيين لم يثوروا بعد في هذا التاريخ ، اللهم الا اذا كان هذا الرجل قد هاجر الى تونس في هذا التاريخ لاسباب أخرى ، وهو غير ثابت .

الوثيقة الثانية :

رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير خير الدين ، يستوصيه خيرا بالمقرانيين المهاجرين الى تونس .

الحمد لله وحده (32) وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

الوزير المعظم والجناب المفخم ومدير أمور الامم الجامع بين مرتبتي الحلم والعلم أمير الامراء المباشر السيد خير الدين باشا أما بعد السلام التام اللائق بالمقام فاننا بخير والحمد لله ونرجو من الله ان تكونوا أنتم كذلك هاذا (كذا) وانه بلغنا خبر وصول الفيئة (كذا) المقرانية وأولاد يلس الى الحاضرة ملتجئين الى سطوتك التي هي أقوى ما يشد به الملتجيء أزره ويعضد أمره وهم في هذا لاشك مصيبون في اجتهادهم ظافرون ان شاء الله بنجاح مرادهم وكيف لا وقد أموا دولة لم تزل ولا تزال مأوى القاصد وملجأ الشارد وموردا عذبا للصادر والوارد ومع ذلك فلا نخلي كتابنا هذا من تقديم الرجاء الى مقامها الاسما (كذا) والتوصية النافعة الى جنابك الاسنى بأن نشملهم بلحظة تخاصهم من غوائل الدهر وتنقذهم من شرك الكدر والقهر فانهم ما صرفوا أعنتهم الا الى الالتماس من خيرها ولا طارت قلوبهم الا تيمنا بطيرها وأنتم أبقاكم الله عين أفاضلها وواسطة عقد أماثلها فنرغب اليكم المساعدة في نيل ما أملوه وبلوغ ما سألوه هذا اذا ساعد الوقت وتبرأ أمرهم من اللوم والمقت والا فأشيروا عليهم بالتوجه الى هذه الاقطار عسى الله ان ييسر عليهم فيها بلوغ الاوطار . ثم ان عوض ولدنا السيد مصطفى العقبي ما دخل علينا

(32) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة رقم 63 .

ولا تردد الينا الا وهو يذكر مزاياكم السنية وسجاياكم البهية ما ملا القلوب حبرة والمسامع مسرة فالمرجو منكم ومن سنى همتكم ان تلاحظوه بعين المحبة وتعاملوه معاملة الاحبة فانه بذلك جدير والله ولي التيسير والسلام . في غرة ربيع الثاني في سنة 1289 (33) .

تعليق من المرسل اليه :

يستفسر عمن يوصي عليهم . صح .

المخلص عبد القادر الحسيني

(الختم)

الوثيقة الثالثة :

رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير التونسي خزندار يستوصيه خيرا بالمقرانيين

الحمد لله وحده (34) وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

سعادة الوزير الاعظم والجناب الافخم لواء العدل على رؤوس الامم سيد الوزراء الافاضل جامع أسباب الحلم والفضائل أمير الامراء السيد مصطفى باشا بالدولة التونسية أيد الله دولته الباهرة وأبر صولته القاهرة أما بعد السلام التام اللائق بالمقام أنه بلغنا

(33) الموافق 8 جوان 1872 .
(34) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 64 .

دخول الفيئة (كذا) المقرانية وأولاد يلس في دائرة دولتكم السامية لائذين بحماها المنيع مستعطفين جنابها الرفيع مشهرين الفرصة في دفع ما حل بهم من عظيم القصة ولقد سلكوا في قصدهم هذا جادة الاصابة وعثروا على عين الاجابة وجمعوا دواعي الهناء وأسبابه فالمأمول من الجناب السامي تصديق ظنهم والاعتناء بشأنهم وأن يلاحظهم بعين الرحمة ويساعدهم بيد النعمة فانه أبقاه الله حري بالإحسان اليهم حقيق بالتعطف عليهم اذ قد طالما أمه الناس من كل مكان سحيق فخامرتهم مكارمه مخامرة الرحيق فهو الذي وقف الثناء بسوقه وجرى النداء متبخترا برحابه زاد الله باع فضله امتدادا وشعاع كرمه اشتدادا ونحن نعلم انهم سيشاهدون من حضرتكم العلية خطا يقبل في معرض الكمال وطالع سعد يطلع عليهم بنيل الآمال جريا على سنتكم الحسنة وتطبيقا لسيرتكم المستحسنة ولكن قصدنا من السيادة على الفور بالمساعي الناجحة والمتاجر الرابحة ثم اذا كان في الالتفاف اليهم مانع وعن الاقبال اليهم قاطع فاشيروا عليهم بالتوجه الى هذه البلاد الشامية فان الاسباب المعاش (كذا) ضافية .

ثم ان عوض ولدنا السيد مصطفى العقبي ما دخل علينا ولا تردد ثانية الينا الا وهو يذكر من مزاياكم السنية وسجاياكم البهية ما ملا القلوب حبرة والمسامع مسرة فالمرجو من سني هممكم أن تلاحظوه بعين المحبة وتعاملوه معاملة الاحبة والله ولي التوفيق الى أقوم طريق ونحن على محبتكم والدعاء لكم ما دمنا والسلام .

في 25 ربيع الثاني في سنة 1289 (35) .

الداعي المخلص عبد القادر الحسيني

(الختم)

(35) الموافق 2 جويلية 1872 .

تعليق من المخاطب بها :

يجاب بأن مهاجرة هؤلاء تقتضي معاملتهم بمقتضاها لا سيما وقد انضم لذلك تعريفكم بهم ووصايتكم ولئن لم يقع ما يدل على .. (36) بهم فان سبب ذلك غير خفي عن جنابكم لما هو مقرر لديه من لزوم اعتبار حالهم سياسة .

الوثيقة الرابعة :

رسالة الصدر الأعظم الى باشا تونس يستوصيه خيرا بالمقرانيين

من بيت المكاتيب بالنظارة الخارجية بالباب العالي عدد 84 .

الحمد لله (37) تعريب مكتوب من الصدر الاعظم السيد محمد رشدي باشا الى المعظم الارفع مولانا وسيدنا دام عزه وبقاه في 16 جمادى الثانية سنة 1290 (38) .

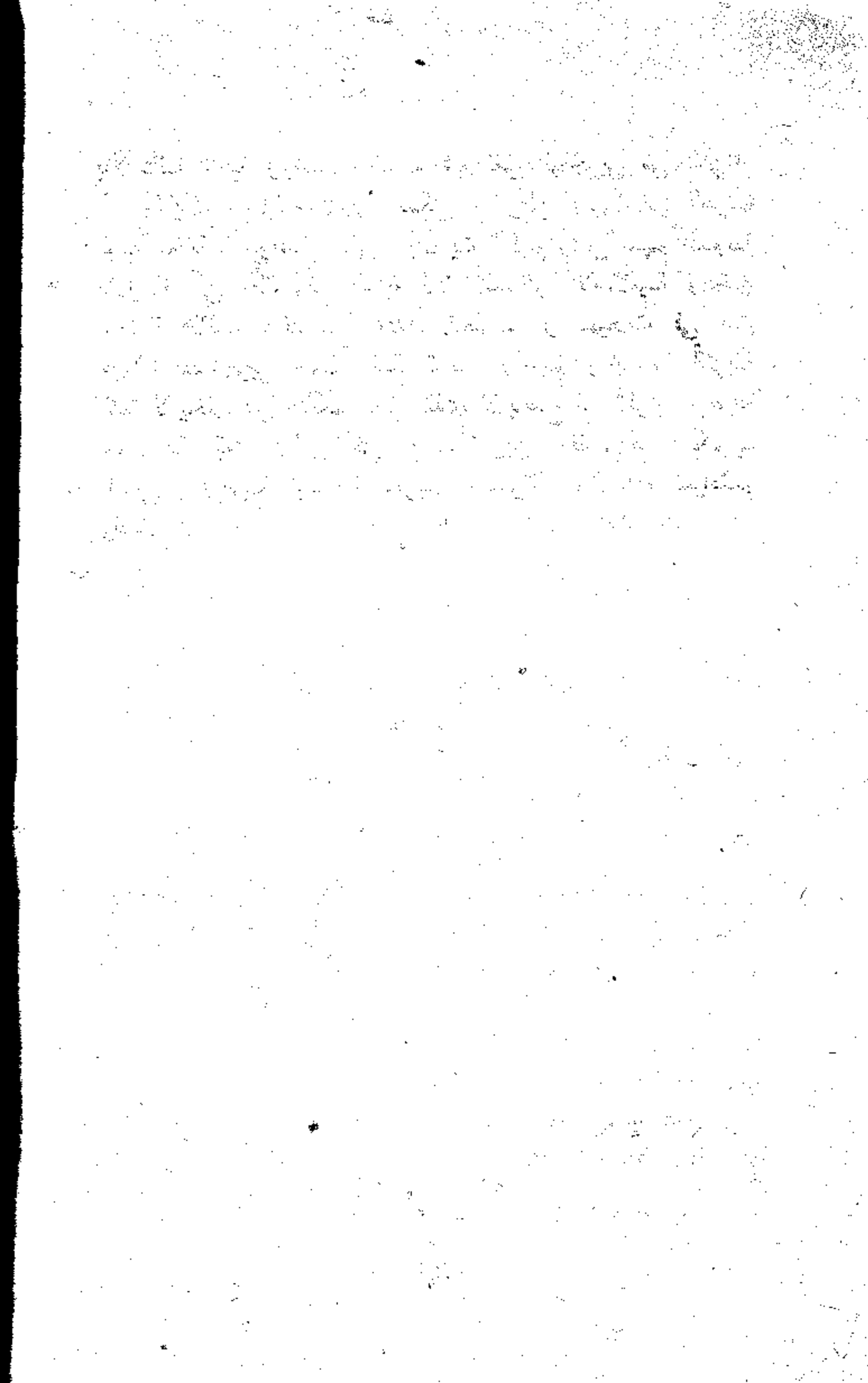
الى ولاية تونس الجليلة .
صاحب الدولة حضرة سيدي .

فان السيد محمد بن عبد السلام والشيخ يلس والسيد عبد الرحمن بن قدور والسيد السعيد بن ابي داود والسيد أحمد بن عبد الله والشيخ الكلبوتي (39) من اولاد مقراين المقيمين الآن

---

(36) كلمة غير مقروءة .
(37) أ.ح.ت. صندوق 212 . ملف 240 ، وثيقة 6 .
(38) الموافق حوالي 11 أوت 1873 .
(39) لعله يريد الكيلوتي الذي كان ثائرا في منطقة الحدود . وقد عبر على أولاد مقران باسم مقراين كذلك .

بالآستانة العلية رؤساء الخمسمائة نفر المهاجرين من الجزائر الى ولايتكم الجليلة لاجل السكنى والتوطن طلبوا من الدولة العلية مخاطبة دولتكم السامية بأن يكون لهم ولمن معهم المعاونة اللازمة من حكومتكم السنية لان الشعائر الاسلامية والخلق الجليلة الانسانية تقتضي امتداد المعاونة والتسهيلات في حق هؤلاء المهاجرين حيث انهم تركوا وطنهم واختاروا الغربة كما لا يخفى على جنابكم العالي الذى لا يحتاج الى تكرار الوصاية هنا . هذا وقد اعطي لكل من المذكورين نسخة من هذا المكتوب المسمى بالتوصية فبادرنا بتعريف حضرتكم والارادة لسيادتكم والسلام .



تدخل الأمير عبد القادر لدى سلطات تونس
لصالح الثائرين : الكبلوتي ، وبن شهرة

رغم استقرار الأمير عبد القادر في دمشق بعيدا عن الوطن ، فانه لم يتوقف عن الكفاح الديبلوماسي لصالح اخوانه من المكافحين فقد كان يتعاطف مع الثوار والمقاومين الجزائريين . ولم يأل جهدا في تقديم العون والمساعدة للذين يتصلون به ، ويطلبون منه ذلك .

فقد تدخل لصالح الثوار المقرانيين عام 1871 ، بعد أن التجأوا الى تونس . وطلب من حكومة تونس أن تأويهم في بلادها ، أو توجههم اليه في دمشق اذا تعذر ذلك عليها . فقبلت طلبه ووطنتهم في بلادها (1) .

وبعد ذلك تدخل لصالح الثائرين : محمد الكبلوتي بن الطاهر رزقي ، وبن ناصر بن شهرة ، اللذين لعبا دورا في ثورة 1871 وما قبلها ، واستعمل نفوذه ، وصداقته لوزراء تونس ، وباياتها ، ليحصل لهما على ما حصل عليه للمقرانيين .

---

(1) راجع الفصل السابق : وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 نشر بـ (مجلة الثقافة . عدد 39 . (الجزائر ، يونيو — يوليو 1977) . ص 11—24 .

تدخله لصالح الكبلوتي :

ينتمي محمد الكبلوتي ، الى عائلة بن رزقي الحناشية ، وكان لاجئا في تونس قبل عام 1871 ، بسبب ملاحقة سلطات الاحتلال الفرنسية له ولعدد من أفراد عائلته ، وقبيلته . وأخذ من هناك يشن الغارات على القوات الفرنسية وأعوانها في منطقة الحدود التي تمتد من القالة شمالا على البحر الى تبسة ومنطقتها جنوبا .

وفي مطلع عام 1871 ، تمرد جنود الصبايحية في زمالات : الطارف ، وبوحجار ، وعين قطار ، في منطقة القالة ، وسوق أهراس ، ورفضوا الامتثال لاوامر التجنيد ، والرحيل الى فرنسا للمشاركة في الحرب هناك . فاغتنم أهالي الحنانشة هذه الحوادث وانضموا الى صبايحية عين قطار على بعد 22 كلم جنوب شرقي سوق أهراس ، ومنهم أحمد الصالح بن رزقي ، والفضيل بن رزقي ، والتحق بهم محمد الكبلوتي بن الطاهر رزقي من تونس ، وحاصروا مدينة سوق أهراس لمدة ثلاثة أيام . وقطعوا خط الهاتف الذي يربطها بالقالة ، وقتلوا وجرحوا عددا من المعمرين الاوروبين ، والجنود ، والاعوان ، وفي يوم 30 جانفي 1871 خاضوا معركة عين سنور ، واستمروا يناوشون القوات الفرنسية لغاية اليوم الثامن من شهر فيفري الموالي . ثم انسحبوا الى مدينة الكاف التونسية بزعامة الكبلوتي . واستقبلهم الشيخ الميزوني بحفاوة وحرارة .

ومن هناك راسل الكبلوتي باي تونس المشير مصطفى باشا ، ورئيس وزرائه مصطفى خزندار يطلب منهما الحماية والعون له ولاتباعه ، والصبايحية اللاجئين معه . فاذن الوزير بإبعادهم

عن منطقة الحدود ، وتقديم الحبوب الضرورية لهم ، ووزعوا على أربعـة مناطق من عرش دريد ، وألح على ألا يقتربوا من الحدود حتى لا يتسببوا في مشاكل لدولته (2) .

ويبدو حسب رواية لويس رين، أن الكبلوتي عاد الى الجزائر خفية ، وشارك في عدة أحداث ومعارك خلال الثورة العارمـة التي تزعمهـا المقراني والحداد عام 1871 ، من ضمنهـا معركـة 24 جوان ، ومعركـة 30 أوت 1871 التي قتل فيها أخوه الفضيل بن رزقي . ثم انسحب الى تونس وبقي بهـا الى أن أرغم على الرحيل عام 1875 بمعية بن ناصر بن شهرة (3) .

والحقيقة ان الكبلوتي بعد التجائه الى تونس ، قام بنشاط واسع أقلق السلطات التونسية ، والاعوان الفرنسيين معا . فأخذت حكومـة تونس تبحث عنه وتلاحقه وتكلف عددا من أعوانهـا بذلك مثل مصطفى بن قطوم (4) ، ويوسف أليقرو (5) وأحمد عبده بن صميده (6) ، والطيب بن البراني (7) ، وأمير اللواء مراد عامل دريد (8) ، الذين كاتبوا كلهم الوزير خير الدين برسائل أحاطوه فيهـا علما بأخباره وتحركاته ، والبعض من هذه الرسائل كان ردا على رسائله هو في نفس الموضوع اليهم .

---

(2) أ.ح.ت. صندوق 212 . ملف 240 . الوثيقتـان 15و16 . بتـاريخ 3 ذي الحجة 1287 (جـانفي 1871) .

(3) Louis Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie. (Alger 1891) p. 614 - 623

(4) أ.ح.ت. نفس المصدر . وثيقة رقم 21 بتاريخ 2 صفر 1288 (أواخر فيفري 1871)

(5) نفس المصدر . وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الأولى 1288 (أوت 1871) .

(6) نفس المصدر . وثيقة رقم 28 . بتاريخ 14 جمادى الأولى 1288 (أوت 1871) . ووثيقة رقم 32 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) .

(7) نفس المصدر . وثيقة رقم 33 بتاريخ 12 شوال 1288 (جانفي 1872) .

(8) نفس المصدر . وثيقة رقم 14 بتاريخ 25 جمادى الأولى 1289 (31 جويلية 1872) ووثيقة رقم 11 بتاريخ 4 ذي القعدة 1289 (جانفي 1873) .

وبسبب هذا النشاط المكثف ضده غادر تونس بحرا عن طريق ميناء حلق الوادي ، ولكنه عندما وصل الى مالطة ، عاد خفية الى تونس لكونه لم يطق صبرا على مفارقة أهله وولده . ويبدو أن العيون كانت تترصده وتلاحقه ، ولذلك غادر تونس مرة أخرى في طريقه الى الشام . وكتب من مالطة رسالة الى الوزير التونسي خزندار أخبره فيها بقوله : « انني لما صفرت (كذا) من هناك من مرصت (كذا) حلق الوادي وبلغت مالطة رجعت منها الى بيتنا شفقت (كذا) أولادي لاّ أنني (كذا) لا طقت صبرا على الكبد وراني رجعت في طاعة الدولة المنصورة نصرها الله — آمين — وبلغت الى مدينة مالطة متوجه(كذا) الى الشام بحول الله وقوته . وأولادي واخواني راهم (كذا) محاجير الى المعظم الارفع الامثل الاكمل قرة عينك وثمرة فؤادك سيدي محمد » (9) .

وعندما وصل الى دمشق ، وعلم هناك أن المقرانيين حصلوا على اذن الاقامة والاستقرار بتونس ، بسعي من الأمير عبد القادر ، طلب منه أن يتدخل لصالحه كذلك حتى يستفيد من ذلك القرار فلبى رغبته وكتب رسالة الى الوزير التونسي مصطفى خزندار شكره فيها على قبوله ايواء المقرانيين في بلاده ، وخلص بعد ذلك الى غرضه وقال له : « ثم ان القائد الكبلوتي كان حضر لطرفنا منذ شهور وهو الآن عندنا يطلب شفاعتنا فالمرجو من المقام الاسمى ، والجناب الاسنى ، أن يلحقه بهم (المقرانيين) في الاذن ، والسكن ، ويشمله معهم ، ومن يلوذ به بما يفيضه من المكارم والمنن » . وأضاف بعد ذلك قائلا : « فلا شك في رد الجواب بطاق (كذا) سراح هذا المأسور من يد الاغتراب » .

---

(9) نفس المصدر . وثيقة رقم 12 بتاريخ 26 جمادى الثانية 1289 (سبتمبر 1872) .

غير أن الوزير التونسي اعتذر عن قبول ذلك بقوله : « يجاب بما يناسب وأن الكبلوتي منعت من الاجابة لطلبه موانع سياسية» (10)

وقد تدخل له فيما بعد ، في وقت لاحق ، الصدر الاعظم العثماني محمد رشدي باشا ، وكتب رسالة الى باي تونس طلب منه فيها أن يأذن له في الاقامة بتونس (11) .

تدخله لصالح بن شهرة :

تزعم بن ناصر بن شهرة الثورة ضد الاحتلال الفرنسي بالجزائر منذ مطلع الخمسينات ، وبقي يحمل لواء الثورة حتى عام 1871 ، فاشترك في أحداث ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الواحات الجنوبية الشرقية ، وفي أحداث ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني ، وعندما اندلعت ثورة المقراني والحداد عام 1871 ، اشترك في أحداثها ، وأحداث محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في منطقة الحدود الشرقية .

وعندما فشل المقرانيون في الشمال ، وفروا الى الصحراء اشترك معهم ، ومع بوشوشة ، في مقاومة القوات الفرنسية التي كانت تلاحقهم ، ثم قاد باقي المقرانيين الفارين في عين الطيبات بأعماق الصحراء الى بلاد تونس ، فقبضت عليه السلطات التونسية وسجنته الى أن نفته عام 1875 الى خارج تونس فالتحق بالأمير عبد القادر في دمشق وقضى بقية حياته هناك حتى توفي (12) .

---

(10) نفس المصدر . صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة رقم 63 . بتاريخ 2 محرم 1290 (2 مارس 1873) .

(11) نفس المصدر . صندوق 212 . ملف 240 . وثيقة رقم 4 بتاريخ 26 ذي القعدة 1290 (جانفي 1874) .

(12) انظر دراستنا عنه بعنوان : وثائق جديدة عن ثورة بن ناصر بن شهرة (1851–1875) . مجلة الثقافة . عدد 31 . (الجزائر ، فبراير – مارس 1876) ص 39–48 .

ويبدو أنه عندما نفي من تونس طبق القرار ضده بسرعة فلم يتمكن من تدبير أموره ، وتصفية مشاكله . ولذلك طلب من الأمير عبد القادر أن يتدخل له لدى سلطات تونس حتى تعتمد الوكيل الذي عينه لتصفية أملاكه . فقبل الأمير رجاءه ، وكتب رسالة الى الوزير التونسي خير الدين باشا قال له فيها : « ان القائد ابن ناصر بن شهرة الذي خرج بأمركم السامي من المواطن التونسية ، قد استوطن عندنا بالديار الدمشقية ، وقد عاجله الامر فترك ما كان عنده من اثاث ودواب في الوطن الذي كان به . والآن أرسل وكالة مفوضة شرعية الى السيد الحاج المأمون بن المكي ليبيع له جميع ذلك فالمرجو من فضلكم وكمال عدلكم أن تلاحظوا الوكيل وتساعدوه فيما يعرض له من الامور » .

وقد صادق على هذه الوكالة من هناك محمد الميلود بن أبي طالب، ووافق الوزير التونسي على رجاء الأمير، وعلق على الرسالة بقوله : « يجاب بما يناسب وأننا أذنا من يعين الموكل من بن شهرة على قضاء مآربه ، ويعطى المكتوب الوارد من بن شهرة لسي أحمد الجويني ليكون في اعانة وكيل المذكور (13) .

وبعد عدة سنوات من هذا التاريخ ، تدخل الأمير لصالح بن شهرة كذلك ، لدى الوزير التونسي مصطفى بن اسماعيل ، في قضية لم يكشف عنها في رسالته ، وقال له : « وان ما ذكره لكم الشيخ ابن ناصر بن شهرة في كتابه هو كذلك . وقد التمس منا تعطفكم فأجبناه لذلك ونظركم أصلح » (14) .

---

(13) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة رقم 22 بتاريخ 8 محرم 1293 (4 فيفري 1876) .

(14) نفس المصدر . وثيقة رقم 25 بتاريخ 2 رمضان 1297 (أوت 1880) .

وفيما يلي نصوص هذه الرسائل التي عثرنا عليها في أرشيف الحكومة التونسية (أ.ح.ت.) .

نصوص الرسائل

الأولى : رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير التونسي مصطفى يشكره عن استقبال أولاد مقران ويستوصيه خيرا بالكبلوتي بن الطاهر رزقي .

الحمد لله وحده (15) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم .

ان أحلى ما تمتزج به كؤوس المودة ، وأعطرها تستنشقه الخواطر المستعدة ، سلام له الود مبتدا ، ودعاء يرويه الصدق عن صميم القلب مسندا ، وثناء أعبق من شميم اللبا ، وألطف من نسيم الصبا ، أخص به حضرة انسان الفضل ومقلة أماقيه ، وبارع هضبة الكمال وراقي مراقيه ، من زرت على المحاسن أطواقه وما اهتاجت الا للحامل أشواقه ، سيادة الوزير الاعظم والامير الافخم السيد مصطفى الاكرم لا زالت الايام باسمة الثغر بمعاليه والانام حالية النحر بأياديه . وبعد فقد ورد علينا من حضرتكم العلية كتاب يروق الناظر ويسر الخاطر ويخفي عند نوره النجم الزاهر ، صحبة المنال الشريف والنيشان السامي المنيف فتلقيناها بالقبول والتعظيم وقابلناها بالتكريم والتفخيم

(15) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة رقم 63 .

اعطاء لمقامهما العالي حقه ولحسن موقعها المتعالي مستحقة . وكيف لا وقد لاحا عنوانا على حسن النية وصفاء الطوية وتذكرة بالعهد الذي اسست عليه المودة . ولا يزداد على توالي الازمان الا جدة .

ثم بلغنا ما ثلث القضية وأكد لكم في القلوب المحبة القلبية ، وعطر المحافل بالاثنية والادعية وهو قبول الحضرة العلية للمهاجرين أولاد مقران فسمحت لهم بالدخول تحت انظارها السنية والانخراط في سلك مملكتها المحروسة المحمية فيا لها من مزية عظيمة لا يقام بشكرها ولا يزال الناس في طيب ذكرها . ثم إن القائد الكبلوتي كان حضر لطرفنا منذ شهور وهو الآن عندنا يطلب شفاعتنا ، فالمرجو من المقام الاسمى ، والجانب الاسنى ، أن يلحقه بهم في الاذن والسكن ، ويشمله معهم ومن يلوذ به بما يفيضه من المكارم والمنن لا زالت حضرته تقلد أعناق الرجال بقلائد نعمها وتدبج رياضي الآمال بهواطل سحب كرمها وأنتم أبقاكم الله ومتع المسلمين بطول ارتقائكم حيث إنه لم تزل عينكم في اكتساب المحامد ممتنعة السنات ، وصحيفة محياكم كلها قربات وحسنات فلا شك في رد الجواب بطلق (كذا) سراح هذا المأسور من يد الاغتراب والله تعالى يشكر مساعيكم الحميدة وعوائد نفعكم العديدة بمنه وكرمه .

في 2 محرم سنة 1290 (16) .

يجاب بما يناسب وأن الكبلوتي منعت من الاجابة لمطلبه موانع سياسية .

(16) الموافق 2 مارس 1873 .

الثانية : رسالة الأمير عبد القـادر الى الوزير خير الدين زكى فيهـا وكالة بن ناصر بن شهرة :

الحمد لله وحده (17) وصلى الله على سيدنـا ومولانـا محمد وآله وصحبه وسلم .

ما روض تأرجت أرجاؤه بأريج ريحان ، وصقلت يد الشمال صحيفـة غدرانه بأبهى من إهداء السلام ساطع نوره متضاحك نوره ودعـاء أجيب سائله ونجحت وسائله الى حضرة تاج الصدور والموالي الحائز أنواع المكارم والمعالي الوزير الاعظم أمير الامراء السيد خير الدين باشا الافخم لا زال توزن به الاوائل فيرجح ويعارض بقرته بهيم النوائب فيصبح أما بعد فاننـا لم نزل مقيمين على المحبة التي سلمت عراها من أن يعتريها نقص أو نقض مستمرين على الود الذي هو دائمـا نضر غض مواظبين على الدعاء لتلك الحضرة السنية والسؤال عن احوالها المرضية أدام الله كمالها وأبد جلالهـا وجمـالهـا هـذا والـذي ينهيـه مخلصكـم أن القـايد بن نـاصر بن شهرة الذي خرج بامركم السامي من المواطن التونسية قد استوطن عندنـا بالديار الدمشقية وقد عاجله الامر فترك ما كان عنده من أثاث ودواب في الوطن الذي كان فيه والآن أرسل وكالة مفوضة شرعية الى السيد الحاج المأمون بن المكي ليبيع له جميع ذلك فالمرجو من فضلـكم وكمـال عدلـكم أن تلاحظوا الوكيل المذكور وتساعدوه فيمـا يعرض له من الامور ولا يخفى أن هذا من الاعمال الصالحة والمساعي الناجحة وأنتم أبقاكم الله بكل فضيلة أحق والى كل خير أسبق ودمتم كما رسمتم .

---

(17) أ.ح.ت. صندوق 78 ملف 929 وثيقة رقم 22 .

في 8 محرم سنة 1283 (18)

الداعي المخلص عبد القادر الحسيني الجزائري .

ملحق 1 : الحمد لله وحده الوكالة المرصومة (كذا) أعلاه صحيحة لازمة شرعية وبذلك يشهد عبده محمد الميلود بن أبي طالب .

ملحق 2 : يجاب بما يناسب وأننا أذنا من يعين الموكل من بن شهرة على قضاء مآربه ويعطى المكتوب الوارد من بن شهرة لسي أحمد الجويني ليكون في اعانة وكيل المذكور .

الثالثة : رسالة الأمير عبد القادر الى الوزير مصطفى ليتوسط في قضية لابن شهرة .

الحمد لله وحده (19) صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

جناب ذى السجايا الحميدة و المزايا العديدة أمير الامراء الوزير الافخم السيد مصطفى بن اسماعيل (كذا) المحترم أسعد الله أيامكم وعمر بالمسرات أوقاتكم وسلام الله الاتم ورضوانه المبارك الاعم يتواليان على حضرتكم ومن لاذ بجنابكم وبعد أتم السؤال عن السنية أحوالكم أجراها المولى على وفق مرادكم فاننا نحمد الله لنا ولكم على العافية ونعمه الوافية هذا وان ما ذكره لكم الشيخ بن ناصر بن شهرة في كتابه هو كذلك وقد التمس منا تعطفكم فاجبناه لذلك ونظركم أصلح وأسئل (كذا) الله لكم التوفيق لما هو الانجح ودمتم .

حرر في يوم السبت ثاني رمضان المعظم عام 1297 (20)

الداعي عبد القادر الجزائري

(المختم)

---

(18) الموافق 4 فيفري 1876 .

(19) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 929 ، وثيقة رقم 25 .

(20) الموافق منتصف أوت 1880 .

الأمير عبد القادر
ومشروع قناة قابس والبحر الإفريقي (*)

لقد شهدت أوروبا خلال القرنين 16 و 17 حركة تجارية واسعة دعيت « الثورة التجارية » وذلك كنتيجة للكشوف الجغرافية الاستعمارية . فتجمع لدى الهيآت والشركات رؤوس أموال ضخمة ، استثمر جزء منها في حركة « الثورة الصناعية » التي ظهرت في القرن 19 . اما الباقي فقد خرجت أوروبا لميدان الاستعمار في افريقيا وآسيا وأمريكا من أجل استثمارها في مشاريع أخرى اقتصادية جريا وراء الارباح دائما ، ومن ضمنها مشروع قناة السويس .

وكان فرديناند دو ليسبس نائبا للقنصل الفرنسي بالاسكندرية خلال عهد محمد علي حتى عام 1849 ، فوثق صلته بابنه الامير سعيد ، واهتم بدراسة مشروع شق قناة في برزخ السويس تربط البحرين الاحمر ، والمتوسط ، تسهيلا للملاحة الدولية بين الشرق والغرب ، وخدمة للمشاريع الاستعمارية في المنطقة العربية وجنوب آسيا والمحيط الهادي والهندي .

وعندما عين الأمير سعيد خديويا على مصر خلفا لابيه ، سعى فرديناند لديه حتى اقنعه بمشروع القناة دون صعوبة ، بعد

(*) نشر بمجلة الأصالة . عدد 25 (الجزائر : ماي – جوان 1975) ص 97–118 .

ان أوضح له بأن اسمه سيخلد في التاريخ مثلما خلدت اسماء الفراعنة بناة الاهرامات ، بفضل هذا المشروع ، ويذكر دو ليسبس بأنه خلال عمله بمصر كنائب للقنصل ، كان يعمل على التخفيف من القساوة التي يتعرض لها الامير سعيد من طرف أبيه (1) وهو الأمر الذي جعل العلاقات بينهما وطيدة ، وسهل له النجاح في مهمته .

وهكذا وافق الخديوي سعيد على الفكرة عام 1854 ، وأمضى عقد الشركة عام 1856 . وشرعت الشركة في العمل عام 1859 . وكان من ضمن بنود الاتفاق حق الشركة في امتلاك أراضي واسعة على جانبي القناة دون مقابل وبلا ضريبة . وسعى دو ليسبس حتى حصل على موافقة الدولة العثمانية عام 1866 رغم معارضة الانجليز ، وفي نوفمبر 1869 دشنت هذه القناة في حفل بهيج كان من ضمن المدعوين اليه الأمير عبد القادر بدمشق .

مشروع قناة قابس والبحر الإفريقي الداخلي :

وفي الوقت الذي أصبحت فيه قناة السويس حقيقة واقعة ، وشرع دو ليسبس في دراسة واعداد مشروع قناة باناما بأمريكا الوسطى للربط بين المحيطين الاطلسي والهادي برز مغامر آخر بمشروع شق قناة جديدة في شمال افريقيا . هذا المغامر هو القائد روديـر Le Commandant Roudaire والمشروع هو شق قناة بين مدينة قابس في خليج قابس ؛ واحواض منخفض الجريد الداخلية غربا . فما هي حقيقة هذا المشروع ؟

---

(1) *Bulletin de la société de géographie commerciale de Paris.* (Paris 1882-1883) T. 5 pp. 338-340.

تعتبر المنطقة المحصورة بين خليج قابس شرقا ، وجبال أولاد نايل وهضبة مزاب غربا ، وجبال الاوراس والنمامشة وتبسة ، والظهر التونسي شمالا ، وجبال مطماطة والهقار جنوبا ، حوضا داخليا واسعا يدعى العرق الشرقي الكبير . ويشتمل على عدد كبير من الاحواض والشطوط الداخلية المالحة خاصة في الشمال الشرقي والغربي أهمها : منخفض الجريد الذي يشتمل على شط فجاج ، وشط الجريد ، وشط الغرسة ، ولا يبعد كثيرا عن خليج قابس بتونس . ومنخفض ملغيغ الذي يشتمل على شط عسلوج ، وشط ملغيغ ، وشط مروان ، وذلك بالجزائر غرب منخفض الجريد .

ويمتد الى جنوب أحواض ملغيغ عدد آخر من الشطوط تمثل جزءا من منخفض وادي ايغرغر الذي ينحدر من السفوح الشمالية لجبال الهقار ، والى الشمال الغربي من منخفض ملغيغ توجد بالهضاب العليا مجموعة من الاحواض والشطوط الداخلية المالحة في خط شبه مستقيم من الشرق الى الغرب أهمها : شط الحضنة ، والزاغر الشرقي ، والغربي ، والشط الشرقي ، مفصولة عن حوض ملغيغ بمرتفع الزاب والزيبان بين بسكرة وباتنة وحوض الحضنة .

وتدعي بعض النظريات الجغرافية والجيولوجية بأن هذه الاحواض كانت تمثل في بعض العصور القديمة بحرا داخليا واحدا له ثلاثة منافذ الى البحار ، واحد الى البحر المتوسط شمالا عبر مجرى نهر الشلف ، والثاني الى المحيط الاطلسي غربا عبر ممر تازة ، والثالث الى خليج قابس شرقا عبر شط فجاج ، ثم ان هذا البحر جفت بعض أجزائه ، وبقي البعض على شكل أحواض وشطوط وزواعز داخلية ، أهمها مجموعة أحواض منخفض الجريد ، ومجموعة أحواض منخفض ملغيغ ، ومجموعة أحواض الهضاب العليا .

وتقع أحواض منخفض الجريد على انخفاض 25 مترا من مستوى سطح البحر ، وحولها مناطق سهلية واسعة ، ذات تربة رسوبية التكوين ؛ وكذلك الامر بالنسبة لاحواض منخفض ملغيغ . وفي نفس الوقت تنتشر فيه عدد من القرى العمرانية ذات الكثافة السكانية العالية خاصة منطقة وادي سوف جنوب منخفض ملغيغ ومروان .

ويسود هذه المنخفضات مناخ صحراوي قاس ، جاف وحار صيفا ، وبارد شتاء ، ومن أجل ذلك يعاني السكان باستمرار كوارث الجفاف غالبا ، وتضطرب أوضاعهم الاقتصادية الفلاحية والحيوانية . وشاعت فكرة لبعض الجيولوجيين في القرن الماضي وحتى في القرن الحالي ، بأنه يمكن خلق بحر داخلي في هذه المنطقة من أجل إحداث تغيير في مناخها الذي سيؤدي الى تغيير في أوضاعها الاقتصادية والعمرانية لفائدة السكان .

وهذا البحر تكون نواته الاولى أحواض شط الجريد ، والغرسة ، وفجاج ، التي ستربط بقناة الى خليج قابس الذي لا يبعد كثيرا عن خليج فجاج ، الذي يمثل الذراع الشرقي لشط الجريد الكبير . ثم بعد ذلك يربط في مرحلته الثانية بأحواض منخفض ملغيغ بوادي ريغ في الجزائر . على أن يربط في مرحلته الثالثة بشط الحضنة في اقليم الهضاب العليا بالشمال الشرقي عبر ممر الزاب ، والزيبان ، وحوض ايغرغر في الجنوب عبر وادي سوف .

انه مشروع ضخم حقا ، وعظيم الفائدة لو قدر له النجاح . وقد اهتم به السيد رودير ، ووضع عنه دراسة قدمها الى المجلس العلمي بالاكاديمية الفرنسية بباريس فأحالها هذا على السيد فريناند دو ليسبس عضو المجلس على اثر عودته من مصر بعد

تدشين قناة السويس ، فاستحسنه وشجعه . ومع أننا لم نتمكن من معرفة أهداف رودير من وراء اهتمامه بهذا المشروع ، الا ان دو ليسبس كان صريحا في أهدافه الاستعمارية . فقد اصطحب معه رودير ، وتقابل مع رئيس مجلس الوزراء الفرنسي ليقنعه بأهميته : وأكد له بأن انجازه سيحول دون قيام الثورات ضد السيطرة الفرنسية بجنوب الجزائر وتونس ، ويقضي على محاولة الدولة العثمانية في استعادة سيطرتها على تونس ، ويوقف اطماع الانجليز ويساعد فرنسا على الفور باحتلال تونس في النهاية (2) .

الأمير عبد القادر يؤيد المشروع :

ورغم ان الأمير عبد القادر كان بعيدا عن الميدان ، يعيش في منفاه بدمشق ، الا انه رمى بدلوه في الموضوع ، وعرض تأييده للمشروع : فكاتب دي ليسبس مهنئا ومشجعا له (3) ، وكاتب سكان قابس والمناطق المجاورة لها يحثهم على تأييد المشروع ، ويسليهم عن بعض الخسائر التي ستلحقهم من جراء خلق ذلك البحر الداخلي الذي سيغمر لهم بعض القرى والاراضي الزراعية (4) .

ويدعي الفرنسيون بأن تأييد الأمير عبد القادر للمشروع كان « تلقائيا » وليس بإيعاز من أحد ، كما أن دي ليسبس اعتبر هذا التأييد بمثابة « جواز مرور » لإنجاح المشروع (5) . وليس

---

(2) نفس المصدر . ص 342 .

(3) *L'exploration du Globe.* Journal des conquêtes de la civilisation sur tous les points (Paris 24-11-1879) n° 149 pp. 825-826.

(4) *L'Afrique Explorée et civilisée.* Journal mensuel (Genève, Suisse. novembre 1879), n° 5 pp. 81-82.

(5) *Bulletin de la société de géographie.* pp. 342-343.

باستطاعتنا ، ان نجزم بصحة هذا الادعاء أو نفيه : لأننا لم نتمكن من الاطلاع على أصول الوثائق العربية وكل الوثائق الاخرى المتصلة بالموضوع . ولكن هناك بعض القرائن يمكن ان تساعد على اعطاء الجواب على تأييد الامير « التلقائي » للمشروع .

هل كان الأمير عبد القادر مرشحا لتنصيبه ملكا على مملكة قناة السويس :

لقد كان الأمير عبد القادر على صلة بالشخصيات العلمية والسياسية بأوروبا ، وعين عضوا في المجمع العلمي الفرنسي باكاديمية باريس بعد ان قدم له كتاباً : ذكرى العاقل وتنبيه الغافل . وبسبب عضويته هذه متن صلاته بفرديناند دي ليسبس وافراد عائلته ، خاصة شقيقه جول دي ليسبس . وبسبب هذه الصلة المتينة أهدت له شركة قناة السويس قطعة أرض في « بوبلح » بمدينة بور سعيد ، ورشحه دو ليسبس لينصب أميراً على مملكة قناة السويس التي تسعى الشركة من أجل فصلها عن باقي تراب مصر ، على ما يشيعه بعض المؤرخين المشارقة (6) .

وعندما دعي لحضور حفلة تدشين قناة السويس ، « اجتمع اليه رؤساء الكومبانية يقدمهم الرئيس الاول مسيو فرديناند دو ليسبس وفاوضوه في أمر أرض بوبلح التي كانوا أهدوها له فأخبرهم بان اسماعيل باشا خديوى مصر غير موافق لهم على هذه المنحة واطلعهم على ما كتبه اليه في ذلك فصمموا على تنفيذ أمرهم

---

(6) تراجع في هذا الموضوع وثائق قناة السويس بمكتبة قصر عابدين ، ومكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة التي تتحدث عن محاولة تنصيب عبد القادر ملكا على مملكة القنال .

بأي وجـه كان فأبان لهم انـه لا يريد وقوع الشحنـاء بينهم وبين اسمـاعيل باشا بسببه ثم تبين ان اسماعيل باشا انمـا قصد بمنعه هذا وانكاره ان يستأثر بهذه الارض دون غيره فلمـا اطلع الأمير على الحقيقـة سمح فيهـا للـكومبانية وسقط في يد المانع المـاكر » (7) .

ان أهداف الشركـة من وراء إهدائهـا قطعـة أرض في بور سعيد الى الأمير واضحـة وهو ما جعل الخديوي اسماعيل باشا يعارض ذلك بشدة ، ويعلن ان القنـاة هي التي لمصر وليست مصـر هي التي للقنـاة ؛ ولذلك دخل في مفاوضات عويصة معهـا حتى تنازلت عن البند الذي ينص على حقهـا في ملـكية أراض واسعة حول القنـاة ، ومع ذلك لم تتوقف عن محاولاتهـا لفصل القنـاة عن بقيـة البلاد المصريـة .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنـا : كيف سمح الأمير عبد القـادر لنفسه أن يكون « آلـة » في يد شركة قناة السويس « وعونا » لهـا ؛ تنفـذ بواسطتـه مشـاريعهـا الاستعمـاريـة ، وتحطم به وحدة مصر الترابيـة . ان هذا السؤال سيبقى مطروحـا ما دام لم تكتشف وثائق أخرى تبطلـه . وهذه « الميول » لشركـة قناة السويس ، وزعيمهـا فرديناند دو ليسبس ، هي التي جعلت الأمير عبد القادر يعلن تأييده لمشروع قنـاة قابس ويتوجه بذلك التـأييد الى دي ليسبس بدلا من روديز صاحب المشروع .

(7) الأمير محمد — تحفة الزائر في مـآثر الأمير عبد القادر واخبار الجزائر (الاسكندرية 1903) ، ج2 ص 185—186 . وقد تحدث عن موضوع هذه الأرض فيليب ديستايور وقال انها تسمى بئر أبو بلح . وأشـار الى تقدير شركة قناة السويس في جهوده لدفع المسلمين الى مساعدتها من أجل إنجاز القنال وابرازه الى الوجود . انظر :

Philippe d'estailleur-chanteraine :
L'emir Magnanime-Abd-el-Kader Le croyant. Le Temps et les destins. (Librairie Arthème Fayard Paris - 1959) pp. 205-209.

وهذا التأييد يرجح ان يكون « تلقائيا » نظرا للعلاقات الخاصة التي كانت تربط الأمير وابنه محمد بدي ليسبس وافراد عائلته خاصة أخاه جول دي ليسبس فلقد كان يراسل باستمرار فرديناند وأخاه جول الذى كان وكيلا للحكومة التونسية بباريس ويستشيرهما في بعض الامور . فبعد قيام جمهورية الرابع سبتمبر 1870 كاتب عبد القادر جول دي ليسبس واستشاره في أمر قدومه الى باريس لتهنئة رجال العهد الجمهوري الجديد ، فرد عليه بالقبول والاستحسان ، وفعل مثله ابنه محمد فكاتب المذكور طالبا منه أن يتدخل له لدى رجال العهد الجديد حتى يكون صاحب حظوة لديهم ، وطالبه أيضا بالتدخل لدى باي تونس من أجل الحصول على نيشان لأحد كتاب أبيه الاوروبيين .

وقد فعل الأمير عبد القادر نفسه ذلك فكتب الى الوزير التونسي مصطفى بواسطته يطلب نياشين الى بعض الاوروبيين بمدينة معسكر (8) .

وليس من الطبيعي ان تكون هذه الصلات والعلاقات بين الطرفين : عائلة الأمير ، ودي ليسبس ، لله وفي الله . بل هناك أسباب ودواع ، فشركة قناة السويس بزعامة فرديناند دي ليسبس لايمكن لها أن تقوم باهداء قطعة أرض في منطقة قناة السويس الى الأمير عبد القادر ، لو لم تكن تستهدف تحطيم وحدة مصر الترابية . ولو كان عملها هذا لله ، فلماذا لا تهدى له قطعة أرض في أوروبا مثلا في باريس أو لندن ، ولماذا لا تستشير مسبقا صاحب الارض الحقيقي ، خديوي مصر اسماعيل باشا وحكومته ؟

---

(8) أرشيف الحكومة التونسية ، صندوق 78 ملف 929 وثائق 69 و70 و71 و72 و 91 .

والأمير عبد القادر تورط ووقع في حبال فرديناند دي ليسبس وشركة قناة السويس ، ولم يتفطن لأهدافها ومراميها ، أو أنه كان على علم بها ، ولكنه تغاضى لغاية في نفسه . ورغم ان هذه الغاية لم تتحقق للشركة ، الا انه أصبح يشعر بثقل افضالها عليه ، ولم يجد ما يرد به لها بعض جميلها ، فسارع لتأييد مشروع قناة قابس والبحر الافريقي الداخلي ، كتعويض لجزء من ذلك الجميل ، دون أن يعرف أيضا ما تهدف اليه من وراء ذلك ، ولربما يكون تاييده للمشروع عن طيبة ، ولكن لا بد من الحذر خاصة تجاه مثل هذه الاحداث والمشاكل ، وخاصة بالنسبة لاشخاص كالأمير عبد القادر . ولعل وثائق أخرى تظهر فيما بعد ، تزيد وضوحا ، لهذا الموضوع وتكشف لنا أسرارا أخرى .

نصوص وثائق الفصل

أولا — رسالة الخديوي إسماعيل باشا الى الأمير عبد القادر حول قضية قطعة الأرض المهداة له .

جناب الأمير (9) المحترم والملاذ المكرم الأمير عبد القادر .

بعد اهداء السلام التام وكمال الاحترام اللائق بالمقام نبدي لجنابكم أنه قد بلغنا تشريف حضرتكم وتوجهكم الى ترعة السويس بقصد الاستيلاء على قطعة الارض التي كنتم موعودين بها من طرف الكومبانية على ما قيل وبما انه لما كنتم مشرفين هذا الطرف وحصلت المقابلة مع جنابكم وأخبرتمونا بأن الكومبانية ستعطيكم قطعة أرض وانكم انتم ترغبون في التوطن

(9) الأمير محمد — ج 2 ، ص 186 .

هنـاك وفي ذلك الوقت جاوبنا حضرتكم مشافهة بأن الكومبانية لا يمكنهـا تمليك شيء من تلك الارض حيث إنهـا الى الآن لم تثبت لهـا حيازتهـا وأشرنـا وأومينـا لجنابكم بألطف اشارة وأليق عبارة أننا لا نوافق على توطنكم هناك لما في ذلك من مخالفة الافكار . وبمـا أن عقب أخبارنـا لجنابكم بما ذكرناه كنا تحدثنـا أيضا مع جناب قنصل جنرال دولة فرنسا وبعدهـا جنابه اخبرنـا رسميا مشافهة أن ذات حشمـة الامبراطور لا يأذن في اقامتكم هنـا ما دام ذلك مخالفا لرغبتنـا وضدا لافكار الاهالي والحكومة كمـا والحالـة هذه أيضا مضمون الحكم المحترم الامبراطورى الصادر في حق مادة هذه الترعـة لم يصرح بالترخيص للكمبانية أنهـا تملك أرضا من هناك لأحد ما ، ومن حيث ان توطن جنابكم بهذا الطرف لا تساعدنـا عليه افكار الاهالي والحكومة معـا ، كما أن حكم الامبراطور المفخم لا يساعدكم على استملاك أرض في هذا الطرف فمع غايـة التاسف صرت مجبورا على اخطار جنابكم عن ذلك ، نؤمل عدم المؤاخذة ودمتم .

ثانيـا ــ رسالة الخديوي اسماعيل الثانية الى الأمير عبد القادر حول نفس الموضوع :

حضرة المحترم (10) الأمير المبجل المكرم بعد السلام وكمال الاحترام اللائق بالمقام قد وصلنـا عزيز مكتوبكم الذي ارسلتموه على يد حضرة الباشا باش معاونـا وبه عرفتم عن حضور حضرتكم لأجل استلام الارض التي اعطتهـا الكومبانية لجنابكم الى غايـة ما ذكر فيه صار معلومـا والحال انه قبل وصول مكتوبكم هذا

(10) الأمير محمد ، ج2 ، ص 186–187 .

لما بلغنا تشريف حضرتكم الى الاسكندرية والتعجيل بالتوجه الى جهة القنال ثاني يوم تشريفكم لنجاز المقصود بوقته حررنا لحضرتكم مكاتبة واضحة عن الحقيقة وبها عرفنا جنابكم أن الكومبانية لم يكن لها اذن ولا صلاحية في ان تعطي أراضي ولا املاكا في تلك الجهة لاحد كما هو مصرح عن ذلك بالحكم الصادر من ذات فخامة الامبراطور المعظم المتعلق بمادة الاراضي الكائنة في تلك الجهة ولا يجوز لها في تمليك شيء منها لاحد ثم افهمنا حضرتكم ، ان مقتضيات الاحوال لا تساعد على قبول توطن حضرتكم في هذه الجهات كما ان فخامة الامبراطور ما أجاز توطنكم هنا مع عدم رضانا وقبولنا ، ومن تاريخ مكتوبكم يعلم ان وصول تحريرنا كان بعد تحريره ولا بد أنه علم لديكم منه ما يكفي عن الاطالة في الشرح والاطناب في الاعتذار بهذا الخصوص نظرا للضرورة ودمتم .

ثالثا ــ رسالة الأمير عبد القادر الى جول دى ليسبس يستشيره في موضوع قدومه الى فرنسا لتهنئة العهد الجديد .

الحمد لله وحده (11) .

سعادة الخليل الوفي والصديق الصافي الفاضل الكامل السيد البارون جول دي ليسبس الافخم دام بالعز والنعم أما بعد ، سؤال خاطركم الشريف واستفسار مرامكم المنيف فانه وصلني الاعز كتابكم والالذ الاشهى خطابكم وفرحت بعافيتكم وسلامتكم التي هي عندنا غاية المراد وان سعادتكم ما أخبرتمونا عن فميليتكم جميعا فاننا نطلب سلامة جميعكم ونفرح بفرحكم ونتضرر

(11) أ.ح.ت. صندوق ــ 929 . ملف 78 . وثيقة 71 .

بضوركم دفع الله عنكم كل بأس وشر ونخبر سعادتكم ان بعض الناس أشاروا على ان نطلب الاذن من حكومة فرنسا الجديدة في زيارتهم وتهنئتهم بما حصل من راحة فرانسا على ايديهم وأنا أطلب رأيكم في هذا الامر فاني لا أعرف حبيبا عاقلا ناصحا مثلكم والله تعالى يخلق ما يشاء وأرجوكم ان تسألوا خاطر جميع أحبابنا نيابة عنا . آخر ربيع الاول 1288 (12) .

المخلص عبد القادر

رابعا ــ رسالة الأمير محمد ابن الأمير عبد القادر الى جول دي ليسبس وكيل تونس في باريس في موضوع الوساطة لدى حكومة فرنسا .

من الشام في 15 ربيع الثاني سنة 1288 (13) .

الحمد لله وحده (14) .

سعادة المعظم الارفع والهمام الانفع موسيو جول دو ليسبس الافخم .

غب إهداء كثرة الاشواق الوافرة الوافية لمشاهدة طلعتكم السنية البهية نعرض أنه قد تقدمت مني عدة معروضات لناديكم وما حصلت على الجواب وعلمت ان المانع لعدم مجاوبتكم الارتباكات التي وقعت في فرنسا الذي اناخ الشر ناقته في وسط

(12) الموافق ــ حوالي 19 جوان 1871 .
(13) الموافق حوالي 4 جويلية 1871 .
(14) أ.ج.ت. صندوق 78 . ملف 929 . وثيقة 72 .

مركزها الذي هو ينبوع التمدن واللطف والاختراعات والمعارف والسعادة والتنعم والحظ والسرور فيا أسفا ومن المعلوم لدى الخاص والعام ان الذي وقع هو فخر لرجال دولة فرانسة الحالية يسطر ويدخر في بطون الدفاتر لآخر الدهر لانهم أقاموا ناموس فرانسا بثباتهم في الحصار ومغالبتهم للالمانين مغالبة لم تكن منتظرة وما أجروه من السياسة حينما شبت نيران الحروب الأهلية في باريز وضواحيها والذي عارف ومطلع على حقيقة أحوال فرنسا ورجالها يعلم يقينا أن تلك الفتن التي اندفعت ستأتي في فرانسا بنفع عظيم ، كما اتتها به الفتن الماضية التي عظمتها وأصلحتها واصلحت أوروبا معها هذا واني لي أمل كلي بهمتكم وانظاركم ومساعدتكم تكون لمخلصكم هذا محسوبية وحظ عند الحكومة الجديدة ونعلم يقينا انه لا يحصل لي هذا الا بانظاركم فنرجوا (كذا) عدم اخراجي من أفكاركم بعد ما تستقيم الاحوال وتتجلى الافكار ثم أني قد أطمنت (كذا) على صحتكم الشريفة في مكتوبكم للوالد المؤرخ في 8 ابريل 1871 فسررت جدا وشكرت الباري تعالى على ذلك والمرجو ان تنوب عني في اهداء كثرة أشواقي ووافر احتراماتي لجميع الاصحاب الذين تعرفت بهم حينما كنت متشرف بمحلكم العامر ونرجو ان وجدتم فرصة مع الرجاء بعدم المؤاخذة أن تعرفني عن سعادة أخيكم مسيو فردنان وأولاده والتطمين عن صحتهم لأنني حررت لسعادته وكذلك والدي حرر له ولم يأتنا جواب من طرفه وكذلك تعرفني عن حبيبي موسيو شار مونتوبان وموسيو شار قابو الذي كان ترجمان بالوزارة الحربية سابقا ولسعادتكم الفضل علينا بذلك أرجو من سعادتكم قبول احتراماتي الفائقة لافنديكم الموقر ودمتم كما رمتم .

المخلص في محبتكم محمد ابن الأمير عبد القادر

خامسا — تقرير من جول دي ليسبس الى الوزير التونسي مصطفى حول بعض التطورات في فرنسا مع احالة رسالتين له من الأمير عبد القادر وابنه محمد .

الحمد لله (15) :

تعريب مكتوب للصدر الهمام جناب الولي الوزير الاكبر أمير الامراء سيدى مصطفى من البارون جول دي ليسبس وكيل المعظم الارفع مولانا الملك بباريس في 2 أغشت سنة 1871 .

أما بعد فانه لم يقع بفرانسا الجمعة الفارطة ما تكون فيه مصلحة خصوصية تمس تونس وأهم الامور التي وقعت هي اتمام انتخاب الاعضاء للمجلس البلدي بباريس يوم الاحد الفارط وأكثر الاعضاء هم من محبي السلم والعافية لكنه قد حصل للحزب الآخر الذي هو عكسه مقدار وافر من الاعضاء حتى انه توهم منه العقلاء من أهل الرياضة الذين يودون قبل كل شيء اصلاح ما وقع لوطنهم من الشر من الحرب الاهالي (كذا) ومن اغارة الاجانب بواسطة الخدمة ولا يلزم البناء على ما حصل من الفوز في الانتخابات لهؤلاء الناس . إن أهل باريس مبنيون على الشر لانه يلزم مراعاة عدد السكان الذين لم يتداخلوا في مادة الانتخاب تجنبا من بعضهم واهمالا من غيرهم وهذا يدل على عدم مشاركة كثير من الناس لحزب الثورة والنازلة الواقعة بين السلطان وبين خديوي مصر مع كونها دخلت في طريق المساعدة فانها لازالت لم تنفصل والجرنالات بنت على ذلك آراء متناقضة هذا ولما كان كلما يتعلق بأحوال الغرب وأحوال الجزائر بالخصوص يمس

(15) أ.ح.ت. صندوق 78 . ملف 429 . وثيقة 69 .

دولة المعظم سيدنا فلذلك اتشرف بأن أوجه لجنابكم نسخة من مكتوبين وردا لي من الأمير عبد القادر ومن ابنه فان جناب الأمير المشار اليه لما كانت له علقة ودادية قديمة معي ويستشيرني دائما في الامور الدقيقة سألني هل يناسب قدومه لفرانسا ليهني بنفسه رجال الدولة فهذه نازلة مهمة جدا ولم أر أنه يتيسر لي التدرك لفصلها وحدي فلذلك خاطبت مسيو تيار في هذا الشأن مشافهة وبالكتابة ، فأجابني بواسطة كاتب سره بجواب لطيف مضمونه أنه استحسن خطابي له وأن الأمير عبد القادر لما يقدم لفرانسا يقع له من القبول الحسن ما هو أهل به فقد ناجزت باعلام الأمير المشار اليه بما لدولة فرانسا من الاعتناء به هذا ما لزم عرضه الخ .

الحاق خبر وهو انه في ساعة التاريخ ورد لي اعلام من مطبعة مدام يواتفين بأنها وجهت لجنابكم صحبة هذا البابور صنلوقين آخرين ضمنهما رزمة من الرقاع الجديدة .

سادسا — رسالة جول دي ليسبس الى الوزير التونسي مصطفى خزندار حول رسالة الأمير محمد الذي يطلب نياشين لبعض الأوروبيين .

الحمد لله (16) .

تعريب مكتوب للصدر الهمام جناب الوزير الاكبر أمير الامراء سيدي مصطفى من البارون جول دي ليسبس وكيل المعظم الارفع مولانا الملك بباريس في 20 دجنبر 1871 .

أما بعد فاني اتشرف بان أوجه لجنابكم صحبة هذا المكتوب مكتوبا ورد لي من دمشق من ابن الأمير عبد القادر يطلب فيه بالنيابة عن أبيه نيشانا من الصنف الثاني للسنيور بول دفاس كاتب وترجمان عند والده فلينظر جنابكم ما يظهر لكم في شأن المطلب

(16) أ.ح.ت. صنلوق 929 . ملف 78 . وثيقة 70 .

المذكور هذا واني انتهز هذه الفرصة لتوجه لجنابكم تجريدة تتضمن تقييد النواشن التي وعدت منذ مدة لأنفار معتبرين ولا زالت لم توجه لهم والمناسب توجيهها لهم فورا والمرغوب من فضل جنابكم الاعتناء بمطلبي المذكور . هذا ما لزم عرضه .

الحاق خبر . والمرغوب من فضل جنابكم أن توجهوا على يدي الجواب الذي يظهر للدولة المعظم سيدنا أعطاه على مطلب الأمير عبد القادر وانا أوجهه له من غير تعطيل .

سابعا : رسالة الأمير عبد القادر الى محمد باشا طالبا منه منح نياشين الى عدد من الأوروبيين بمدينة معسكر .

الحمد لله. (17) .

المقام العظيم قدرة الجليل عزه وفخر سند الوزارة العظمى والمنصب الاعز الاسمي مقام رب السيف والقلم والفضائل والحكم وزير الامراء وأمير الوزراء سعادة محمد باشا الاعظم لازال رفيع القدر والهمم أما بعد ابداء واجب المقام الجليل من الاحتفال والتبجيل فقد تلقيت بيد التكريم كتابكم الكريم وتلوته بكمال السرور وابتهاج العيون والصدر حيث بشرني بدوام عز وجودكم ومزيد اقبالكم وسعودكم وشكرت الله تعالى على صفاء مودتكم الحميدة ووفور نعمه رفاهية ذاتكم المجيدة ادام الله في أوج السعادة ارتقاءها وعلى دست الوزراة الكبرى بقاءها هذا ولما كان السيد جنانقي سواربيعي حاكم دائرة معسكر في بلاد الجزائر قد اقام ثم من سنة 1832 الى الآن وتزوج وله ستة أولاد نوادر وخدم الدولة الفرنساوية في تلك البلاد اكثر من ثلاثين سنة وحصل نيشانا من الدرجة الأولى المستحسنة وله اخوان معتبران أحدهما أي ديفزون جنرال كبير حاكم مدينة لانقي وحايز نيشان يسمى

(17) أ.ج.ت. صندوق 929 . ملف 78 . وثيقة 91 .

الحمالة والثاني قبطان بمدينة باريز ومعه نيشان الوردة من الابريز وكان ذلك من أخص المخلصين الينا والمظهرين تمام المحبة لدينا وله عناية وافية باخواننا في الجزائر ورعايته كافية لكافة أخصائنا واردا وصادرا فنرجو مكافأة له على حسن هذه المعاملة التفضل عليه بالنيشان ذى الشأن الفاخر والاحسان اليه بالاتسام بهذا الوسام الزاهر حسبما عودتنا اسلافكم الكرام بالانعام على اخصائنا وذوى الاحترام وبه تغنمون جزيل الشكر وثنائنا ومزيد امتناننا بقبول رجانا أدام الله مقامكم منهلا لكل قاصد وموئلا للمكارم والمحامد والسلام . من الشام في غرة ذي القعدة سنة 1294 (18) .

الداعي المخلص عبد القادر الحسيني الجزائري

ثامنا – رسالة الأمير عبد القادر الى فرديناند دي ليسبس حول قناة قابس والبحر الإفريقي .

الحمد لله وحده (19) .

الى صاحب السعادة السيد فرديناند دو ليسبس بعد ارسال التحيات الخالصة والاحترامات الطيبة اللائقة بمقامكم السامي ، نعلمكم باننا عندما قرأنا صحف مصر وسوريا ، اطلعنا على مقالات مترجمة من جرائد أوروبا لخصت محاضراتكم واحاديثكم التي ألقيتموها في عدة مدن فرنسية ، وفي مدينة لندن ، حول العمل الذى اقترحتموه عن رغبة ومحبة من أجل التقدم ، وهو فتح قنال قابس في افريقيا . ان كل الناس يعرفون ان سعادتكم تمتازون عند الله بحضوة (كذا) واعتبار ، وتحققوا من ذلك بمناسبة افتتاح قناة السويس ونجاحها ، رغم ان عددا كبيرا من العلماء الاوروبيين صرحوا قبل ذلك بأنه عمل مستحيل

(18) الموافق حوالي 7 أكتوبر 1877 .

(19) عربت هذه الرسالة بتصرف من المصدر التالي :
L'exploration du Globe. Journal des conquêtes de la civilisation sur tous les points (Paris 24-11-1879) n° 149 pp. 825-826.

وهم يجهلون بأن رعاية الله تقرب كل بعيد وتفتح الابواب المغلقة ، انهم يجهلون أن ارادة الله نظرت الى ذلك العمل بعين فاحصة فانمحى بذلك الانتقاد ، واصبحت الاماكن الخطيرة ملاجيء ، وحولت حبال الاعناق الى حجب أو خيوط للالجمة .

انه من المستحيل على رجل عاقل ان يجحد فرائد هذا المشروع الذي تحدثتم عنه ، والنتائج التي يجب ان تستخلص لكل الناس البيض والسود ، العرب والاوروبيين ان المشروع سينجح اذا اقتنع به أصحاب رؤوس الاموال الاوروبيين ، وأعطى رؤساء الدول مساعدتهم وتأييدهم له .

لقد عرفنا أن صاحب الجلالة ملك بلجيكا أعطى كل تأييده لهذا المشروع القيم بواسطة تأثيراته ، وجلالته جدير ان يكون المحرك الاول والممهد للطريق لهذا العمل المثمر الفريد والعظيم ، اتوسل الى الله من أجل افلاحه ونجاحه وتوفيقه بفضل عنايكم ودمتم .

في 15 رمضان 1296 (20) .

الصديق المخلص عبد القادر الحسيني

تاسعا — رسالة الأمير عبد القادر الى سكان قابس يحثهم فيها على تأييد مشروع قنال قابس .

الحمد لله (21) الذي صلى على من لا نبي بعده عنده .

الى سكان قابس والمناطق المجاورة السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد اعلموا ان المشروع الذي يعده القائد روديير

(20) الموافق حوالي 31 أوت 1879 .

(21) عربت هذه الرسالة بتصرف من المصدر التالي :
L'Afrique explorée et civilisée. Journal mensuel Genève, Suisse . novembre 1879) n° 5 pp. 81-82.

ويؤيده ويعمل لانجازه السيد فرديناند دو ليسبس هو فتح قنال في منطقة قابس . وهذا المخطط المبارك عبارة عن مشروع مفيد ونافع لسنين طويلة يتوارث الابناء عن الآباء فوائده ونتائجه الطيبة التي لا يستطيع أي رجل عاقل ان ينكرها .

ان الله تعالى خلق الدنيا كلها عاليها وسافلها لفائدة الانسان لكي يسخرها ويستفيد منها . وخلق النجوم والكواكب والشمس والقمر والسماوات لكي يعمل ويحصل على نتائج وفوائد ، وخلق كل ما على سطح الارض من حيوانات ونبات ومعادن واخضعها للانسان لكي يتطور ويتضاعف ويتكاثر .

وقد أمر الله الانسان ونصحه كثيرا في القرآن ان يسخر البحر ، ويمخر عبابه للتجارة وجلب الفوائد والأرباح فقال : « وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وبهذه الآيات حدد التجارة وخصصها ، وفي القرآن الكريم آيات أخرى مماثلة لهذا المعنى . أليس الاسكندر هو الذى فتح للناس البحر المتوسط الذي يبلل شواطىء أوروبا وافريقيا والبلاد العربية ؟

أليس البحر هو الذي ساهم في ربط الصلات والعلاقات بين مخلوقات الله ، وسمح بتبادل العلوم والفنون ونقل السلع فيما بينهم وهو ما يسمح بخلق التجارة .

وقد أعلن الله في الكتاب العتيق للناس ، في كل القرون والعصور الماضية واللاحقة ، بأنه سيخلق أيضا لهم أشياء لا يعرفونها ولم يحدد لهم طبيعتها . فقال تعالى : « ويخلق ما لا

تعلمون » ، وربمـا سيكون فتح هذا القنال من بين هذه الأشيـاء التي سيخلقهـا للنـاس في هذا القرن .

وفي غضون هذا اعلموا الآن بأن هذه المنفعـة العـامـة ، والفوائد القيمـة لهذه المنافع الغير المحدودة ، يمكن أن ينتج عنهـا خسارة وضرر ، وتخريب لبعض الاراضي والقرى ، ولـكن لا ينبغي أن نعدل عنهـا لهذا السبب . ان الله تعالى العارف أكثر من كل العارفين لم يعدل عن خلق النار لفـائدة كل النـاس ، لانهـا تحرق الديـار والبائسين ، ومخلوقـات الله . ولم يعدل عن خلق الحديد الذي يستغلـه كل المخلوقـات الانسـانية ، لانـه سيستغل لقتل الناس الذين سيعودون اليه مثل الرسل والعلمـاء ، والرجال العظمـاء الآخرين الذين عاشوا لفـائدة ومصلحة مخلوقات الله . ولم يعدل عن انزال المطر التي هي خير وفائدة لـكل المخلوقات والحيوانات التي خلقت لخدمـة الانسـان ، لانهـا تنتج عنهـا فياضانات وتخريب للديار والبلدان ؟ .

كذلك اذن المنفعـة العامـة وفوائد الجميع ، لا ينبغي أن يضحي بهـا لسبب بعض الاضرار والعواقب الوخيمـة التي يمكن أن تنتج عنهـا ويجب على كل الناس أن يؤيدوا القائد روديز قولا وعملا ، سرا وعلانيـة ، ويعترفوا بجميلـه وشرفـه لانـه يعمل لهدف نافع لعباد الله وكل الشعوب عائلـة واحدة لله . تلك هي النصيحة التي أوحى إليّ بها الدين أقدمها لـكم والسلام .

دمشق في 15 رمضان 1296 (22) .

عبد القادر بن محيي الدين الحسيني

---

(22) الموافق حوالي 31 أوت 1879 .

خاتمة

ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري :

يا ريشة أحيت لنا ببيانها ذكرى أمير في الكفاح قدير
أهدي قصيدي مكبرا ومقدرا فيك البيان ودقة التصوير

ذكرت في مقدمة الطبعة الأولى أنه (باقتراح مني) أقامت جمعية الطلبة الجزائريين بتونس (العاصمة) مهرجانا عظيما ، أحيت فيه لاول مرة ، ذكرى عظيمة ، وخالدة ، للامير عبد القادر الجزائري تحت اشراف مندوب عن (جيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري) ، وبحضور سفراء الدول العربية الشقيقة .. ومندوبين عن الحكومة التونسية .. والمنظمات القومية : الثقافية ، والنقابية ، والسياسية والاجتماعية وغيرها .

وقد تناول الحديث في هذه الذكرى كل من السيد (علي) : مندوب جيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري ، والكاتب العام للجمعية السيد : عيسى مسعودي محمد ، والاستاذ : الفاضل ابن عاشور ، والاستاذ : عثمان الكعاك ، والشاعر الجزائري أبو عبد الله صالح ، والآنسة : فتحية سلطان ، والاستاذ : أحمد ابن صالح .

وممـا قاله مندوب الجبهة في هذه الذكرى بالخصوص ، قولـه :

« إن هذا القائد خسر معركة .. ولـكن أخفاده وأصلوهـا ببطولـة ولن نخسرهـا بحول الله عز وجل .

« وسنحقق للشعب ما يصبو اليه من حريـة واستقلال . وسيكون نصرنـا محققـا بـإذن الله تعالى .

« وسنعرف كيف نحافظ على هذا الاستقلال بما سنبذله من جهود . وما سيبذله اخواننا بتونس والمغرب وليبيـا .

« وسنعرف كيف نشيد مستقبلنا » .

وقال الاستاذ الفاضل ابن عـاشور :

« ان الايمـان الذي كانت نفس الامير عبد القادر عامرة به ، هو الذي جعل مواطنيه ينقادون له ، ويبايعونه ، ويسيرون من ورائه لتحرير الجزائر .

« وان اسم الأمير عبد القادر يمكن أن يطلق على كل مجاهد عربي في كل مكـان » .

وقال السيد أحمـد بن صالح :

« إن كفـاح الشعب الجزائري لم يطرأ من لا شيء ، بل إنه كفـاح أصيل يعود تاريخه إلى اليوم الذي رفض فيه الأمير عبد القـادر الاحتلال الفرنسي » .

وقال بالخصوص :

« إن استقلال تونس والمغرب سيبقى وهميا ما لم تتحرر الجزائر » .

وقال الاستاذ عثمان الكعاك في خاتمة كلامه :

«أوصي إخواني الجزائريين عندما تحرز الجزائر على استقلالها :

1) بان يجلبوا رفات الامير عبد القادر من سوريا ، ويدفنوه بجامع (كتشاوة) بالجزائر (العاصمة) الذي هو الآن كنيسة ، وكان الاستعمار الفرنسي قتل فيه (30،000) جزائري ، وهم يؤدون الصلاة .

2) بأن يحرروا علمه الاسير الموجود إلى حد الآن بجامع كتشاوة نفسه .

3) بأن يقيموا له تمثالا في العاصمة (الجزائر) مكان تمثال الفرس الذي يحمل على ظهره شخصية فرنسية بساحة الفرس (بطحاء العود) أمام ميناء الجزائر العاصمة » .

وقال الكاتب العام للجمعية السيد عيسى مسعودي محمد :

« ... وإن مات أبو الثورات (الأمير عبد القادر) فكلنا اليوم (الأمير عبد القادر) .. وسنظل كذلك حتى نحقق تحرير الجزائر « المجاهدة » .. واستقلال هذا الشعب المكافح الصابر .. شعب الجزائر العربي المسلم .. رغم أعداء الحرية .. والعروبة .. والاسلام .. والسلام » .

وقالت جريدة الصباح التونسية معنونة لهذا الحدث التاريخي العظيم في اليوم الموالي :

« طلبة الجزائر في تونس يحتفلون بذكرى ثائر الشمال الإفريقي الاول البطل : (الأمير عبد القادر الجزائري) .. في جو

من الحمية والعزم على تخليص الجزائر من براثن الاستعمار المحتضر » (1) .

أما شاعرنا الجزائري (أبو عبد الله صالح) فقد ألقى قصيدا رائعا في مهرجان الذكرى حيا فيه الأمير.. وكفاحه .. وبطولته .. وأشاد بكفاح الشعب الجزائري الحاضر .. وبمواقف جيش التحرير ، وجبهة التحرير ، في جو من الحمية والحماس .

وقد تفضل فاهدى إلي القصيد ، بعد أن توجه بالبيتين السابقين باعتباري المحرض الأول لإقامة هذه الذكرى الخالدة .. والداعي لها .. والعامل لتحقيقها . وقد تحققت رغم كل العراقيل التي اعترضت الطريق .

وفيما يلي نص القصيد كله مصدرا بالاهداء :

الإهداء :

يا ريشة أحيت لنا ببيانها   ذكرى امير في الكفاح قدير
أهدي قصيدي مكبرا ومقدرا   فيك البيان ودقة التصوير

القصيد :

قال أبو عبد الله صالح الجزائري :

الذكر باق والجسوم عوار   فاختر لذكرك أطيب الآثار
يبلي الثرى جسم الفقيد وذكره   يعلي له في الافق ألف منار

---

(1) في عدد (1603) من جريدة الصباح التونسية الصادر في صباح الجمعة (8–3–1957) وصف رائع لهذه الذكرى العظيمة ، فليرجع اليه من شاء مزيد الاطلاع .

وتحله الذكرى بصائر مكبرىٍ ـه ، وجسمه ناء عن الابصار
وإذا افتخرت فبالحسام وباليرا ع ، ففيهما للمرء كل فخار
لولاهما ما عاش حيا بيننـا من نشتكي بنواه بعد الـدار
ماعاش (عبد القادر) الجبار حيـ ـا ، ماثلا بروائع الآثـار
بطل يهز نفوسنا ذكر اسمـه وتميد رعبا مهجة الاشـرار
لاغرو : تلك مهابة الرجل الذي في الحرب قضى زهرة الاعمار
عشرون عاما (2) والحسام يصول في وجه العدو الخائن الغدار
عشرون عاما سجلت بدم الضحا يا ، في سبيل حماية الامصار
عشرون عاما ، كنت فيها (ابن الوليد) تخوضها ببسالة المغوار
لاقى العدو الويل منك فما نجـا إلا بفضـل الغـدر والانكـار
خدعوك بعد العهد والميثاق ثـ ـم رموك في المنفى غريب الدار
ما خانك العزم الوطيد أيا سليـ ـل البأس ، لكن قلة الانصار
ما حيلة المقدام خانتـه السـوا عد في اقتضـاء مهنـد بتـار
ما ذنب سيف الله اذ ولى بجيـ ـش لم يطق صبرا على الاخطار
لاضير ياابن المكرمات فان تقا عس عنك من لم يرع حق الجار
فبنوك في قمم الجبال على الوفا لك بالتفاني في اقتحـام النـار
أحفادك الابطال في أوراس خا ضوها فكانوا قبلـة الانظـار
وتفننوا في المعجزات فـأصبحوا في كل صقع مبعث الاكبـار

---

(2) مدة كفاح الأمير الرسمية من يوم البيعة الى يوم التسليم (خمسة عشر عاما وستة وعشرين يومـا) بالضبط . يعني من (27 نوفمبر 1832 الى 23 ديسمبر 1847) . وكافح عامين قبل البيعة الى جانب والده محيي الدين منذ (1830)م بداية الاحتلال الى يوم البيعة (1832م) .
فتكون مدة كفاحه كلها (سبعة عشر عاما) بدا في ذلك الرسمي والشعبي . ولهذا فتحديد الشاعر لهذه المدة بـ : « عشرين عاما » تجاوز منه لضرورة الشعر .

والعالم العربي في سهر ، يعز ز جنبهم بالمال والاعمار
والمجمع الدولي ينادي باحترا م مبادىء دلت على اقرار
الكل امسى للجزائر — يامخلـ ـدها — لسان دعاية وفخار
لن يسلموها مثلما قد اسلمو ك تلكئوا في سالف الاعصار
فاهنأ بروضتك الغنية ، إن ما من أجله قد خضت كل غمار
يرعاه جيش لا يلين وجبهة بهما العدو على شفير هار
جيش بسيف الله خاض غمارها بالعزم ، بالايمان ، بالايثار
تحميه جبهته العقيدة في سوا د المعضلات بثقاقب الافكار
وعداك إن قاتلتهم بالسيف والر أي السديد ، فانهم لبوار
لم يُجد اسطول تموج به البحا ر ولا كتائب جحفل جرار
كلا ولا قامت (بتهدئة الخوا طر) طائرات الغاز والاعصار
كلاولاأجدى لحفظ الأمن رشا ش يطيح بنسوة وصغار
لاشيء في الدنيا يرد الشعب إن ثارت حفيظته على استعمار
وعلى التمرد إن أصرت أمة لا شيء يرجعها عن الاصرار
بالاستجابة للمطالب ترعوي بالاعتراف لها ، وبالاقرار
ياابن الجزائر لا تفارق قمة الـ ـعلياء ولا يخدعك أي قرار
حتى ترفرف في السهول الراية الـ ـخضراء في حرية وفخار
حرية حمراء صرف لا يشو ب صفاءها كدر من الاكدار
يكفيك قرن كامل قضيته متقلبا في جذوة من نار
قرن وربع القرن عشتهما وأنـ ـت مسخر للمذلة وصغار
يكفيك حرق مداشر يكفيـ ـك نهب متاجريكفيك وأد صغار
طفل رضيع ما جنى ذنبا يمز قه الرصاص كوابل مدرار

شيخ مسن ، غضـة أنفاسـه والجسم منه يحز بالمنشـار
بنت حصان نحو مجزرة العفا ف تسوقها كف البغي الضاري
والمرء لايقوى على نطق وحر مته تهتك في وضوح نهـار
يكفيك هذا يا سليل الباس ، يا نسل الابا ، فلتنتقم للثـار
فاطلب لنفسك عزها أو رم لها عيش الهنا ؛ بتوسد الاحجار
بين الردى والنار ، أنت مخير أما الهوان فلست بالمختـار
طعم الردى في ساحة التحرير ما أغلى جناه لثائر مشتـار
بل ما أمر الشهد في كاس المذ ة يقتنى من عسجد ونضـار
لم يبق في الدنيا مجال لاحتما ل مذلة تـأتي مـن استعمـار
كن ثائرا متمردا ، ياما أعـزْ زّ تمرد الانسان ضـد العـار
أوردت حربا فانتبه ، واحذر مراوغة الثعالب ساعـة الاصدار
ولقد اصيبوا في الصميم فلاتقل خطواتهم من كبـوة وعثـار
لا تلتفت نحو الورا إن الـورا ظلم وأنت تحن للانـوار
فالى الامام ، ففي الامام الفجر يب سم ثغره ببشائر الاسفـار
ولقد مضى فصل الشتـاء ببرده وثلـوجـه ؛ وافتـر ثغر آذار
حيث الخمائل والحرير وزرقة الافق الجميل ، ونغمة الاطيار
هو يوم اعلان التحرر ، وانطلا ق الشعب في فرح وفي استبشار
يوم ننادي فيه : « تحيا حـرة أرض الجزائر في يد الاحرار »

تونس — الجمعة 21 ذى الحجة 1376
19 جويلية 1957

بعض المراجع التي يمكن العودة اليها

بالعربية :

— بوعزيــز (يحيى) .

1 — بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري ، ط1 (تونس 1957) 268 ص . ط2 (دمشق 1964) 196 ص .

2 — ثورة 1871 دور عائلتي المقراني والحداد . (الجزائر 1978) 471 ص .

3 — ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (قسنطينة 1980) 550 ص .

4 — مواقف بايات تونس من الأمير عبد القادر وثورته . الاصالة عدد 23 (جانفي—فيفري 1975) ص : 23—34 .

5 — جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية ، الاصالة . عدد 48 (أوت 177) ص : 2—42 .

6 — الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الافريقي . الاصالة ، عدد 25 (ماي—جوان 1975) ص : 97—118 .

7 — وثائق جديدة عن دور محيي الدين ابن الأمير عبد القادر في ثورة 1871 وعن موقف أبيه والسلطات التونسية منه . الأصالة . عدد 38 (أكتوبر 1976) ص : 25—62 .

8 — وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 . الثقافة ، عدد 39 (يونيو— يوليو 1977) ص : 11—24 .

9 — مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871 . الاصالة ، عدد 61/60 (سبتمبر 1978) ص : 223 .

10 — تدخل الأمير عبد القادر لدى بايات تونس ووزرائها لصالح الثائرين الكبلوتي وبن ناصر بن شهرة . (مجلة جمعية الجغرافية والآثار لمدينة وهران) (وهران 1977—1978) ص : 23—32 .

11 — الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلية (قسنطينة — دار البعث 1981) 93 ص .

12 — اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه . الثقافة ، عدد 57 (مايو—يونيو 1980) ص 15—28 . وعدد 58 (يوليو—آب 1980) ص : 45—60 .

— تشرشل (شارل هنري) : حياة الأمير عبد القادر . ترجمة وتعليق سعد الله (أبو القاسم) . (تونس — الدار التونسية للنشر 1974) 334 ص .

— التميمي (د. عبد الجليل) : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . تونس الجزائر ، ليبيا 1816—1811 (تونس ، الدار التونسية للنشر 1972) 358 ص .

ـ سعد الله (د. أبو القاسم) : أول اتصال عبد القادر بالبريطانيين والامريكيين . مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، عدد 13 (الجزائر ، جانفي 1976) ص : 19ـ39 .
ـ العربي (اسماعيل) : المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر . (الجزائر ــ بدون تاريخ) 324 ص .
ـ محمد (الأمير) : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. ط1 (الاسكندرية 1903) 2 أج. 332+7+314 ص .

المجلات :

الاصالة (1971ـ1980) .
الثقافة (1971ـ1980) .
مجلة تاريخ وحضارة المغرب (1976) .
المجلة التاريخة المغربية (1974ـ1980) .

دور المحفوظات :

ـ أرشيف الوزارة الاولى بتونس .
ـ أرشيف التاريخ الوطني بمدريد (اسبانيا) .

بالفرنسية :

— **ABD-EL-KADER** : *Le cheval arabe pur sang*. Lettre de l'émir Abd-el-Kader au général Daumas. Revue Contemporaine. (31 mars 1867), pp. 252-264.

— **ABD-EL-KADER** : *Rappel à l'intelligent, avis à l'indifférent*. Traduit par Gustave Dugat. (Paris 1858).

— A... (d'Avezac) : *Abd-el-Kader et sa nouvelle capitale*. (Extrait des annales des vayageurs. Juin 1840). (Paris, 1840).

— AIRE (Marie) née **BOISSONNET** : *Quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'émir*. (Amiens, 1900).

— ALBY (Ernest) :
A) *Histoire des prisonniers français en Afrique depuis la conquête*. (Paris, 1847), 2 vol. VIII , pp. 332-384.
B) *La captivité du trompette Escoffier* (Paris, 1848), 2 vol. pp. 372-436

— **ANONYME** (Ch. Dupin) :
A) *Notice sur l'expédition qui s'est terminée par la poésie de la Smala d'abd-el-Kader le* 16 *mai* 1948 (S.D.).
B) *Abd-el-Kader, empereur d'Arabie*. (Paris, 1860).

— ARNAUD : *Siège d'Ain-mahdi par El-Hadj Abdel-Kader ben Mahied-din*. (D'après *Rian Caid du Ksar. R.Af.* (1864).

— **AUBIER** (Lieut. Col. **A.**) : *La bataille de la sikkak* (6 juillet 1836). Revue de Cavalerie (Juin 1905), t. XLI, pp. 157-285.
AZAN (Paul) :

A) *Le commandant de Lamorcière lors du désastre de la Macta*. (Oran, imp. Fouque, 1925), 26 p.

B) L'émir *Abd-el-Kader* (1808-1883), du *Fanatisme musulman au patriotisme français*. (Hachette, 1925), VIII , p. 311.

C) *Les grands soldats de l'Algérie*. (Orléans. Pegelet. S.D. 1931) p. 124

D) *Sidi Brahim*. (Ch. Lavauzelle, 1906), 810 p.

E) *Trois héros de Sidi Brahim. Courby de Cognord, Saint Alphonse et Chargère*. S. (1912), pp. 49-59.

F) *Les prisonniers de Sidi Brahim au Maroc*. (Alger, 1926), 24 p.

— BALLESTEROS (Louis) : *L'émir Abd-el-Kader et l'Algérie*. (Paris, 1865), 30 p.

— BEN ARRACH : *Ambassadeur d'Abd-el-Kader* A. (30 avril 1838), pp. 347-348.

— BELLEMARE (A.) : *Abd-el-Kader*. Sa vie politique et militaire (Hachette, 1854), 462 p.

— BERNDT (Johann Carl) : *Abd-el-Kader ou trois années de captivité au milieu des peuplades de l'Afrique*. Traduit de l'allemand par M. Louis de L.. (Paris, 1848), 599 p.

— BERBRUGGER (Louis Adrien) :

A) *Voyage au camp d'Abd-el-Kader*. Revue des deux mondes (15 août 1838), 80 p.

B) *Négociation entre Mgr. l'évêque d'Alger et Abd-el Kader pour l'échange des Prisonniers*. (Paris 1844), 59 p.

— BONGRAIN (Maurice de):*Les Captives de al daïra d'Abd-el-Kader, Sidi Brahim et Sidi Moussa*, 1845-1846. (Lille, 1864), XII, p. 142.

— BUGEAUD : *Le traité de la Tafna*. Discours prononcé à la Chambre des Députés (8 juin 1838). (L. Fournier, 1925), 40 p.

— CANAL (J.) : *La conquête de l'Algérie, le combat de Sidi Brahim*. (Tunis, 1914), 12 p.

— CARDON (Emile) : *L'émir Abd-el-Kader*. (Paris, 1865).

— CERFBERR de MEDELSHEIN (Auguste-Edouard) : *Combat d'Aïn-Taguin, prise de la Smala d'Abd-el-Kader*. (Aurillac, 1843), p. 8

— CHARLES-ROUX (François) : *Ferdinand de Lesseps et Abdel-Kader* (Alger 1956).

— CIVRY (Comte Eugène de): *Napoléon* III *et Abd-el-Kader, Charlemagne et Witikind*. (Paris, 1863). VI - 435.

— COCKENPOT (Ch.) : *Le traité Desmichels*. (Leroux, 1924) XVI, 226 p.

— COSSE-BRISSAC (Philippe de) : *Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie*, 1830-1847. (Larose, 1931), 176 p. Revue Hespéris. (Rabat, 1931) T. XIII,pp. 35-115 et 133-225.

— Cour (A.) :

A) *L'occupation marocain de Tlemcen* (septembre 1830 - janvier 1836). R. Af. (Alger, 1908).

B) *La poésie populaire au temps de l'émir Abdel-Kader*. R. Af.(1918), pp. 458-493.

— COURSERANT (L.E.) : *Combat de Sidi Brahim, héroïsme sacrifice*. (Mostaganem avril 1890), 24 p.

— DAMBIES (Ch) : *Mustapha ben Ismael* (1768-1843). (Oran - Fouque 1923), 113 p.

— DAUMAS (Ernest) :

A) *Correspondances du capitaine Daumas, consul à mascara*, 1837-1839. Ed. par G. Yver. (Alger, 1912) XXVIII, 686 p.

B) *Les chevaux du Sahara* 2è éd. (1853), 480 p. 3è èd. (1855) 430 p.

C) *Vayage de l'émir Abd-el-Kader dans l'Est de l'Algérie en* 1839. Spectateur Militaire (1844) T. XXXVII, pp. 575-608.

— DEBAY (A.) : *Biographie d'Abd-el-Kader et description pittoresque des populaires de l'Algérie et en particulier du pays des Kabyles.* (Paris, 1845), 132 p.

— DECKER (C.D.) : *Biographie d'Abd-el-Kader* par C. de Decker. Général-major au service de S.M. le roi de Prusse. Traduit de l'allemand par Thonissen. (Anvers 1846), 170 p.

— DUPUCH (Mgr. Ant. Ad.). *Abd-el-Kader au chateau d'Amboise,* dédié à M. Louis Napoléan Bonaparte, Président de la République française. (Bordeau, 1849), 125 p.

— D... (capitaine) : *Immertil combat de Sidi Brahim.* Détails nouveaux S.P. (1845), pp. 315-317.

— EMIRET (Marcel) :

A) *L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader.* (Larose 1951), 302 p.

B) *Tousstain du manoir au pays d'Abd-el-Kader.* R. AF. (1954), pp. 11-152.

— EMIRET (M.) et Pérès (A.) : *Le texte arabe La traité de la Tafna.* R. AF. (1950), pp. 85-100.

— ESTAILLEUR CHANTERAINE (Philippe) :

A) *Abd-el-Kader.* (Lib. de France, 1931), VI, 347 p.

B) *Abd-el-Kader, L'Europe et L'Islam au XIX siècle.* (Juin 1947),-302 p.

C) *L'émir magnanime Abd-el-Kader le croyant.* (Paris, Fayard 1959) 223 p.

— FRANCE (A. de) : *Les prisonniers d'Abd-el-Kader ou cinq mois de captivité chez les Arabes.* (Paris, 1837), 2 vol p. 287-279.

— GOGNALONS (L.) : *Une proclamation de l'émir Abdel-Kader aux habitants du Figuig en* 1836. R. AF. (1913), 22 p.

— Hossin ben Ali ben Taleb (El) : *Histoire d'El-Hadj Abdel-Kader par son cousin.* (1837-1848). Traduit par A Delpech. R. Af. (septembre-novembre 1876) pp. 416-455).

— JULIEN (Ch A.) : *Histoire de l'Algérie contemporaine.* Conquête et *colonisation* 1827-1871, (Paris, P.U.F., 1964) 631 p.

— LACROIX (A. de) : *Histoire privée et politique d'Abd-el-Kader.* (Anvers, 1848), 276 p.

— LANGLOIS (Hippolyte) : *Souvenir d'un prisonnier à Abd-el-Kader.* (Le Hussard Testard). (Paris, 1859). 351 p.

— LA PORTE DES VAULX (Dr. J.P.A.D.) *Les captifs dela daïra d'Abd-el-Kader, Sidi Brahim et Sidi Moussa,* 1845-1846 (Lille, 1867), XII, 142 p.

— LOYER (Abbés Charles) : *La vérité sur l'échange des prisonniers français et les prisonniers arabes.* (Paris, 1870), 43 p.

— MAUDUIT (Hippolyte de) : *Rupture du traité de la Tafna par Abd-el-Kader,* S.D. (1839), pp. 361-364.

— OUDINOT (Général Mts) :

A) *Abd - el- Kader et L'Algérie en* 1839. (Spectateur Militaire), T. XXVII (1839)pp. 151-181.

B) *Abd-el-Kader et la province, d'Oran,* par un offcier général (Mts Oudinot) S.M. T. XXVI (1838), pp. 156-192.

— PEGUES (J.L.) : *Souvenirs militaires algériens. Combat de Sidi Brahim et défense héroïque du marabout.* (*Septembre* 1845). (Alger, 1887), 48 p.

— PELLISSIER de Reynaud : *Annales Algériennes.* 3 tomes. (Paris, 1854) pp, 478-516-554.

- PERROS (capitaine Maurice) et BOISLANDRY DUBERN (E.) : *Abd-el-Kader en exil,* d'après des documents inédits. Extrait de Revue des Sciences politiques, 1913.

— PERNOT (capitaine A.) : *Combat de Sidi Brahim* (23-26 septembre 1845). (Saint Dié. ad. Weik 1901), 103 p.

— PICHON (commandant J.) : *Abd-el-Kader : son rôle militaire, sa captivité, sa mort,* 1808-1883. (Paris, Tlemcen, S.D.).

— PLEE (Léon) : *Abd-el-Kader, nos soldats, nos généraux, les guerres d'Algérie.* (Paris 1866).

— ORLEANS (Ferdinand, Philippe Duc d') : *Campagne de l'Armée d'Afrique,* 1835-1839). (Paris, 1870). XCVIII, 458 p.

— ROCHE (Léon) : *Trente deux ans à travers l'Islam* (1832-1864). 2 vol· 508-503 p.

— SAHLI (Mohamed Chérif) : *Abd-el-Kader le chevalier de la foi.* (Alger 1953) 126 p.

— SCHMITZ (I.P.) : *Histoire des derniers prisonniers français fait par Abd-el-Kader en* 1845. (D'après Barbut). (Paris, 1852), 135 p.

— VILAR (J.B.) : *Emigration Espagnola a Argelia*, 1830-1900. (Madrid, 1975).

— YACINE (K.) : *Abd-el-Kader et l'indépendance algérienne*. (*Alger* - An-Nahda S.D. (1949), 47 p.

— YACINE (Tassadit) : *Un journaliste espagnol en Algérie à la fin du XIXè siècle défenseur de sa communauté* Revue d'Histoire Maghrébine. (Tunis, 1980), n° 17-18, pp. 127-131.

— YVER (G.).

— A) *Abd-el-Kader et le Maroc en* 1838. R.A.F. (1919), pp. 93-

B) *Documents relatifs au traité de la Tafna* (1837). (Alger 192 XXII, 548 p.

C) *Les préliminaires de la négociction de la Tafna*. R. Af. (192 , pp. 529-543.

D) *Lettres de Ben Allal au maréchal Vallée*. R. AF. (1914), pp. 6

— ZAVALA (François) : *La Jandera Espanola en Argelia.* Anales Historicos de la Dominacion Espanola en Argelia des de 1500. Rasta 1791. (Alger, 1885-1886), 3 v.

LES REVUES :

— REVUE AFRICAINE (R.Af.) (1856-1962).

— REVUE DES DEUX MONDES (R.D.M.) (1838).

— REVUE D'HISTOIRE MAGHREBINE (R.H.M.) (1974-1980).

— REVUE DES SCIENCES POLITIQUES (R.S.P.) (1913).

— REVUE DE LA CAVALERIE (R.C.) (1905).

— REVUE DU SPECTATEUR MILITAIRE (R.SP. MIL.) (1838-1844).

— REVUE CONTEMPORAINE (R.C.) (1867).

— REVUE HISPERIS (R. HISP). (1931).

LES ARCHIVES :

—ARCHIVES DE PREMIERE MINISTERE (Tunis).

— ARCHIVES HISTORICO NACIONAL. SECTION DE L'ESTADO. (Affaires Etrangères) à Madrid (Espagne).

صـــور ووثـــائـق



تمثال تذكاري للأمير عبد القادر



رسم للأمير عبد القادر عمره 29 سنة



رسم للأمير عبد القادر سنة 1847



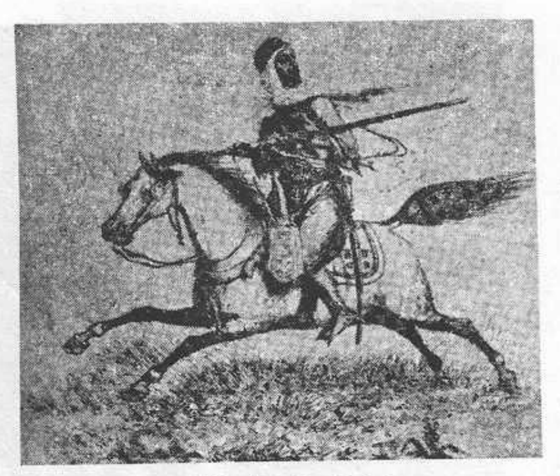
رسم للامير عبد القادر سنة 1866 باسطنبول



الامير عبد القادر يحمس جنوده قبل المعركة



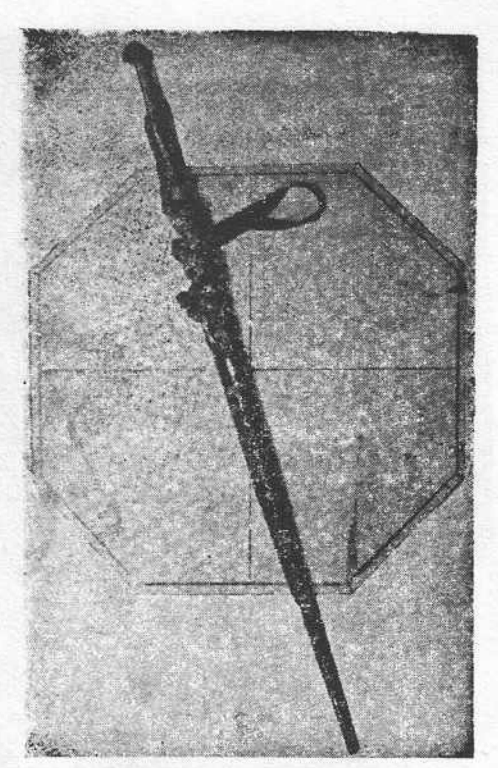
صحبة ماك ماهون



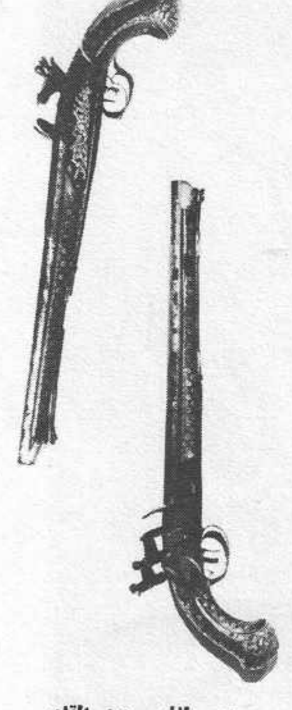
احد فرسان جيش الامير



احد جنود الامير المشاة



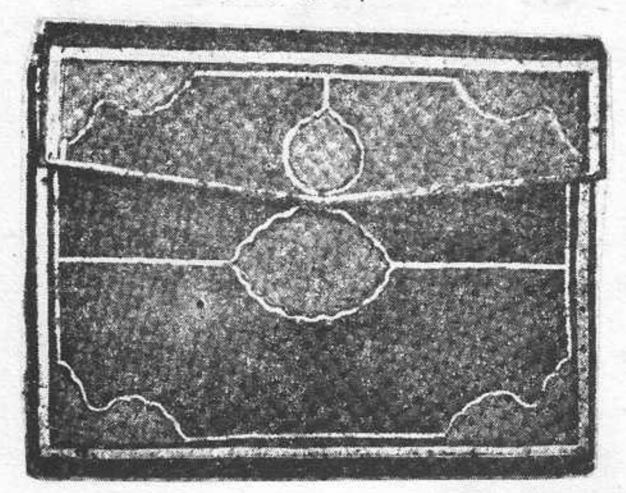
سيف الامير عبد القادر



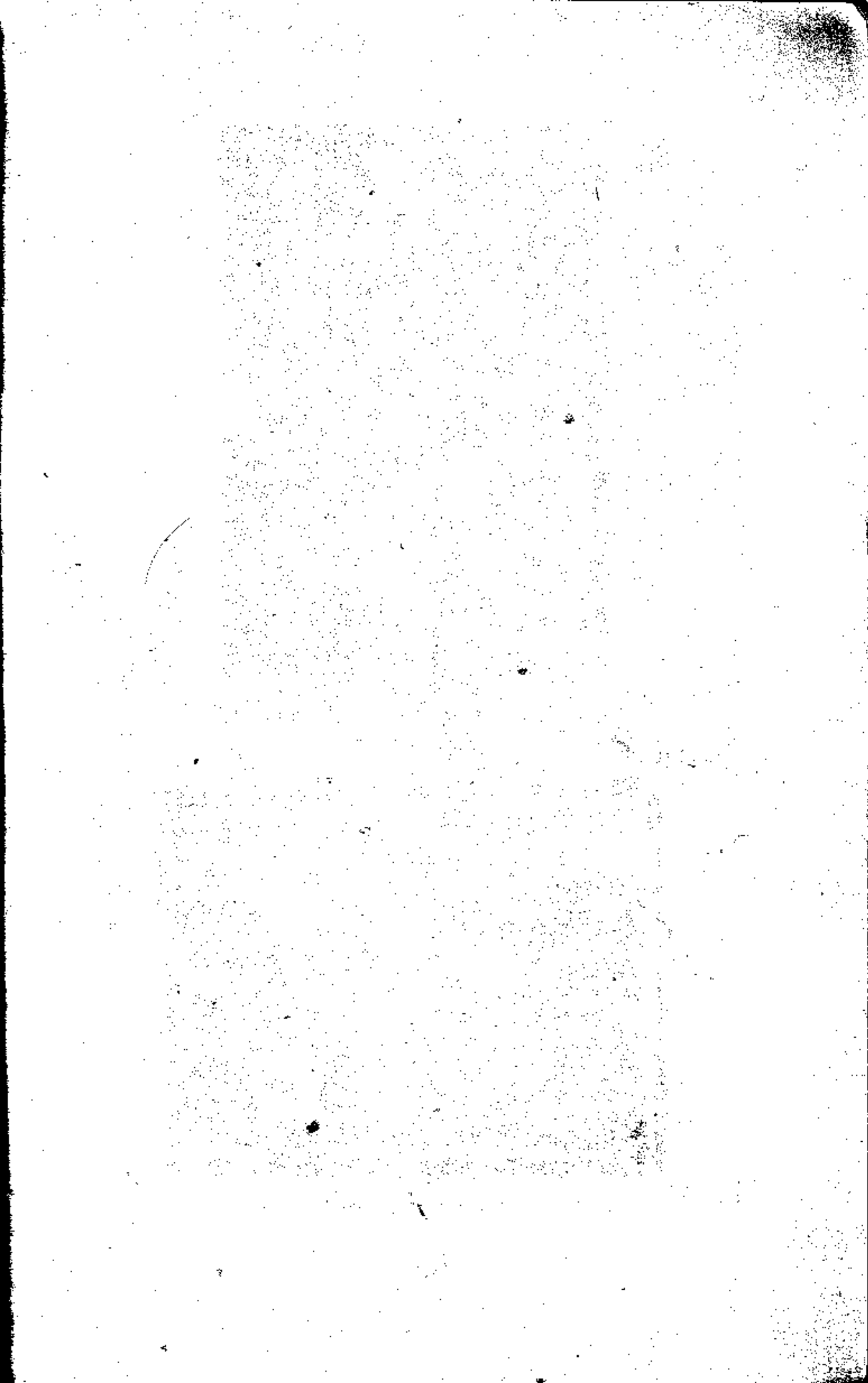
مسدس للأمير عبد القادر



خاتم الامير الرسمى



محفظة الامير عبد القادر كان يحمل فيها كتبه واوراقه الخاصة



فهــرس الصــور والـوثــائـق

صورة رسالة الحسن بن عزوز الى حمودة باشا 203
» رسالة محمــد الصغيــر بن عبد الــرحمن الى مصطفى صاحب الطابع بتونس 236
» رسالة محمد الصغير بن عبد الرحمن الى أحمــد باشا بتـونس 239
» رسالة محمد الصغير بن عبــد الــرحمن الى ابــراهيم بن عون 241
» رسالة محمــد الصغيــر بن عبــد الــرحمن الى محمــد الحسنــاوى 244
» رسالة الحاكم العسكرى بقسنطينة الى كاهية الكاف .. 250
» رسالة محمد الحسناوى الى أحمد باشا 253
» رسالة محمد الحسناوى الى كاهية الكاف 255
» رسالة الأمير عبد القادر الى محمد الحسناوى 259
» رسالة الأمير عبد القادر الى علي بن سالم 261
» رسالة الأمير عبد القادر الى محمد بن‌حسن باي تاونس 264
تمثال تذكاري للأمير عبد القادر 350
رسم للأمير عبد القادر عمره 29 سنة 351
رسم للأمير عبد القادر سنة 1847 352
صورة للأمير عبد القادر سنة 1860 353
رسم للأمير عبد القادر سنة 1866 354

صورة للأمير عبد القادر 355
الأمير عبد القادر يحمس جنوده قبل المعركة 356
الأمير عبد القادر صحبة ماك مهون 356
أحد فرسان جيش الأمير 357
أحد جنود الأمير المشاة 357
سيف الأمير عبد القادر 358
فـرد الاميـر عبد القادر 358
خاتم الأمير الرسمي 359
محفظة الأمير عبد القادر 359

محتوى الكتاب

الاهداء 5
مقدمة الطبعة الثالثة 9
مقدمة الطبعة الثانية 13
مقدمة الطبعة الأولى 21
تمهيد 35

القسم الأول :

الأمير الفتى 39
نشأته 41
البيعة 44
نص عقد البيعة العامة 48
ابرام اتفاقية « دي ميشيل» 52
نقض الهدنة 54
ابرام معاهدة « تافنا » 58
نقض المعاهدة 62
الأمير بالمغرب الاقصى 63
العودة الى أرض الوطن من جديد 64
خاتمة المطاف 66
الأمير بفرنسا ، في قصر امبواز 67
في باريس 69
الأمير بالشرق 70
في دمشق ، حادثة دمشق 71
في الحجاز ، جولته إلى الآستانة وفرنسا ولندرة 72
في مهرجان تدشين قنال السويس ، مرضه ووفاته 73

القسم الثاني :

الأمير البطل 75
شخصيته ودهاؤه وشجاعته 77
مواقفه الانسانية 80
نظم دولته الادارية 82
مجلس الشورى العالي الاميري 82
مناصب الوزارات 83
بقية الوظائف الاخرى 84
المقاطعات 85
النظام العسكري 87
ولايات الغرب 89
الولايات المركزية 90
ولايات الشرق 91
المنشآت 92
النشاط الديبلوماسي 96
بعض رسائل الأمير الديبلوماسية 99
وقائعه التاريخية المشهورة 104
حيرة التاريخ 110
ما يؤاخذ عليه الأمير 114
موقف الرأي العام الفرنسي من أحداث الجزائر 116
التاريخ يعيد نفسه 117
صدق تنبؤات الأمير والشعب 119

القسم الثالث :

الأمير العالم 129
معارفه ومؤلفاته 131
سير التعليم ونظامه في دولته 140

القسم الرابع :

الأمير الشاعر 143
كفاحه القولي 145
اغراضه الشعرية 146
شعره الحماسي 149
بقية الاغراض الاخرى 156
منتخبات من شعره 160

القسم الخامس :

الأمير الديبلوماسي 173
الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع اسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة 175
جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية 217
أ — الحسن بن عزوز 219
ب — أحمد بلحاج (محمد الصغير بن عبد الرحمن) 230
ج — الشيخ محمد الحسناوي 245
د — الأمير عبد القادر 256
موقف بايات تونس من ثورة الأمير عبد القادر 265
وثائق جديدة عن موقف الأمير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 281
أ — موقف الأمير 281
ب — موقف الدولة العثمانية 288
تدخل الأمير عبد القادر لدى سلطات تونس لصالح الثائرين : الكبلوتي وابن ناصر بن شهرة 303

الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الافريقي 313
خاتمة في ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري 333
فهرس الصور والوثائق 361
محتوى الكتاب 363

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم
20 نهج المنجي سليم ـ تونس
تحت عدد 82/25 الايداع القانوني 83/3

عدد الناشر : 83 ـ 8 ـ 101

50,00

... رغم ما كتب عن الأمير عبد القادر ، وما نشر عنه من كتب ودراسات ، باللغة الوطنية والأجنبية ، فان جوانب كثيرة من حياته ونشاطاته العسكرية والسياسية والدبلوماسية ، ما تزال بحاجة الى دراسة ، بسبب كثرة اتصالاته ، وسعتها ، وتنوعها ، مع جهات كثيرة ، وفي أصقاع متعددة من العالم . مما لم يسمح للكتاب والباحثين ان يطلعوا عليها كلها ويقيموها .

وتأكد هذا الرأي وتدعم بالدراسات ، والموضوعات الجديدة التي نشرت عنه بعد استقلال الجزائر عام 1962 حتى في العالم الجديد الأمريكي ...

...ولقد ساعدنا البحث والتنقيب في دور المحفوظات ، على الكشف عن هذه الرسائل والوثائق ، فكونا منها ملفا هاما لنشاطه الديلوماسي خلال المعركة المسلحة بالجزائر ، وبعدها بالمنفى وجعلناه قسما خامسا اضفناه الى هذه الطبعة الثالثة الجديدة من هذا الكتاب بعنوان : الأمير الديلوماسي ...

الدار العربية للكتاب : المقر الرئيسي : عمارة « وفاء »
شارع غومة المحمودي ـ طرابلس ـ ص ب : 3185
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية الهاتف 47.787
الفرع الرئيسي : المنار 2 ـ نهج 7101 عدد 4 ـ تونس ـ
الجمهورية التونسية ـ الهاتف : 236.025 ـ 236.600
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع : ٣ شارع زيروت يوسف ـ الجزائر

الثمن : 2،500 د. ل ـ 3،800 د. ت